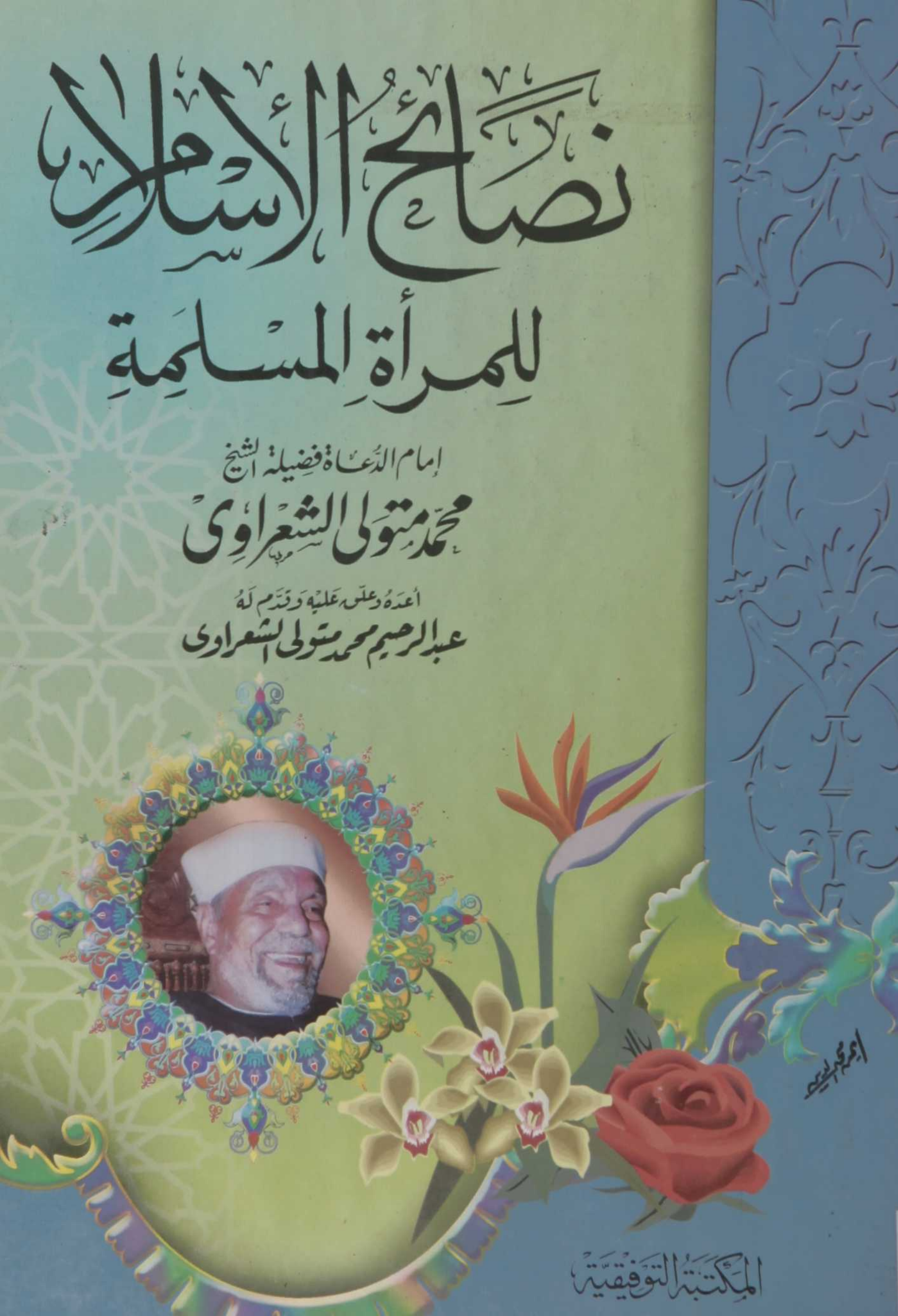


نصائح الإسلام
للمرأة المسلمة
إمام الدعاة فضيلة الشيخ
محمد متولى الشعراوى
أعده وعلق عليه وقدم له
عبد الرحيم محمد متولى الشعراوى
المكتبة التوفيقية

٢١٠/٤
ش م ن

نصائح الإسلام للمرأة المسلمة

لفضيلة الإمام

محمد متولي الشعراوي

أعده وعلق عليه وقدم له

عبد الرحيم محمد متولي الشعراوي



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان : أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠(٠٠٢٠٢)
فاكس : ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo - Egypt
Add : in front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 -5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق سعلان



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمة

الحمد لله وَحْده، والصّلاة والسّلام على من لا نَبي بَعْده، سَيِّدنا محمّد وعلى آله وصَحْبه أَجْمَعين.

وبعد..

فهذا الكتاب: «**نصائح الإسلام للمرأة المسلمة**» للإمام/ **محمد متولي الشعراوي** - رحمه الله تعالى - يضمّ بين دفتيه جملة من نصائح الإسلام للمرأة المسلمة، تهدف إلى تصحيح اعتقادها، وتقويم سلوكها وأخلاقها، وتحصينها ضد التيارات الوافدة.

كما أنها تذكّرها بلقاء رَبِّها - سبحانه - وتدلّها على الطريق إليه.

هذا، وقد كان عملي في هذا الكتاب:

جمع مادته العلمية من خلال خواطر الإمام الإيمانية، ثم ترتيبها بعد اختصارها.

وما أضفته إلى كلامه أشرت إليه في حينه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصّالحات



النصيحة الأولى:

طاعة الله ورسوله ﷺ

اعلمي - أختي المسلمة - أن طاعة الله ورسوله ﷺ توصلك إلى الدّرجات الْعُلَى في الجنَّة.

قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [النساء: ٦٩]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية والتي تليها:

والفعل هنا ﴿يُطِعِ﴾ والمطاع هو الله ورسوله ﷺ، أي أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ﷺ، أي: بالكتاب والسنة، وساعة تجد الرسول معطوفًا على الحق بدون تكرار الفعل فاعلم أن المسألة واحدة، أي: ليس لكل واحد منهما أمر، بل هو أمر واحد، قول من الله وتطبيق من الرسول ﷺ، لأنه القدوة والأسوة؛ ولذلك يقول الحق في الفعل الواحد:

﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ ﴾[التوبة: ٧٤].

فما أغناهم الله غنًى يناسبه وأغناهم الرسول غنًى يناسبه فالفعل هنا واحد. فالغنى هنا من أمر الله ورسوله؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالاً لأمره، فتكون المسألة واحدة.

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهي قضية قد تشغل كثيرًا من الناس الذين عاصروا رسول الله ﷺ كان مجلسه ﷺ لا يُصَدُّ عنه قادم، يأتي فيجلس حيث ينتهي به المجلس، فالذي يريد النبي دائمًا يستمر في جلوسه، والذي يريد أن يراه كل فترة يأتي كلما أراد ذلك. فثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه يومًا ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه، وعُرِف الحزن في وجهه، فسأله النبي قائلاً: «**ما بك يا ثوبان؟**».

فقال: والله ما بي مرض ولا علة، ولكني أحبك وأشتاق إليك، وقد علمت أني في الدنيا أراك وقتما أريد، لكنك في الآخرة ستذهب أنت في عليين مع النبيين، وإن دخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدًا.

ونص الحديث كما رواه ابن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ - وهو محزون - فقال له النبي ﷺ: «**يا فلان ما لي أراك محزونًا؟**».

فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه.

فقال: «**ما هو؟**».

قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا فأتاه جبريل بهذه الآية:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩].

فبعث النبي ﷺ إليه فبشره[١].

---

(١) رواه ابن جرير، والطبراني بنحوه، وله طرق يبلغ بها درجة الصّحة - إن شاء الله - .

وكيف تأتي هذه على البال؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله ﷺ؛ وفكر: هل ستدوم له هذه النعمة؟ وتفكر في الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ﷺ ستعلو كل المنازل.

وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبي ﷺ لن تنتهي ولن تزول منه، إنه يراه في الدنيا، وبعد ذلك ماذا يحدث في الآخرة: فإما أن يدخل الجنة أولا يدخلها، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبدًا. وإن دخل الجنة والنبي ﷺ في مرتبة ومكانة عالية. فماذا يفعل؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله ﷺ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذي شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينًا لهؤلاء ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي: المطيعون لله والرسول ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ والمسألة جاءت خاصة بثوبان، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ﷺ، فأنت مع من أحببت، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان.

لقد كان كلام ثوبان سببًا في الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين، وهي أصناف تستوعب كل المؤمنين، فأبو بكر الصديق صديق لماذا؟ لأنه هو المبالغ في تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ﷺ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل، هل هذه تنفع أو لا تنفع؟ فعندما قالوا لسيدنا أبي بكر: إن صاحبك يدّعى أنه أتى بيت المقدس وعاد في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل، ماذا قال أبو بكر؟ قال: إن كان قال ذلك فقد صدق.

لم يعلل صدقه إلا بـــ «إن كان قال ذلك»، فهذا هو الصدّيق الحق، فكلما قال

محمد ﷺ شيئًا صدَّقه أبو بكر، وأبو بكر - رضوان الله عليه - لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقًا للرسول ﷺ بل بمجرد أن قال ﷺ : إني رسول؛ قال أبو بكر: نعم. إذن فهو صدّيق.

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سبقوا إلى الإسلام؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول، هم جربوا النبي ﷺ ، وعرفوه، فلما تحدث بالرسالة صدّقوه على الفور؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول، ومثال ذلك: سيدتنا خديجة - رضوان الله عليها - ماذا قالت عندما قال لها النبي إنه يأتيني كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رئيًا ومسًّا من الجن يصيبني.

فقالت خديجة: «كلا والله ما يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق»[1] وهذا أول استنباط فقهي في الإسلام.

هذا هو معنى ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: هم الذين قُتلوا في سبيل الله، لكن على المؤمن حين يقاتل في سبيل الله ألا يقول: أنا أريد أن أموت شهيدًا، ويلقي بنفسه إلى التهلكة، إياك أن تفهمها هكذا، فأنت تدافع عن رسالة ولابد أن تقاتل عدوك دون أن تمكنه من أن يقتلك؛ لأن تمكينه من قتلك، يفقد المسلمين مُقاتلاً. فكما أن الشهداء لهم فضل؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل. فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء.

لكن هل يمكن أن نصبح جميعًا شهداء؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين؟

إذن فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك كانت «التقية» وهي أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالي الكفار ظاهرًا،

---

(١) رواه البخاري.

وقلبه مطمئن بالعداوة لهم؛ انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كي يدافع ويجاهد في سبيل الله. وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين في أن الإنسان إذا قُتل في سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير، هذا يثبته الشهيد.

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة، فهناك من يقول: هُبِّي يا رياح الجنة، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كي يسمع من خلفه.

ومفرد «شهداء»، إما «شهيد» وهو الذي قُتل في سبيل الله، وإمّا هي جمع «شاهد»، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلَّغوا من بعدهم كما شهد رسول الله ﷺ أنه بلَّغهم.

والمعاني كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئًا يقول به، وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين: من يُقتل في سبيل الله، ومن يبقى بدون قتل في سبيل الله؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد، والثاني يعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضًا:

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

و﴿ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ «الصالح»: هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية في الأرض.

فكل شيء يؤدي نفعًا يتركه على حاله، وإن أراد أن يزيد في النافع فليرق النفع منه، فمثلاً: الماء ينزل من السماء، وبعد ذلك يكون جداول، ويسير في الوديان، وتمتصه الأرض فيخرج عيونًا، فعندما يرى عينًا للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبنى حولها كي يحافظ عليها. إذن فهذا قد أصلح بأن زاد في صلاحه.

وهناك ثالث يقول: بدلاً من أن يأتي الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا

الماء في القرب أو على رءوس الحاملين، لماذا لا أستخدم العقل البشري في الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس في أماكنهم، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد. ومن فعل ذلك يسَّر على الناس، فيكون مصلحًا بأن جاء إلى الصالح في ذاته فزاده صلاحًا.

ويختم الحق الآية بقوله ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ و﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ تعني النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا توجد رفقة أفضل من هذه، والرفيق هو: المرافق لك دائمًا في الإقامة وفي السفر، ولذلك يقولون: خذ الرفيق قبل الطريق، فقد تتعرض في الطريق لمتاعب وعراقيل؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق. ونعرف أن الأصل في المسائل المعنوية كلها منقول من الحسيات، وفي يد الإنسان يوجد المرفق... يقول الحق:

﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾[المائدة: ٦].

وساعة يكون الواحد، مرهقًا ورأسه متعبًا يتكئ على مرفقه ليستريح، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضًا.

إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق، فالرفيق مأخوذ من الرفق و﴿ٱلْمَرَافِقِ﴾ مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه، وفي كل بيت توجد المرافق وهي مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه. وفي الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التي تخدم الفلاح، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم، ومكان للأكل، وقد يربط الفقير حماره في زاوية من الحجرة، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة. أي يكون في المنزل مطبخ مستقل، ومحل لقضاء الحاجة، وحظيرة مستقلة للمواشي، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل، وهذه كلها اسمها «مرافق» لأنها تريح كل الناس.

إذن فقوله ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ مأخوذة من الرفق وهو إدخال اليسر، والأنس، والراحة، ويكون هذا الإنسان الذي أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

وقد يقول قائل: كيف يجتمع هؤلاء في منزلة واحدة؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم في الدنيا، أليس الله هو القائل:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[النجم: ٣٩].

ونقول: ما دام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول، أليس ذلك من سعيه؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هي من سعي العبد؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه، ويصبح من حقه أن يكون في معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وقد تكون الصحبة تكريمًا لهم جميعًا ليأنسوا بالصحبة، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فساعة يرى واحد منزلته في الآخرة أعلى من آخر، إياك أن تظن أنه سيقول: منزلتي أعلى من هذا؛ لأنه ما دام قد ترك الأسباب في الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا في الدنيا فيقول لكل محب لله: أنت تستحق منزلتك، ويفرح لمن منزلته أعلى منه.

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرون، بعضهم يحب أن ينجح فقط، وبعضهم يحب العلم لذات العلم، وعندما يجد عشاق العلم تلميذًا نجيبًا، أيكرهونه أم يحبونه؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون: هذا هو الأول علينا؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين، فكذلك المؤمن الذي يكون في منزلة بالجنة ويرى غيره في منزلة أعلى، إياك أن تقول إن نفسه

تتحرك عليه بالغيرة، لا؛ لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعًا لله ويفرح له، مثله مثل التلميذ الذي ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد. وهكذا نجد أن الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها لا تخدش قول الحق:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩].

وهناك بحث آخر في قوله الحق ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فـ «اللام» تفيد الملك والحق، كقولنا: ليس لك عندي إلا كذا، أي: أن هذا حقك، فقوله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أي: هي حق للمؤمن، وقد حددت العدل في الحق و لم تحدد الفضل، ولذلك قال بعدها:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٧٠]

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعي الإنسان، فقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ حددت الحق الذي لك والذي توجبه عدالة التكليف، لكن ربنا لم يقل: إن هذا العطاء لله من الحق والعدل، بل هو من الفضل، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن؛ لأنك مهما عملت في التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله، ولذلك أوضح سبحانه لنا: تنبهوا... أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون، لكن لا تفرحوا بما سيجمعه هذا العمل من حسنات، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله، قال سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وذلك الفضل من الله يردُّ على من يقول: كيف يجيء «ثوبان» أو من دون «ثوبان» ويكون في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ونقول: لو لم تكن منزلته أدنى لما كان في ذلك تفضل، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة، أما حبه لله وللرسول، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له

- وما توفيقي إلا بالله - والفضل هو مناط فرح المؤمن، ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ ونحن نرضى ونفرح ونكتفي بعلم الله؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط، ويعرف صدق الحب القلبي وصدق الودادة، وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه في المنزلة.



النصيحة الثانية:

اتباع الرسول ﷺ سَبَبٌ لنَيْل حُبّ الله، ومغفرة الذّنوب

اعلمي – أيتها المسلمة – أن اقتفاء أثر النبي ﷺ سبب لِنَيْل حبّ الله تعالى للعبد، ومغفرته لذنبه.

قال الحق سبحانه:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران: ٣١].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

ولنا أن نعرف أن كلمة ﴿قُلْ﴾ إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول ﷺ عن ربه، بلاغ للأمر وللمأمور به، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: «إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول ﷺ ذلك لكان قد أدى «المأمور به» ولم يؤد الأمر بتمامه، لماذا؟

لأن الأمر في ﴿قُلْ﴾، والمأمور به ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ وكأن الرسول ﷺ في كل بلاغ عن الله بدأت بــ ﴿قُلْ﴾ إنما يبلغ «الأمر»، ويبلغ «المأمور به»، مما يدل على أنه مبلغ عن الله في كل ما بلغه من الله.

إن الذين يقولون: يجب أن تحذف ﴿قُلْ﴾ من القرآن، وبدلاً من أن نقول: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلننطقها: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

لهؤلاء نقول: إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى «المأمور به»، ولم يؤد

«الأمر»، إن الحق يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية تدل على ماذا؟ إنهم لابد قد ادعوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله ﷺ ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئًا، واتباع التكاليف شيئًا آخر، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد، وإمداد، وتلك نعمة، ولله على خلقه فضل التكليف، لأن التكليف إن عاد على المُكَلَّفِ - بفتح اللام المشددة - ولم يعد منه شيء على المُكَلِّفِ - بكسر اللام المشددة - فهذه نعمة من المكلِّف.

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد، إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان، وقد ضربنا المثل - ولله المثل الأعلى - بالآلة المصنوعة بأيدي البشر، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانون صيانة ما، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها، وهي تتلخص في «افعل كذا»، و«لا تفعل كذا»، ويختار لهذه الآلة مكانًا محددًا، وأسلوبًا منظمًا للاستخدام.

إذن: فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما، وطبعها في كراسة صغيرة، هي لفائدة المنتفع بالصنعة، هذا في مجال الصنعة البشرية، فما بالنا بصنعة الله ﷻ؟!

إن لله إيجادًا للإنسان، ولله إمدادًا للإنسان؛ ولله تكليفًا للإنسان، والحق قد جعل التكليف في خدمة الإيجاد والإمداد، إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة في «افعل»، و«لا تفعل» لفسد علينا الإيجاد والإمداد، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضًا من ناحية قبول التكليف، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفه بالتكاليف الإيمانية.

إنك قد تحب الله، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله، وأن يحبك الله، إن التكليف قد يبدو شاقًا عليك فتهمل التكليف؛ لذلك نقول لك: لا

يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده، لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكليفه التي تعود عليك بالخير، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان، فلا تهملها، ومن الجائز أن تجد عبادًا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته - سبحانه - في التكليف، إن الله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف.

ونحن في مجالنا البشري نرى إنسانًا يحب إنسانًا آخر، لكن هذا الآخر لا يبادله العاطفة، والمتنبي قال:

أنت الحبيب ولكني أعوذ به   من أن أكون حبيبًا غير محبوب

إن المتنبي يستعيذ أن يحب واحدًا لا يبادله الحب، فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله، لأنهم عبيد إحسانه إيجادًا وإمدادًا، ثم بعد ذلك يستنكفون، أو لا يقدرون على حمل نفوسهم على أداء التكليف لهؤلاء نقول: أنتم قد منعتم شطر الحب لله، لأن الله لم يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم، لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد، لماذا؟

لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد، والحب - كما نعرف - هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله، فإننا نرى آثارها، وعملها، من عفو ورحمة ورضا، وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون في الطاعة.

إن الحب الذي هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القالب، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها، طاعة منه وحبًّا لله، ليتلقى محبة الله له بآثارها، من عفو، ورحمة، ورضا.

والحُب المطلوب شرعا يختلف عن الحُب بمفهومه الضيق، أقول ذلك لنعلم جميعا، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط، فلا يكلف شططا، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة. إن الحب المراد لله في التكليف هو الحُب العقلي، ولابد أن نفرق بين الحب

العقلي والحب العاطفي:

العاطفي: لا يقنن له، لا أقول لك: «عليك أن تحب فلانًا حبًّا عاطفيًّا» لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له، إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة، يحبه بعاطفته، ويكره قليل الذكاء بعقله.

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه، وهو متفوق فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران، هناك - إذن - فرق بين حب العقل، وحب العاطفة.

والتكليف دائمًا يقع في إطار المقدور عليه وهو حب العقل، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه: ماذا تكون حياتي وكيف لو لم أعتنق هذا الدين؟ وماذا تكون الدنيا وكيف لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين وأرسل لنا هذا الرسول الكريم؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل.

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضًا، لكن المكلف به هو حب العقل، وليس الحب العاطفي، ولذلك يجب أن نفطن إلى ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحَدُكم حتى أكون أحَبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[1].

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال: «أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس؟ إنني أحبك أكثر من مالي، أو من ولدي، إنما من نفسي؟ ففي النفس منها شيء».

وهكذا نرى صدق الأداء الإيماني من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكررها النبي ﷺ

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ثانيا، وثالثا، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفًا وعرف أنها لابد أن تكون من الحب المقدور عليه، وهو حب العقل، وليس حب العاطفة.

وهنا قال عمر: «الآن يا رسول الله؟».

فقال الرسول ﷺ : «**الآن يا عمر**».

أي كَمُل إيمانك الآن، أي أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحُب وهو الحب العقلي.

ونريد هنا أن نضرب مثلاً حتى لا تقف هذه المسألة عقبة في القلوب أو العقول، نقول – ولله المثل الأعلى – إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعمًا ويسأل نفسه: هل أحبه أم لا؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله، لا بعاطفته.

إذن: فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعافه، وعندما تتضح لك حدود نفع بالشيء فأنت تحبه بعاطفتك، إذن: فالمطلوب للتكليف الإيماني «الحب العقلي» وبعد ذلك يتسامى ليكون «حبًّا عاطفيًّا» وهذا يكون قول الحق: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذا الحب ليس دعوى.

إن الإنسان منا عندما يدعي أنه يحب إنسانًا آخر، فكل ما يتصل به يكون محبوبًا، ألم يقل الشاعر:

وكـــل مـــا يفعـــل المحـــبوب محـــبوب

فإن كنتم تحبون رسول الله ﷺ فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية، ولنلتفت إلى الفرق بين «اتبعني»، و«استمع لي».

إن الاتباع لا يكون إلا في السلوك، فإن كنت تحب رسول الله ﷺ فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله ﷺ وأن تفعل مثله، أما إذا كنت تدعي هذا الحب،

ولا تفعل مثلما فعل رسول الله ﷺ فهذا عدم صدق في الحب، إن دليل صدقكم في الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله ﷺ فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا، فيحبنا الله، لأننا آثرنا تكليفه على المشقة في التكليف.

إن فهم هذه الآية يقتضي أن نعرف أن الحق ينبهنا، فكأنه يقول لنا: أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد، وبعد ذلك وقفتم في التكليف لأنه ثقيل عليكم، وهنا نقول: انظروا إلى التكليف أهو لصالح مَنْ كلَّف أم هو لصالح مَنْ تلقَّى التكليف؟ إنه لصالح المكلَّف، أي: الذي تلقى التكاليف.

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم، فتصبح النعم هي «نِعم الإيجاد»، و«الإمداد»، و«التكليف»، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد، فهذا يقتضي أن تحبه أيضًا للتكليف، ودليل صدق الحب هو قيام العباد بالتكليف، ومادمت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله، فلابد أن يحبك الله، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر.

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أن الرسول ﷺ المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتم شيئًا مما أُمِرَ بتبليغه، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقًا بين رسول الله ﷺ وبين الله، لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ إن مسألة «يغفر لكم» هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعي، فمن لم يكن في باله هذا الأمر؛ وهو حب الله واتباع الرسول ﷺ فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ في هذه المسألة فورًا ويتبع الرسول ﷺ وينفذ التكليف الإيماني، وسيغفر له الله ما قد سبق، وأي ذنوب يغفرها الله هنا؟ إنها الذنوب التي فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول،

فجاء الرسول ﷺ بالحكم فيها.

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحدًا على ذنب سابق مادام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيماني، إن الذين أبلغهم رسول الله ﷺ كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغًا، وقد جاء البلاغ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ، وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضًا.



النصيحة الثالثة:

أداءُ الأمَانةِ.. والْحُكْم بالْعَدْل

اعلمي - أيتها المسلمة - أن أداء الأمانة والحكم بالعدل، خُلُقان كريمان، يأخذان بيدكِ - يوم القيامة - حتى يدخلاكِ الجنّة.

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ : «**اضْمَنُوا لِي سِتًّا من أنفسكم أَضْمَنْ لكمُ الجَنَّة: اصْدُقُوا إذا حَدّثْتُم، وَأَوْفُوا إذا وَعَدتُمَ، وأَدُّوا إذا ائتُمِنْتُم، واحفظوا فروجَكُم، وَغُضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم**»[1].

وها هو الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾[النساء: ٥٨].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

وقوله سبحانه: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض، لأن الأمانات هي: الأمانة العليا وهي الإيمان بالله، والأمانة التي تتعلق ببني الجنس، والأمانة التي على النفس لكل الأجناس.

ومعنى الأمانة هو: ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها، إن شئت فعلتها، وإن شئت لم تفعلها، أنت تقول: أنا أودعت عند فلان أمانة، هذه الأمانة

(١) حسن: رواه أحمد وابن أبي الدنيا وغيرهما، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠١٨).

لوكانت بإيصال لما كانت أمانة؛ لأن هناك دليلاً، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة.

فالأمانة: أن تودع عنده شيئًا، وضميره هو الحكم، إن شاء أقرَّ بما عنده لك حين تطلبه، وإن شاء لم يقرّ به، قال الحق:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فما هي الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان، وعلة تحمله لها أنه كان ظلومًا جهولاً؟

إن الكون كما نعلم فيه أجناس، أدناها الجماد، وأوسطها النبات، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان، والإنسان هو سيد هذه الأجناس، لأنها تخدمه جميعًا، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأي منها في أن يفعل أو لا يفعل، وإنما كل جنس منها قد خلق لشيء ليؤديه، ولا اختيار له في أن يمتنع عن الأداء.

الأرض والسموات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل، وأشفقت الأرض والسموات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء الأمانة.

فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها، لقد احتاطت السموات والأرض والجبال وقالوا: لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك، نطيع أو نعصي، وإنما يا رب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا، فسلمت الأرض والسموات والجبال، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجح الاختيار بين البديلات قال: أنا أقبلها وإن فكري سيخطط لأدائها، ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها.

ومثال ذلك: من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغًا من المال كأمانة عندك، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئًا من المال، أو أن تكون - والعياذ بالله - قد خربت ذمتك.

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ، فالذين يحتاطون يقولون: أبعد عنا تحمل الأمانة، فلا نريد أن نحمل لك شيئًا ولكن الإنسان قَبِلَ تحمل الأمانة؛ لأنه ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء، إذن فالأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من الله.

إن التكليف محصور في «افعل، ولا تفعل» فإن شئت فعلت في «افعل»، وإن شئت لم تفعل في «لا تفعل»، وإن شئت العكس، ومعنى ذلك أن الأمانة في هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض، لكنها لم تتعرض للأمانات التي توجد بيننا، والأمانة كذلك هي ما يتعلق بذمتك بحق غيرك؛ لذلك فحينَ يعطي إنسان إنسانًا شيئًا يصير الآخذ مؤتمنًا فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد.

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان، فالعلم الذي أعطاه الله للناس أمانة، فهل الذي علمك علمًا وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك: أدّه لي، كمثل من يكون مأمونًا على مال؟

نقول للعالم: العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يرده لك ولكن الله يجازيك عليه ثوابًا وكذلك في الحلم والشجاعة، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا في المال، لكن في بقية الأشياء؛ نقول لك: أنت أمين عليها أمام خالقك، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كي تؤديها إلى من لا يعلم، فأمنك على قدرةٍ وأمرك: أعطها لمن لا يقدر، وأمنك على علم وأوضح لك: أعطه لمن لا علم له.

إذن فمن الذي أعطاك هذه الأمانة؟ الله. فليس ضروريًا أن تكون الأمانة من صاحبها الذي أعطاها لك لتردها إليه، فالأمانة: ما تصير مأمونًا عليه ممن خَلَقَ أو من مخلوق، فأدها، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك، أهليتك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك، وأهليتك في المواهب المختلفة أمانة عندك، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولابد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة، فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل، وأعطى ذلك قوة فكر، وأعطى ثالثًا قوة حلم، وأعطى رابعًا علمًا، كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله في خلقه ليتكامل الخلق، فحين يؤدي كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين.

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحدًا، والأمانة في التكاليف التي كلفك الله بها؛ لأنها أمانة لغيرك عندك، وأمانة عندك لغيرك، فحين يكلفك الله بألا تسرق، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك.

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك، فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذي يحيط بك الأمانة التي عنده، وهكذا تكون الأمانة هي : أداء حق في ذمتك لغيرك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ قيل نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وكان سادن - خادم - الكعبة وحين دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسِّدانة، فنزلت هذه الآية، فأمر أن يرده إلى عثمان رضي الله عنه

ويعتذر له فقال عثمان لعلي: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنًا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله ﷺ أن السِّدانة في أولاد عثمان أبدًا.

وهذا، ويقابل الأمانة شيء بعد ذلك اسمه العدل، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاضٍ، والتقاضي معناه: أن واحدًا أنكر حق غيره، فلو أدى كل واحد منا ما في ذمته من حق لغيره لما وجد تقاضٍ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذٍ.

ولكن الحق الذي خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدَّر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطي الحق الذي في ذمته لغيره، فقضى سبحانه بشيء آخر اسمه «العدل»، ولو أن المسألة الأولى انتهت لما احتجنا للعدل.

إذن: فـ «العدل»: هو علاج للغفلة التي تصيب البشر من الأغيار التي تطرأ على نفوسهم، فشاء الله أن يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ في الأولى لم يقل: إذا ائتمنتم فأدوا، لا.. بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ﴾ فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فما الذي يحمي هذه المسألة؟ هنا يأتي العدل وهو أن تقضي بحق في ذمة غيرك لغيره، أي ليس في ذمتك أنت؛ لأنك تحكم كي ترجح مسألة وتضع الأمر في نصابه.

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون في شيء عندك تؤديه لغيرك، لكن مطلوبات العدل: تكون في أشياء في ذمة غيرك لغيرك، ولذلك قال الحق:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، وكما أن آية أداء الأمانة عامة، كان لابد أن تكون آية العدل عامة أيضًا.

إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ ليست خاصة للحاكم فقط، بل إنّ كل إنسان مطالب بالعدل، فلو كنت مُحكَّما من طرف قوم

ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم في الأمور التي يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة؛ فليس ضروريًّا أن يكون الحكم بالعدل في أمر له قيمة مادية.

مثلاً: سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن؛ ليحكم بينهما أي الخطين أجمل من الآخر، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل، فلابد أن يكون الحكم بالعدل، فقال الإمام علي لابنه الحسن: يا بني انظر كيف تقضي، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة.

إن هذا يعطينا صورة في دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيرًا، وفي مباريات كرة القدم تجد الحكم الذي يقول هذه اللعبة تحتسب هدفًا أو لا تحتسب، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيترتب عليها فوز فريق أو هزيمته، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثور عليه.

وهنا أتساءل: لماذا طبقتم قانون الجد في اللعب، ثم تركتم الجد بدون قانون؟! وهذا ما يحدث.

نحن ننقل قوانين الجد إلى اللعب، ونترك الجد في بعض الأحيان بدون قانون، ولو اعتنينا بهذه كما اعتنينا بتلك، لتساوت الأمور، فالعدل إذن هو حق في ذمة غير لغير حتى ولو كانت مباراة في اللعب، ومادام الأمر قد شغل طرفين، وجعل بينهما نزاعًا وخلافًا وتسابقًا فعليك أن تنهي هذا الخلاف بالعدل.

ويتابع الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾.

و﴿نِعِمَّا﴾ يعني نِعْمَ ما يعظكم به الله، أي لا يوجد أفضل من هذه العظة التي هي: أداء الأمانة والحكم بالعدل، فبهذا تستقيم حركة الحياة.

فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان

هناك خلاف ينتهي.

وقال العلماء: إذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرِّئ ذلك ظالمًا على أن يظلم بعد ذلك، فيقول الظالم: فلان ظلم ولم يحاكم، فيغري ذلك الظالم أن يزيد في ظلمه، لكن ساعة يرى الناس أحدًا يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحدًا.

وسبحانه في أمره هذا لا حاجة له في أن تفعلوا أو لا تفعلوا، فهي أشياء لا تؤثر عنده في شيء، إنما هي في مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الآمر بفائدة، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الآمر قد يشكك في الأمر.

لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل، وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة، والأمر هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة في الأمر، هذه واحدة، وأيضًا فهو - سبحانه - واسع العلم والحكمة؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جدًّا، وهي نعمة من الله وأما ما عداها فبئست العظة؛ لأن الله لا ينتفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعًا، والثانية: أنه قد يوجد غير لا ينتفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾.

يعني: نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن تحكموا بالعدل.

ونلحظ الأداء البياني في القرآن في قوله: ﴿تُؤَدُّواْ﴾ هذه للجماعة، وهذا يعني أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾، فيكون كل واحد مطالبًا بالحكم أيضًا، كأن مهمتكم الأمانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم، لا، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين.

إن قوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ يُفهم منها أيضًا حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدي الأمانة إلى ﴿أَهْلِهَا﴾ ولم يقل: «أهلها المؤمنين أو الكافرين».

إن كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع، فسبحانه هو الذي استدعى الإنسان للدنيا، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر، لكن أحدًا لا يخرج عن نطاق الربوبية لله، فربنا يربُّ ويرعى كل إنسان - مؤمنًا أو كافرًا - هو يزرق الجميع ولذلك أمر الكون: يا كون أعط من فَعَل الأسباب الغاية من المسببات إن كان مؤمنًا أو كافرًا، وهذا هو إعطاء الربوبية، إنه - سبحانه - رزق الإنسان وسخَّر الأشياء له، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن وللكافر، فكذلك طلب منا أن نؤدي الأمانة للمؤمن والكافر، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر.

ولنا في الرسول ﷺ الأسوة الحسنة، فقد حدث أن «طعمة بن أُبيرق» أحد بني ظُفر سرق درعًا[1] من جارٍ له اسمه «قتادة بن النعمان»، في جرابٍ دقيق والاثنان مسلمان، إلا أن منافذ الحق لمرتكب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها، مثلما نقول: «الجريمة لا تفيد»، فوضع الدرع المسروقة في جراب كان فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبأ الدرع عند يهوي اسمه «زيد بن السمين»، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياع الدرع قال: سُرق الدرع، سُرق الدرع.

فتتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة بن أبيرق، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه، فتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودي «زيد بن السمين» فقال اليهودي دفعها إليَّ «طعمة» وشهد له ناس من اليهود، ورفع الأمر إلى رسول الله ﷺ

(١) الدرع: هو القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من الطعن بالسلاح.

وجاء بنو ظفر إلى رسول الله ﷺ فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودي، فهمّ رسول الله ﷺ أن يفعل وأن يعاقب اليهودي فأنزل الله عليه حكمه الفصل:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء: ١٠٥ - ١٠٧].

أي: لا تكن يا محمد مدافعًا عن الخائنين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودي؛ لأن الحق أولى من المسلم، فمادام هو قَبِلَ أن يخون فلا تجادل عنه، ولماذا طلب بنو ظفر التغاضي عن جريمة مسلم وإلصاقها بيهودي؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله؟! وافرض أن هذه برأهم عند الناس، أتبرئهم عند الله؟!

ويقول في آية أخرى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ١٠٩].

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ لابد أن نأخذه على أنه مطلب تكليفي من الله للمسلمين حتى يشيع في كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم، وإنما يشمل أيضًا ما بين المؤمنين والكافرين، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله ﷺ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

وحين ترون تذييل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق، فلابد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة، وهنا يعلمنا الحق

أنه سميع وبصير، بعد أداء الأمانة، والحكم بالعدل بين الناس، لأنَّ الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضي بين الناس أن يسوي بين الخصمين في لحظه ولفظه أي: لا ينظر لواحد دون الثاني، ولا يكرم واحدًا دون الآخر، فيسوي بين الاثنين ومادام سيسوي بين الاثنين، فلابدَّ أن تكون النظرة واحدة، والألفاظ واحدة.

روى أن يهوديًّا خاصم سيدنا عليًّا بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فنادى أمير المؤمنين عليًّا فقال: «قف يا أبا الحسن» فبدا الغضب على عليّ ﷺ، فقال له عمر: «أكرهت أن نسوي بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟» فقال علي ﷺ: «لا، ولكني كرهت منك أن عظمتني في الخطاب فناديتني بكنيتي و لم تصنع مع خصمي اليهودي ما صنعت معي».

إذن: فحين يقول عمر ﷺ لأبي موسى الأشعري: «آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك»، فلابد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع خصمًا على خصمه.

و«اللحظ»: عمل العين، وهذا يحتاج إلى بصير، و«اللفظ»: يحتاج إلى أذن تسمع، أي: إلى سميع، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لماذا قدم سبحانه هنا ﴿سَمِيعًا﴾ على ﴿بَصِيرًا﴾ ؟

لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح، أما النظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه ينظر بحنان وإكبار، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه، وهل وُجدَت له صفة البصر بعد أن وُجدَ ما يبصره؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقًا يسمع منه، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقًا ليبصر أفعالهم؟ إنه سبحانه قديم أزلاً، موجود قبل كل موجود، وصفاته قديمة بقدمه.

إذن: ففيه فرق بين أن تقول: «سميع وبصير»، و«سامع ومبصر»، فأنت تكون سامعًا إذا وجد بالفعل مَنْ يُسْمع، إذن: فما معنى كلمة ﴿سَمِيعًا﴾؟

أن يكون المدرِك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعًا فقط، إنما هو سميع، وكذلك بصير.

وأضرب المثل - ولله المثل الأعلى وهو منزه عن كل تشبيه - الشاعر الذي يقول القصيدة، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعرًا في ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة الشعر في ذاته، والحق سبحانه وتعالى «غفَّار» قبل أن يخلق الخلق، أي أنه على صفة تدرك الأمر إن وُجد، وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره، وهو «سميع بصير» أزلاً، أي: قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبْصَر وينشأ منهم ما يُسْمَع.



النصيحة الرابعة:

ذِكْرُ الْمَوْت

اعلمي - أختي المسلمة - أن أكيس الناس أكثرهم للموت ذِكْرًا، وأحسنهم لِمَا بَعْده استعدادًا.

روى ابن ماجه بإسناد جيد، والبيهقيّ في «الزهد»:

أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أيّ المؤمنين أفضل؟

قال: «**أحْسَنُهُم خُلُقًا**».

قال: فأيُّ المؤمنين أكْيَس؟

قال: «**أكثُرهُم لِلموتِ ذِكْرًا، وأَحْسَنُهُم لِمَا بَعْدَه اسْتعدادًا، أولئك الأكياس**».

أختي المسلمة:

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، والقيامة موعده، والجنّة والنار مورده، أن لا يكون له فكر إلاّ في الموت، ولا ذكر إلاّ له[1]، ولا استعدادًا إلاّ لأجله، ولا تدبير إلاّ فيه، ولا تطلّع إلاّ إليه، ولا تعريج إلاّ عليه، ولا اهتمام إلاّ به، ولا انتظار وتربّص إلاّ له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور، فإن كلّ ما هو آت قريب[2].

---

(١) بعد ذكر الله تعالى.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤٤٨/٤).

وها هو ربُّ العزّة سبحانه يقول:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهاتين الآيتين:

نعرف أن الحق ساعة يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني: إن كانت مرئية في زمنها، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها، وإن كانت غير مرئية فمعناها: ألم تعلم، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين، وحين يقول الحق: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ لابد أن تكون بوادر مدّ الأيدي موجودة، فلن يقال لواحد لم يمد يده: «كف يدك»، والكلام هنا في القتال، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء في المقابل فقال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ إذن فقد قيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ لأن بوادر مدّ الأيدي للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا: دعنا يا رسول الله نقاتل، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال، وعندما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية، زمن قيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ وزمن: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال.

وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه، مصداقًا لقول الحق: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون: هل هذا يعني أنهم خافوا الناس أو رجعوا في الإيمان؟ كما طلب بعض من بني إسرائيل القتال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

إذن: فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقي، قد يدب في نفوسهم الخَوَر والخوف، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتي على المؤمن، فمادام الإنسان ليس رسولاً ولا معصومًا فلا تقل: «فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا» لأن فلانًا هذا لم يدَّعِ أنه معصوم، ولذلك يصح أن تأتي منه الأخطاء، وتأتيه خواطر نفسه، وتأتيه هواجس في رأسه، ويقف أحيانًا موقف الضعف، ولذلك عندما يقول لك واحد: «فلانة عملت كذا، وفلان عمل كذا» قل له: وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون؟ وماداموا غير معصومين فقد يتأتَّى منهم هذا.

والله يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يعني أنهم ليسوا سواء، ففريق منهم أصابه الضعف، وفريق آخر بقي على شدته وصلابته في إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف، ثم انظر أدب الأداء؛ لم يقل: فلان أو فلان، بل قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا يستدعي أن يبحث كل إنسان في نفسه، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد.

ومادام الستر قد جاء من الرب، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه، ولذلك نقول دائمًا: ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه: تكريم للناس جميعًا.

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أتحب أن يطَّلع الناس على غيبك؟! لا؛ إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك

فاعرف أن هذه نعمة ورحمة: لأن الإنسان ابن أغيار، فيصح أن واحدًا أساء إليك في نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك، وأنت أيضًا تريد أن تتخلص منه وتكرهه، فلو أطلعه الله على ما في قلبك، أو أطلعك على ما في قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه.

وأنت أيضًا أيها العبد قد تعصيه ويحب أن يستر عليك، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له، بالله أيوجد رب مثل هذا الرب؟! شيء عجيب؛ فقد تكون عاصيًا له ويحب أن يستر عليك، ويأمر غيرك: إياكم أن تتبعوا عورات الناس، فقد يكون عندهم بعض الحياء، ويكونون مستترين في أسمالهم وملابسهم لماذا؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم.

إذن: فالحق يرحم المجتمع، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع، ونقول لمن يفعل ذلك: يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك، فاجعله مستورًا كما أراد الله.

إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل، ويخاف من الموت؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذي عمله في الدنيا، ولذلك نجد أحد الصحابة يقول: أكره الحق، فتساءل صحابي آخر: كيف تكره الحق؟ قال: أكره الموت ومن منا يحبه!

ولماذا يخشى الناس القتال؟ لأن الله حين يُميت، يُميت بدون هدم بنية، ولكن الأعداء في القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة.

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾ وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال، كي نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشيء تتمناه، وعندما يأتيها تعارضه.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾ فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام؟

يوضح الله لنا ذلك: إنهم يقولون: يا رب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء، وقد لا نقدر عليه في ساعة الخوف من لقاء المعارك؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وأن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو، وكلمة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾ توضح أن كل واحد منهم يعي تمامًا أنه سيموت حتمًا، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهي حياته بالقتل.

ولماذا تطلبون التأخير؟ أحُبًّا في الدنيا ومتاعها؟

ويأتي جواب الحق: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصًا يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلون، فكلكم ستموتون، وكل منا يجازيه ربنا على عمله، أما الذي يُقتل في سبيل الله فسيجازيه على عمله فورًا، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت، لأنه سيأخذ الشهادة.

ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل في الحرب جهادًا في سبيل الله، قال بعضهم: إذا كان لا مفر من الموت، فلماذا لا نذهب لنقاتل في سبيل الله، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا، إذن فهذا تربيب وتنمية للفائدة، ولذلك قال الحكيم:

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلَّنا الشجعان

أي أن الحياة لو كانت تبقى لحي لكان أضل ناس فينا هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم في الحرب، لكن المسألة ليست كذلك، والشاعر العربي يقول:

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُلخدى

والمتنبي يقول:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصًا عليها مستهامًا بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن: فالاثنان يحبان نفسيهما، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق.

وعندما ننظر إلى إجمالي السياق في الآية نجد أن الحق سبحانه يربي – في صدر الإسلام – الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا، لكن الرسول ﷺ يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة؛ لأن الإسلام جاء وفي نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة، فكلما أهيج واحد منهم في شيء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حربًا، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية، وأراد أن يجعل الغضب كله لله.

وحينما جاء الإذن بالقتال، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة، ولا ليكرههم على إسلام، وإنما جاء ليحمي النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذي يريد أن يجعل الأضعف تبيعًا له، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار في الإنسان فكان القتال حفاظًا على كرامة الإنسان أن يكون تبيعًا في العقيدة لغيره، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضًا عقليًّا؛ فمن استجاب له فمرحبًا به، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه، وهذا يدل علىَ أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس، وضمن لهم الحرية في أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بيّن لهم الرشد من الغيّ.

وحينما شرع الله القتال فقد شرّعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التي تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرًا طبيعيًّا، فبيّن لنا أن الطبع الإنساني يعالج بالتربية، ولهذا نجد أن بعضًا من الذين طلبوا القتال خافوا؛ ﴿ إِذَا

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾.

إذن: فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل، وأن نخوض القتال بالفعل؛ لذلك تجد أن منهم مَنْ خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا، والقتل كما تعلمون: هدم بنية، ولكن الموت حتف الأنف: هو الذي يسحب به الله الروح الإنسانية، دون هدم بنية أو نقض لها، وأيضًا فالقتال يكون مظنة القتل، والخوف من القتال مظنة التراخي في الأجل، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله؛ لذلك قالوا: ﴿ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ ﴾.

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية، وسبحانه يريد أن يبرئ المؤمن أن يكون قتاله للحمية؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية؛ لتكون كلمة الله هي العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفًا شرسًا في تثبيت قاعدة الاختيار الإيماني في البشر، فقال الحق لرسوله ﷺ: إن قالوا لك ذلك ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعني أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر، فأوضح الحق: لا؛ ضعوا مقياسًا تقيسون به الجدوى، فسبحانه قال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

إنه شراء وبيع، وأيضًا قال سبحانه في الصفقة الإيمانية:

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠].

إذن: فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية، واللبق، والفطن، الذكي هو الذي يتاجر في الصفقة الرابحة أو المضمونة، أو التي تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها، فلو أننا قارنا الدنيا لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد في عمر الفرد؛

لأن الدنيا تطول في الزمن، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها، لا بمقدار أعمار الآخرين، فإن دامت للآخرين طويلاً، فما دخل الفرد في ذلك؟!

إذن: فالدنيا بالنسبة للفرد هي زمن محدد، والله يبشر المؤمن الذي يقتل في سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمنًا غير محدود، وأيضًا فالبقاء في الدنيا بدون قتل وإلى أن يموت الواحد حتف أنفه، هو بقاء مظنون وغير متيقن، ونحن نرى من يموت طفلاً أو شابًّا أو كهلاً، أما الآخرة فهي غير محدودة وهي متيقنة.

إن النعيم في الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد في تحقيق النعيم، وأما النعيم في الآخرة فيكون على المقدار الذي أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته، فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا – على فرض أنه متاع – هو قليل بالنسبة للآخرة.

إذن: فالحق ينمي فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية، أو ليستذله، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له.

ومثال ذلك: عندما منع الدين واحدًا أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضًا كل الآخرين أن يسرقوا من أي واحد، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ في حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا في حقه، فإذا قال الدين لواحد: لا تمد عينيك إلى محارم غيرك، ففي هذا القول ما يوصي كل غيرٍ في الدنيا: لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان، فالكسب العظيم – إذن – يعود على الفرد.

وقول الحق: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل في قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ونعرف أن «**الفتيل**» هو ما فُتل من الأقذار حينما يَدْعك الإنسان كفّيه معًا، يخرج

ناتجًا كالفتلة، أو «**الفتيل**» هو الفتلة في بطن النواة، أي لا نظلم حتى في الشيء التافه، والعدالة هنا بمشروطها؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر.

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمنًا لأنها تأتي بفضلها، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر، وتحسب الحسنة عند الله في ميزان العدالة بما أخذ من الفضل، فلا يقولن أحد: إن هناك عدلاً من الله بدون فضل.

إذن فقول الحق: ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ هو بضميمة الفضل إلى العدل، ولذلك نحن ندعو الله قائلين: «اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل»؛ لأن مجرد العدل قد يتعبنا، وندعو الله: «وبالإحسان لا بالميزان»؛ لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب، وندعو الله: «وبالجبر لا بالحساب» والجبر هو أن يجبرنا الله.

وهكذا نرى أن قوله الحق. ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ بلاغ من الحق لنا: أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر.

وقوله الحق: ﴿ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ يعني فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل، وسبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها، فإياك أن تظن أن عملك هو الذي سيعطيك الجزاء، إنما فضل الله هو الذي سيعطيك الجزاء، يقول الحق:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٨].

فالفضل هو الذي يُفرح قلب المؤمن، ثم يأتي الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله ﷺ في أُحُد، ثم قتل من قتل من المسلمين؛ فقال المنافقون:

﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت، وأن الذهاب إلى القتال هو الذي يجلب الموت، ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه «الظرف»، إن الذين درسوا «الظرف» في النحو يقولون: ظرف زمان أو ظرف مكان، فكل حدث من الأحداث لابد أن يوجد له زمان ومكان، والزمان في الموت مبهم والمكان في الموت أيضًا مبهم، فظرف حدث الموت زمانًا أو مكانًا مبهم، وحين يبهم الله شيئًا؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان، فالإبهام من عنده أوضح بيان، كيف؟

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت في أي لحظة، وهل هناك بيان أوضح من هذا؟ فحين جهَّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنَّا معرفة زمنه، ولكنه أشاع زمنه في كل زمن، فلا أحد بقادر على الاحتياط من زمن الموت، وكذلك الحال في مكان الموت.

وها هو ذا الحق يقول:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

فالعقل البشري الذي يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكانًا - عليه أن يعي جيدًا أنه لا يستطيع ذلك، فوجود الشخص عند ظرفٍ ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت، فالعندية سواء في معسكر الكفر أو في معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت.

والعندية - كما نعلم - تعطي ظرف المكان. فلطافة تغلغل الموت تخترق أي مكان وزمان مادام الحق قد قضى به. أعداء الإنسان في عافيته وفي حياته كثيرون، لكن إن نظرنا إليها في العنف نجدها تتناسب مع اللطف. فكلما لطف عدو الإنسان ودق؛ كان عنيفًا، وكلما كان ضخمًا كان أقل عنفا. فالذي له ضخامة قد يهول

الإنسان ويفزعه، **ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه.**

لكن متى يكون العدو صعبًا؟ يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك. فيتسلل إلى الإنسان.

ومثال ذلك: هب أن واحدًا يبني بيتًا في خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع أساس البيت فيقول لصاحب البيت: إنك لم تحتط لمثل هذا المكان، فهو يمتلئ بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديدًا على النوافذ التي في الدور الأول، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة.

ويضع صاحب البيت حديدًا على نوافذ الدور الأول. ويجيء واحد ثان ويقول له: لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين. ويجيء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول: إنني أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة؟ إنه ذباب سام. وهنا يضع صاحب البيت سلكًا على النوافذ. ويجيء واحد رابع ليقول لصاحب البيت؛ في هذه المنطقة حشرات أقل حجمًا من الذباب وأكثر عنفًا من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذي تضعه على نوافذك، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقًا بحيث لا تمر منه هذه الحشرات. إذن: فعدوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفًا.

ولذلك فأخطر الميكروبات التي تتسلل إلى الإنسان، ولا يدري الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها. إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدري ولا يعرف لذلك زمانًا أو مكانًا.

ويلفتنا - سبحانه - إلى أن الشيء عندنا كلما لطف ازداد عنفًا، ولا تمنعه

المداخل. فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبدًا.

وما مقابل الموت؟ إنه الحياة حيث توجد الروح في الجسد. وما كنه الروح؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها في نفسه، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها.

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهي. والحق هو الذي جعل للحيّ روحًا، وعندما ينفخها فيه تأتي الحياة.

إن الحق - سبحانه - يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك في بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها، فنحن لا نعرف - مثلا - الفيروس المسبب لبعض الأمراض.

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحًا يهبه بها الحياة، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق - سبحانه وتعالى - في «سورة الملك»:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١، ٢].

إذن: فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس، بل عملية إيجابية، وهو مخلوق بسرّ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع.

ووصف الحق أمر الموت والحياة في «سورة الملك» وقدم لنا الموت على الحياة؛ مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولاً ثم يأتي الموت. لا، إن الموت يكون أولاً، ومن بعده تكون الحياة. فالحياة تعطي للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يتاجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولاً.

ينبهنا ويوضح لنا الحق: لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة، فيقول لنا عن نفسه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذي يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ويأتي الحق - سبحانه - بالموت في صورة كبش ويذبحه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت يوم القيامة، فيوقف على الصراط، فيقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه. فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم رَبَّنَا، هذا الموت، ثم يُقال: يا أهل النار، فيطلعون فرحين مستبشرين، أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه. فيُقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، فيأمر به فيُذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين: كلاهما: خلود فيما تجدون لا موت فيه أبدا**»[1].

وتجسيد الموت في صورة كبش معناه أن للموت كينونة. ويعلمنا الله أنه يقضي على الموت، فنحيا في خلود بلا موت.

وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا في سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا. نقول لهم: العندية عندكم لا تمنع الموت. ولو كان من دنا أجله وحان حَيْنه يسكن في بروج مشيدة لأدركه الموت.

إن الأداء القرآني يتنوع؛ فهناك من الأداء ما نفهمه من الألفاظ، وهناك ما نفهمه من الهَدْي الأسلوبي للقرآن؛ لأنه خطاب الرب.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٢٤، ٢٠٤)، وأصله في «الصحيح».

فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية، لكن عندما يخاطب الحقُّ الخلقَ فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس.

ولذلك نجد طفلاً صغيرًا يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور، فيسأله واحد من الكبار: ما الذي يسرك في حفظ القرآن؟ فيجيب الصغير: إنني أحس بالانسجام وكفى. هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه، فالمتحدث هو الله، وسبحانه بقدرته وجمال كماله يخاطب كل الملكات النفسية.

وسبحانه وتعالى يقول:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨].

أي أينما توجدوا يدرككم الموت. وكلمة ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح، إلى أن يدركها في الزمن الذي قدره الله.

وكلمة: «يدرك» توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة: «حتى إذا أدركها جرت، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَكِ»، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق: «الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك».

وهكذا نعرف أن قوله الحق: ﴿يُدْرِككُّمُ﴾.

تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجري وراء روحه حتى يدركها.

ويقول الحق: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

وعندما نبحث في الحروف الأصلية لمادة كلمة الـ ﴿بُرُوجٍ﴾ نستطيع أن نرى المعنى العام لها. والحروف الأصلية في هذه الكلمة هي «الباء» و«الراء» و«الجيم» وكلها تدل على الارتفاع والظهور.

فيقال: «هذه امرأة فيها بَرَج». أي أن عيونها واسعة وتحتل قدرًا كبيرًا من

وجهها وتكون واضحة، فالبَرَجُ هو الاتساع والظهور.

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعًا كحصون وقلاع نبنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد.

والقصد من ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي أنها بروج تم بناؤها بإحكام، فالشيء قد يكون عاليًا ولكنه قد يكون هشًّا. أما الشيء المشيد فهو من «الشِّيد» وهو «الجص»، ومن «الشَّيْد» وهو الارتفاع، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالجص فهي مرتفعة متماسكة.

إنك إذا رأيت جمعًا وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا آحادًا. فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه: أخرجوا كتبكم. فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه. وعلى ذلك يكون القياس. فلو بنى كل إنسان لنفسه برجًا مشيدًا لجاءه الموت.

والجمع مقصود أيضًا: أي لو كنتم جميعًا معتصمين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع، كأنه حصن محصَّن فالحصون في بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة. وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع. وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون. والموت يدرك البشر ولو كانوا في برج محاط ببروج. وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق في إنفاذ أمره بالموت.

وساعة يتكلم - سبحانه - عن الموت وعن الحياة في الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأن الدين هو نور طارئ على ظلمة، والذين يعيشون في الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد في الآخرين. وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجيء النور؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال؛ ولأن النور يوضح الرؤية.

لذلك يوضح - سبحانه وتعالى - أنه أتى بالموت ليؤدي حاجتين:

الحاجة الأولى:

أنّ مَن يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف لقاء الله؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والحاجة الثانية:

أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقي ربه.

إذن: فكلمة الموت، تعطي الرَّغَب والرَّهَب. فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه: إن متاعب الدنيا لن تدوم، أريد أن ألقى ربي.

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية. وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب في عزيز؛ فالإنسان مادام مؤمنًا فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإمَّا غير مؤمن، فإن كان مؤمنًا فليفرح له المؤمن الذي افتقده؛ لأن الله عجَّل به ليرى خيره، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك. وإن كان الذي ذهب إلى ربه غير مؤمن، فالمؤمن يرتاح من شره. إذن: الموت راحة، والذي عمل صالحًا يستشرف إليه، وهذا رَغَب، أما الكافر فهو خائف؛ وهذا رَهَب.

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميْت، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ اهـ.



النصيحة الخامسة:

الزُّهْدُ في الدُّنْيا

من الأعمال التي ينال الإنسان بها حُبّ الله تعالى: الزهد في الدنيا.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ، دُلّني على عملٍ إذا عَمِلْتُهُ أَحبَّني اللّهُ، وأحبّني الناس؟

فقال: «**ازْهَدْ في الدنيا يُحبُّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبُّك الناس**»[1].

والزّهد في الدنيا يُعْلِي الهمّة في طلب الآخرة، والاستعداد لها.

وها هو الحق سبحانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وحول قول الحق سبحانه:

﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

يحدّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

وكلمة «دنيا» بالنسبة لحياتنا أعطتنا الوصف الطبيعي الذي ينطبق عليها؛ لأن

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٢٢).

الدنيا مقابلها «العليا». والحياة العليا تكون في الآخرة. فإذا كانت هذه هي الحياة الدنيا، فلماذا تربط نفسك بالأدنى إلا أن يكون ذلك خورًا في العزيمة؟

والمثال للقوة الإيمانية هو: سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ، وكان قبل أن يصبح خليفة المؤمنين يرتدي أفخر الثياب ويتعطر بأجمل العطور، وكان الناس يدفعون أموالاً لمن يغسل ثياب عمر بن عبد العزيز ليدخلوا ثيابهم مع ثيابه حتى تمتلئ عطرًا. وذلك من غزارة وجود العطر الذي كان يضعه عمر بن عبد العزيز على ثيابه فتخرج كل الثياب مليئة بالعطر. وعندما أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة، كانوا يأتونه بالثوب الخشن الذي كان يرفض ارتداءه قبل الخلافة، فيرفضه ويقول: هاتوا أخشن منه، وامتنع عن العطر، أي: أن معاييره قد تغيرت وليس في هذا أدنى تناقض، بل هو علو في الحياة، ولذلك قال: اشتاقت نفسي إلى الإمارة فقلت لها: اقعدي يا نفس، فلما نِلْتُها اشتاقت نفسي إلى الخلافة فنهيتها عن ذلك، فلما نلتُها، أي نال الخلافة، اشتاقت نفسي إلى الجنة فسلكت كل طريق يؤدي إليها.

وهكذا نعرف أن سلوكه ﷺ لم يكن في تناقض بل تعلية للصفقة الإيمانية، كان دائمًا في علو يريد أن يواصله، فقد اشتاق أولاً إلى الإمارة، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق للخلافة، فلما تحققت أراد أن يعلو فاشتاق إلى الجنة، إذن فهو دائمًا في عُلُوٍّ.

وأقول: ليس في سلوكه أدنى تناقض؛ لأن علماء النفس يفسرون التناقض في السلوك البشري على أنه اختلاف في المقارنة، فالإنسان يقارن بشيء لم يقارن بشيء آخر وهكذا، لأن كل شيء في الدنيا نسبي، ومعنى النسبية أن ينسب الشيء لما حوله، فإذا قلت: إنني أسكن فوق فلان، فأنت في نفس الوقت تسكن تحت فلان الذي يعيش في الطابق الذي يعلوك، إذن فأنت فوق فلان وتحت فلان في نفس الوقت، فلا تأخذ نقطة وتغفل عن الأخرى، وهذا اسمه «معنى إضافي» أي: أن المعاني لا تتحقق إلا بذاتها، ولكن بالنسبة إلى شيء تقاس به، وكذلك المقاييس بين الأشياء يجب أن نقيسها بالأمور التي تُصعد لك القيمة، فأنت إذا نظرت إلى الدنيا،

تجد أن الحق سبحانه أسماها: «دُنيا» ولم يجد اسمًا أقلَّ من هذا ليسميها به، لماذا؟

لأنك تتنعم في الدنيا على قدر وجودك فيها، أي على قدر عمرك، وهو مهما زاد وطال فهو سنوات معدودة، وقد يكون متاعك منها حتى سنِّ الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، أو أكثر من ذلك أو أقل، ومتاعك فيها بما تحققه قدراتك، فالذي عنده ألف جنيه يتمتع على قدرها، والذي عنده عدة ألوف متاعه على قدرها، وصاحب الملايين متاعه أكبر.

إذن: فكل واحد يتمتع بقدر ما عنده من مال، وحتى إن وصل الإنسان إلى أعلى متاع في الدنيا؛ متاع صاحب الملايين، فهذه الملايين إما أن تزول عن صاحبها، وإما أن يترك هو هذه الملايين بالموت، وهذه تتحقق وهذه تتحقق، إذن فنعمة الدنيا إما أن تنخلع منك أو تنخلع أنت منها.

فإذا جئت إلى المقابل وهو الآخرة تجد أن النعيم فيها دائم لا يزول عنك، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت، وأنت لا تتمتع في الآخرة بقدراتك أنت، بل بقدرة الله سبحانه، فكأن المتاع أكبر كثيرًا من قدرتك، وأعلى كثيرًا من كل ما تستطيع أن تحققه، فمثلاً: إن كان معك ريال وجاءك رجل فقير فأعطيته له ليأكل به، تكون في ظاهر الأمر قد آثرتَ الفقير على نفسك؛ لأنك أعطيته كل ما تملك ليأكل به وحرمت نفسك منه، ولكنك في الحقيقة فضَّلت نفسك على الفقير؛ لأنك أعطيته هذا الريال ليكون عند الله عشرة إلى سبعمائة ضعف، فمَن منكما الذي استفاد؟ ومَن منكما الذي انتفع؟ إنه أنت.

ولذلك نجد أن الدين الصحيح ضد الأنانية الحمقاء، ويُعلي فيك الأنانية العاقلة بأن يجعلك تحب نفسك حبًا أعلى، فأنت حين تتصدق تحب نفسك، ولذلك تريد أن تعطيها الأعلى والأنفع، فظاهر الأمر أنك أعطيت، وفي حقيقته أنك قد أخذت، وأنت حين تعطي إنسانًا مساويًا لك كأن تقدم له هدية في مناسبة معينة، تنتظر أن يرد إليك الهدية بمثلها في مناسبة أخرى، إذن: فالعطاء متساوٍ، وقد يردّ هذا الإنسان

الهدية، وقد لا يردها، وقد ينوي ردها ولكن تصادفه ظروف لا تُمكّنه من أن يردها لك، لكن الحق سبحانه يقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إذن: فحينما تعطي ابتغاء وجه الله فأنت لا تحصل على عطاء مُساو لما أعطيت، لكنك تحصل على عطاء مضاعف أضعافًا مضاعفة، والذي يعطيك الثواب هو الله سبحانه وتعالى دائم الوجود، ولن ينفد عطاؤه لك؛ لأنه دائم القدرة، ولن يأتي عليه وقت يكون غير قادر على أن يرد لك ما أعطيت؛ لأن عنده كنوز السماوات والأرض؛ وهو سبحانه قادر على أن يضاعف لك مهما كانت قيمة عطائك، فإن فضَّلتَ الحياة الدنيا على الآخرة، فأنت تقيس بمقاييس الكمال عندك وهي مقاييس ساقطة وهابطة، ولو كنت تملك المقياس الصحيح لعرفت أن الذي يحقق لك النفع الأكبر هو أن تعطي وتعمل طلبًا للآخرة وليس للدنيا.

ولذلك فالحق سبحانه يقول هنا: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: أنكم أردتم الحياة الدنيا بدل الآخرة. وهذه مقارنة غير عاقلة وغير حكيمة.

وكلمة ﴿مِنَ﴾ تدل على البدل في قوله: ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ومادة البدل والاستبدال البيع والشراء، ونعرف أن الباء تدخل على المتروك، فأنت تقول: اشتريت الشيء بكذا درهم، أي: تركت الدراهم مقابل شرائك الشيء، كأن هؤلاء الراضين بالحياة الدنيا قد أخذوا الدنيا بدلاً من الآخرة، وهذه صفقة تخلو من العقل والحكمة.

وبعد أن استنكر الله سبحانه وتعالى على المؤمنين أن يرضوا بالحياة الدنيا ويتركوا الآخرة يقول سبحانه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، و«المتاع»: هو ما يستمتع به. والإنسان لا يستطيع أن يوقن أنه سيستمتع بالحياة، وهذا أمر مطعون فيه، فليس كل كائن حي مستمتعًا بالحياة، هناك أشقياء وهناك تعساء، وهناك من حياتهم كلها تعب، وحتى أولئك المستمتعون بالحياة في الحاضر،

من يدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم؟ ألا يمكن أن يكون استمتاعهم هذا وقتيًا؟ ألا يمكن أن يأتيهم ظرف من الظروف؛ أو قدر من الأقدار يملأ حياقم بالشقاء؟

إننا نجد العقلاء - حين يرون في نعمة الله عليهم ما يكدر حياقم - يشكرون الله، بينما نجد الإنسان السطحي التفكير والفهم يستاء وينفعل ويزيد الموقف معاناة. العاقل - إذن - يعرف أن الإنسان يعيش في دنيا أغيار، ومعنى أننا نعيش في دنيا أغيار أنه تأتي أحداث تنقلنا من حال إلى حال، أي من الغنى إلى الفقر. أو من الصحة إلى المرض إلى غير ذلك من أحوال الدنيا المتقلبة المتغيرة، ففي الدنيا لا يدوم حال، وما دامت الدنيا أغيارًا؛ فأحوال الناس تتغير فيها دائمًا.

وهب أن إنسانًا وصل إلى القمة التي لا يوجد أعلى منها. نقول له: لا داعي أن يأخذك الفرح والكبر والخيلاء، ولا تنس أنك تعيش في دنيا أغيار، وأن دوام الحال من المحال، فلو دامت لغيرك ما وصلت أنت إلى القمة؛ لأن من كان عليها سقط فصعدت أنت.

إذن: فمعنى هذا أنك وإن وصلت للقمة فلن تثبت عليها وتبقى هكذا بلا تغيير. وما دمت قد وصلت إلى أعلى ما يمكن، فالتغيير الوحيد الذي يمكن أن يحدث لك هو أن تنزل؛ لأنك وصلت إلى قمة الصعود، و لم يعد بعدها شيء تصعد إليه.

فالتغيير المتوقع لابد أن يكون إلى أسفل، ويقال: «ترقب زوالاً إذا قيل تم»، ولهذا نجد أهل الحكمة والبصيرة يقولون: إن المصائب في الأموال والأنفس من تمائم النعمة، وكأن الحق لا يريد أن يتمم النعم؛ لأنها إن تمت تزول؛ لأن المصيبة ما دامت قد حدثت فلابد أن تزول.

وسبحانه حين يقول: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، يريد أن يبين لنا أن متاع الآخرة أكبر، فأنت حين تقول: شيء في شيء فأيهما يكون أكبر؟ إنه الذي يدخل فيه الشيء الآخر.

فإذا قلنا: «فلان في البيت» فمعنى ذلك أن البيت أكبر من فلان هذا، وإلا لما احتواه داخله، وإن قلنا: «محمد في جدة أو في المملكة السعودية أو في مصر» يكون هناك ظرف ومظروف، والمظروف عادة أوسع من الظرف، وسعته كبيرة لدرجة أنها تحيط بالظرف من كل جوانبه.

وقول الحق سبحانه ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ معناه أن متاع الدنيا يتوه في متاع الآخرة؛ لأن متاع الآخرة أوسع ويحتوي متاع الدنيا ويزيد، وما دام الكلام بقدرة الله سبحانه وتعالى، فمعنى ذلك أن سعة متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا لا نهائية. فإذا زاد الحق سبحانه وقال: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فهو لإعطاء صورة لسعة متاع الآخرة.

لكن هذا الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، إنما هو لمخاطبة العقول بالنسبة لِقِمَّة المتمتعين في الدنيا.

ومثال هذا: أنك تجد إنسانًا قد أعطاه الله قمة متاع الدنيا، وتجده يعتقد أن المتاع لا يمكن أن يزيد على ما وصل إليه، فيوضح الحق سبحانه وتعالى له: لو أنك متمتع بكل ما تستطيع أن تعطيه لك الدنيا فهو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

وإذا كان غير المتمتع بشيء من متاع الدنيا ينظر إلى من أعطاه الله سبحانه وتعالى قمة متاع الدنيا ويتساءل: هل هناك متاع أكثر من ذلك؟ إن هذا الإنسان متمتع بكذا وكذا وكأنه يعيش في الجنة، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك متاع أكثر من هذا . نقول له: لا، إن ما تحسبه نهاية لما يمكن أن يتمتع به الإنسان هو بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن: فقوله سبحانه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ليس مقصودًا به المتعة العادية للدنيا التي يتمتع بها الناس، ولكن المقصود به متاع القمة الذي لا يصل إليه ولا يحدث إلا لأفراد قليلين في العالم. فقد يعيش إنسان في قصر ضخم، وحوله المئات من الناس يخدمونه، وعنده

من الأجهزة الإلكترونية وغيرها ما يجعله بمجرد أن يريد شيئًا يضغط على زر صغير فيجد ما يريده أمامه، وكل شيء حوله يحقق له رغباته، بل إنه يعيش في درجة الحرارة التي يريدها داخل قصره، وعنده أفخر أنواع الطعام والشراب، وإذا أراد أن ينتقل من مكان إلى آخر؛ ضغط على زر فيتحرك به الكرسي إلى المكان الذي يريده، وكل من حوله يطيعونه طاعة عمياء، فكل رغباته أوامر، وحياته تشبه الحلم الجميل.

إذا عاش إنسان في هذا الجو وانبهر بهذه النعم كلها يستوقفه رب العزة سبحانه ويوضح له: لا تنبهر، فهذا المتاع الذي تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها، يوضح لهم الله: لا تنبهروا ولا يأخذكم العجب، فكل هذا الذي ترونه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل.

إذن: فقوله سبحانه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يدل على أن فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تحب القليل من النعم بل تريد الكثير، ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنَفِّر عباده من أن تفتنهم نعم الدنيا مهما بلغت، فيوضح لهم: لا تظنوا أن هذه النعم كثيرة، بل إنها نعم قليلة بالنسبة لما ينتظركم في الآخرة، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم، ففي هذه الحالة لن تفتنه نعم الدنيا، بل سوف يطلب نعم الآخرة.

ورسول الله ﷺ يقول: «**لو أن ابن آدم أُعْطي واديًا ملآنًا من ذهب أحب إليه ثانيا، ولو أعطى ثانيا أحَبَّ إليه ثالثًا**»[1].

أي أن الإنسان الذي امتلك واديين يريد أن يحتفظ بالواديين كما هما ويطمع في امتلاك الوادي الثالث، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار واد واحد.

فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير، لماذا؟ لأن كثيرًا من

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٨) وغيره.

الناس ينسون الآخرة، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، ولهذا تجد الإنسان منهم يريد أن يحتاط لنفسه، فإذا أخذ ما يكفيه يريد أن يحتاط لأولاده، فإذا كان عنده ما يكفيه هو وأولاده يريد أن يحتاط لأحفاده. ولكن المؤمن الحق هو من يعرف أن الحياة الدنيا طريق العبور إلى الآخرة، وأنها رحلة قصيرة تنتهي، فلا يهتم بهذا اللون من الاحتياط، ولكن الذي يحرص على عملية الاحتياط هذه هو من يظن أن الحياة الدنيا هي الغاية من الخلق، ولا يتنبه إلى أنها وسيلة للآخرة.

إننا نجد أولئك الذين يسرفون على أنفسهم ويتبعون شهواتهم وهم يحاولون أن يأخذوا من الدنيا كل شيء يمكن أن تعطيه لهم حلالاً أو حرامًا، وهذا واضح في سلوكهم الدنيوي.

أما المؤمن فهو كالطالب الذي يجدُّ في دروسه ويجتهد ويستيقظ مبكرًا ويذهب إلى المدرسة، ويظل ساهرًا ليذاكر ويحرم نفسه من متع كثيرة؛ لأنه بفطنته وذكائه يعرف أن هذا حرمان مؤقت؛ وهو إنما يفعل ذلك لفترة قصيرة ليستريح بقية العمر، ويحصل على المركز المرموق والدخل المرتفع إلى آخر ما يمكن أن يعطيه له المستقبل. أما المسرف على نفسه فهو كالطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة ويقضي وقته في اللعب والاستمتاع، وهو بمثل هذا السلوك كان قصير النظر، وأعطى لنفسه شهوة عاجلة ليظل في معاناة بقية حياته.

إذن: فكل من الطالبين أعطى نفسه ما تريد؛ الأول: أعطى نفسه مستقبلاً مريحًا ممتدًّا، وصار قمة من قمم المجتمع، والثاني: أعطى نفسه متعة عاجلة زائلة، ثم صار بعد سنوات قليلة صعلوكًا في المجتمع لا يساوي شيئًا.

إذن: فإياك أن تنظر تحت أقدامك فقط؛ لأن العالم لا ينتهي عند موقع وقوف قدميك هاتين، ولكنه ممتد إلى آفاق بعيدة، فإذا نظرتَ إلى هذه الآفاق، فلا يليق بك أن تختار متعة وقتية قليلة» اهـ.

۞۞۞۞۞

النصيحة السادسة:

بِرُّ الوالِدَيْن

اعلمي - **أختي المسلمة** - أن برّ الوالدين من أحبّ الأعمال إلى الله تعالى.

عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ أيّ العمل أحبُّ إلى الله؟

قال: «**الصَّلاةُ على وَقْتِها**».

قلتُ: ثم أيّ؟

قال: «**بِرُّ الوالدين**».

قلتُ: ثم أيّ؟

قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

وقد أمر الحقُّ سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في كتابه الكريم في مواطن عديدة، منها:

قوله تعالى:

﴿ **وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا** ﴾ [النساء: ٣٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

وعندما يقول لنا الحق: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي: إياكم أن تدخلوا في قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله في منهجه، والعبادة هي: طاعة

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

العابد للمعبود، فلا تأخذها على أنها العبادات التي نفعلها فقط من: الصلاة والصوم والزكاة والحج؛ لأن هذه أركان الإسلام، ومادامت هذه هي الأركان والأسس التي بني عليها الإسلام، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هي الأسس التي بني عليها الإسلام، والأسس التي بني عليها البيت ليست هي كل البيت؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد، فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفي، أو المصطلح الفني في العلوم ويقولون: إن العبادات هي: الصلاة وما يتعلق بها، والزكاة والصوم والحج؛ لأنها تسمى في كتب الفقه «العبادات» فلقد قلنا: إن هذا هو الاسم الاصطلاحي، لكن كل أمر من الله هو عبادة.

ولذلك فبعض الناس يقول: نعبد الله ولا نعمل.

نقول لهم: العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود، ولا تفهموا العبارة على أساس أنها الشعائر فقط، فالشعائر هي إعلان استدامة الولاء لله، وتعطي شحنة لنستقبل أحداث الحياة، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة، فالمعاملات عبادة، والمفهوم الحقيقي للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض، فالحق سبحانه وتعالى قال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩].

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع، وجاء بـــ ﴿ ٱلْبَيْعَ ﴾ لأنه العملية التي يأتي ربحها مباشرة؛ لأنك عندما تزرع زرعًا ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار، لكن البيع تأتي ثمرته مباشرة، تبيع فتأخذ الربح في الحال، والبيع - كما نعلم - ينظم كل حركات الحياة، لأن معنى البيع: أنه وسيط بين منتج ومستهلك، فعندما تبيع سلعة، هذه السلعة جاءت من منتج، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك، وهذا المستهلك تجده منتجًا أيضًا، والمنتج تجده أيضًا مستهلكًا، فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها

في البيع والشراء، ومادم هناك بيع ففيه شراء، فهذا استمرار لحركة الحياة.

والبائع دائمًا يحب أن يبيع، لكن المشتري قد لا يحب أن يشتري؛ لأن المشتري سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً، فيوضح الله: «اتركوا هذه العملية التي يأتي ربحها مباشرة، ولبّوا النداء لصلاة الجمعة»، لكن ماذا بعد الصلاة؟

يقول الحق: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

إذن: فهذا أمر أيضًا، فإن أطعنا الأمر الأول: ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فالأمر في ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ يستوجب الطاعة كذلك، إذن فكل هذه عبادة، وتكون حركة الحياة كلها عبادة؛ إن كانت صلاة فهي «عبادة»، والصوم «عبادة»، وبعد ذلك ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة؟ لابد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلي، وما هي مقومات حياتك؟ إنها طعام وشراب ومسكن ومَلْبس، وما لا يتم الواجب به فهو واجب، إذن فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

إذن: فكل عمل يؤدي إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله في الوجود يعتبر عبادة لله، لأنك تخرج من كنوز الله التي أودعها في الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التي جاء بها الإيمان.

وإياك أن تظن أن العبادة هي فقط العبادة التصنيفية التي في الفقه «قسم العبادات» و«قسم المعاملات»، لا؛ فكله عبادة، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة، لأنك تعمل لنفعك، أما في الصلاة فأنت تقتطع من وقتك، فسميناها العبادة الصحيحة؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله، فهو أيضًا

يخرج للحياة ويزرع ويصنع.

ولماذا سموها العبادات؟ لأن مثلها لا يأتي من غير متدين، إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة، هذا مفهوم العبادة التي يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التي خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا، في المادة المخلوقة وهي الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه.

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ بعدما قال كل هذا الكلام السابق، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائمًا في كل تصرفاتنا هي أن نأتمر بأمر الله في منهجه، وألا نشرك به شيئًا، لأن الشرك يضر قضية الإنسان في الوجود، فإن كنت في عمل إياك أن تجعل الأسباب في ذهنك أمام المسبب الأعلى، بل اقصد في كل عمل وجه الله.

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا عبد مملوك لجماعة، والجماعة مختلفة ومتشاكسة، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التي تتضارب، فإن أرضى هذا، أغضب ذاك، إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد، مقسم الالتفاتات، ولكن العبد المملوك لواحد، لا يتلقى أمرًا إلا من سيد واحد ونهيًا من السيد نفسه، والحق يشرّع القضية لعباده بصيغة الاستفهام، وهو «العليم» بكل شيء ليجعل المؤمن به يشاركه في الجواب حتى إذا ما قال الحق: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب، فماذا يقول؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً: لا يارب لا يستويان.

إذن: فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها. ولم يفرضها الله عليك، وقد طرحها الحق

سبحانه سؤالاً منه إليك؛ حتى يكون جوابك الذي لن تجد جوابًا سواه، فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت في الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهي واحد، هنا تصبح سيدًا في الكون، فلا تجد في الكون مَنْ يأخذ منك عبوديتك لمكون، وتلك هي راحتنا في تنفيذ قول الله: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ لأن الإشراك بالله – والعياذ بالله – يرهق صاحبه، ويا ليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله، ولا يأخذون عون الشركاء، لكن الله يتخلى عن العبد المشرك، لأنه سبحانه يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك، وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك، وإنما ينعدم عنه حظ الله؛ لأن الله غني أن يشرك معه أحدًا آخر، وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيماني، ويحيا في كد وتعب.

ويردف الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتي قوله جل شأنه: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ والوالدان هما الأب والأم؛ لأنهما السبب المباشر في وجودك أيها المؤمن، ومادامت عبادتك لله هي فرع وجودك، إذن فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول؛ إن ذلك يلفتك إلى مَنْ أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام.

﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾.

انظر إلى المنزلة التي أعطاه الله للوالدين، وهما الأب والأم، والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله، والتكليف لك وأنت فرع الوجود، لأن الخطاب لمكلف، والتكليف فرع الوجود، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا؟ من والدين، وهكذا حتى تصل لله، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد،

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكلَّف فرع الوجود، والوجود له سبب ظاهري هما «الوالدان» وعندما تسلسلها تصل لله، إنه - سبحانه - أمر: «اعبدني ولا تشرك بي شيئًا» وبعد ذلك: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ كلمة «الإحسان» تدل على المبالغة في العطاء الزائد، الذي نسميه «مقام الإحسان».

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛ لأنه إله واحد ولا نشرك به شيئًا، لم ينكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما؛ لأن هناك آية أخرى يقول فيها:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

صحيح لا تطعهما ولكن احترمهما؛ لأنهما السبب المباشر في الوجود وإن كان هذا السبب مخالفًا لمن أنشأه وأوجده وهو الله - جلت قدرته - .

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾.

والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه إياك أن يكون قلبك متعلقًا بهما إن كانا مشركين، لكن صاحبهما في الدنيا معروفًا؛ ولذلك قال:

﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي انظر مصلحتهما في أمور الدنيا معروفًا منك، والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب.

والحق يقول: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ويكررها في آيات متعددة، فقد سبق في سورة «البقرة» أن قال لنا:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

وبعد ذلك تأتي هذه الآية التي نحن بصددها:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وبعد ذلك يأتي أيضًا قوله سبحانه:

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه فيقول:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ويأتي أيضًا في سورة «العنكبوت» فيقول:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ ﴾ [العنكبوت: ٨].

لكن ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۖ ﴾ فإن كان الوالدان مشركين فلابد أن نعطف عليهما معروفًا، والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومَنْ لا تحب، ولكن الممنوع هو: الودادة القلبية؛ ولذلك قال:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددها وبين آية سورة «المجادلة»، وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالاً، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفي قوله سبحانه:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ ﴾ [العنكبوت: ٨].

ففيه «إحسان»، وفيه «حَسن»، و«الإحسان»: هو أن تفعل فوق ما كلفك الله

مستشعرًا أنه يراك، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، و«الإحسان» من «أحسن»، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه، وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلي الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة، ويصوم شهر رمضان، ثم يصوم يومي الاثنين والخميس أو كذا من الشهور، ويزكي حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة، ويحج ثم يزيد الحج مرتين، إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان، لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها، وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به؛ ولذلك فبعض الصالحين في أحد سُبحَاته قال: «اللهم إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة، لأنني أصبحت أشتهيها».

أي: صارت شهوة نفس، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة، فيقول يا رب، إني أصبحت أحبها، ومفروض منا أن نمنع شهوات أنفسنا، لكنها أصبحت شهوة ، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان، واطمأنت نفسه ورضيت، وأصبح هواه تبعًا لما أمر به الله ورضيه.

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

لماذا هم محسنون يارب؟

يقول الحق سبحانه: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[الذاريات: ١٧].

وهل كلفني الله ألا أهجع إلا قليلاً من الليل؟

إن الإنسان يصلي العشاء من أول الليل، وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح، ويأنس العبد بالقرب من الله، فالحق لا يرد مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨].

وربنا لم يكلفهم بذلك، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض، ونعرف قصة الأعرابي الذي قال للرسول ﷺ: هل عليّ غيرها؟ قال له: «**لا، إلا أن تَطَّوَّعَ**» وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «**لا، إلا أن تطّوّع**» قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق**»[1].

وبذلك دخل هذا الأعرابي في نطاق المفلحين، إذن فالذي يزيد على هذا يدخله الله في نطاق المحسنين.

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٧- ١٩].

ولنلحظ دقة الأداء، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين في أموال المحسنين حقًّا معلومًا، لماذا؟ لأن الحق سبحانه ترك للمحسن الحرية في أن يزيد على نسبة الزكاة التي يمنحها للسائل والمحروم، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

---

(١) رواه مسلم في «كتاب الإيمان».

إذن فالذي يزيد على ذلك ينتقل من مقام الإيمان ليدخل في مقام الإحسان. كأنه يقول لك في الآية التي نحن بصددها: إياك أن تعمل مع والديك القدر المفروض فقط، بل ادخل في برهما والإنعام عليهما والتلطف بهما والرحمة لهما وذلة الانكسار فوق ما يطلب منك، ادخل في مقام الإحسان، ثم يأتي في آية أخرى ليرشدنا بعد أن أدخلنا في مقام الإحسان، إنه يصف ذلك الإحسان بشيء آخر وهو «الحسن»:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت: ٨].

وما هو المقابل «للحسن»؟ إنه «القبح»، إذن فالحق أدخلنا في مقام الجمال مرة، وفي مقام الإحسان مرة أخرى، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم، أولاً: نجد أن المفروض في الشائع الغالب أن الوالدين يربيان أبناءهما، ومن النادر أن يصبح الولد يتيمًا ويربيه غير والديه، فقال: الحظ سبب التربية بعد الوجود، فسبب الوجود: يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل في مقام الإحسان، ولكنه جاء في آية وعلل ذلك فقال:

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

لقد جاء الحق بالتربية حيثية في الدعاء لهما وفي البر التوصية بهما، لكن لو أن إنسانًا أخذ فيك منزلة التربية و لم يأخذ فيك سببية الإيجاد، أله حق عليك أن يكون كوالديك؟

إن الحق يقول: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾.

فإذا كان والدي لهما هذا الحق، فكذلك من قام بتربيتي من غير الوالدين له هذا الحق أيضًا! ما دام جاء الحق بالوالدين في علة الإحسان:

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

فمرة نلحظ أنه لا يجيء بمسألة التربية كي نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين، وشيء آخر: وهو أن الحق

سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانًا، جاء في الحيثيات بما يتعلق بالأم و لم يأت بما يتعلق بالأب:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ [الأحقاف: ١٥].

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية، وهذا كلام رب؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وُجِد وقت أن صار جنينًا. فهي قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنينًا. وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر. بينما والده قد يكون بعيدًا لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلامًا ليربيه لكفاح الحياة، أما في فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم و لم يكن للطفل عقل حتى يدرك هذا، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم: أبوك يحققه لك، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له في بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك، فمن الذي - إذن - يحتاج إلى الحيثية؟ إنها الأم، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه؛ لذلك قال الحق:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾.

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذي يأتي بكل حاجة، وما دام أبوه هو الذي في الصورة، فتكون الحيثية عنه موجودة، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفيًا بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن، ولذلك تجد النبي ﷺ حينما يوصيّ قال: «**أمك ثم أمك ثم أمك**»، وبعد ذلك قال: «**ثم أبوك**».

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟

قال ﷺ: «**أمك**».

قال: «ثم من؟».

قال: «**أمك**».

قال: «ثم من؟».

قال: «**أمك**».

قال: «ثم من؟».

قال: «**أبوك**»(١).

ولو حسبتها تجدها واضحة، وأيضًا فالأبوة رجولة، والرجولة كفاح وسعي. والأمومة حنان وستر، فهي تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له. إنما خروج الأم للسعي للرزق فأمر صعب على النفس، فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، أو: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، إنها مقرونة في ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به، ثم أفردهما بالإحسان في آيتين، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما في قوله:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه، فلا يستحقان أن يقول: ارحمهما؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه في الدنيا وإن كانا على الكفر.

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان في الكون كله، يبتدئ بالأقرب فالقريب فالجار، فقال:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

إذن ففيه دوائر، ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه، فلن نجد واحدًا في شيخوخته مهينًا أبدًا؛ لذلك يوسع سبحانه دوائر الهمة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها:

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: صاحب القربى، وما القربى؟ إن كل من له علاقة نسبية بالإنسان يكون قريبًا. هذه هي الدائرة الثانية، ولو أن كل إنسان موسعًا عليه وقادرًا أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستتداخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد، وما دامت الدوائر ستتداخل، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجًا» ا.هـ.



بِرُّ الوَالِدَيْن في حياة الأنبياء

عيسى عليه السلام وبِرّه بوالدته:

قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام - :

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٢].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

فلِمَ ذكر والدته هنا، ولِمَ حرص على تقرير بِرِّه بها؟

قالوا: لأن البعض قد يظن أن عيسى عليه السلام حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه، وأن أمه أتت به من غير أب، ودون أن يمسسها بشر قد تترك هذه المسألة ظلالاً في نفسه وتُساوِره الشكوك في أمه، فأراد أن يقطع كل هذه الظنون.

ذلك لأنه هو نفسه الدليل، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه، والدليل لا يُشكِّك في المدلول، فكأنه يقول للقوم: إياكم أن تظنوا أني سأتجرأ على أمي، أو يخطر ببالي خاطر سوء نحوها.

ثم يقول: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم؛ لأن الرسول لابُدَّ أن يكون لَيِّنَ الجانب رفيقًا بقومه؛ لأنه أتى ليُخرج الناس مِمّا ألِفوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة.

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرِجه عن فساده، فمن الطبيعي أن يتعرّض النبي لاستفزاز القوم وعنَادهم ومكابرهم، فلو لم يكُنْ ليِّن الجانب، رقيق الكلمة، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعي ما صلح لهذه المهمة.

لذلك يخاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمدًا ﷺ بقوله:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومعنى ﴿ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢] أي: عاصيًا، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التي يشقى بسببها الإنسان.

يحيى عليه السلام وبِرّه بوالديه:

قال تعالى عن يحيى عليه السلام:

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ ﴾ [مريم: ١٤].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه في حال كِبَرهما وضعفهما، ولم يجد منهما الحنان الكافي والتربية المناسبة، ولم يشعر معهما بالأُبوة الكاملة، فكان دورهما في حياته ثانويًا، وجمايلهم عليه باهتة متواضعة، مع هذا كله كان بارًّا بهما حانيًا عليهما. وقال عنه أيضًا:

﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ ﴾ [مريم: ١٤].

وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه، إلا حين يرى من أبيه شرودًا عنه وانصرافًا عن رعايته، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته، فهي تاركة له غير مُراعية لحقه.

لذلك نرى صورًا من هذا الجبروت ومن هذا العصيان، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية، فتقطعت بينهما أواصر الأبوة، ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث، قصَّ عليه قِصّته، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أيّ تقصير، فكان بهما بارًّا رحيمًا، ولهما طائعًا متواضعًا.

۞۞۞۞۞

الصالحون.. وَبِرّ الوالدين

الحديث عن الصّالحين، وبرّهم بآبائهم يطول، ونشير - هنا - إلى بعض النماذج.

(١) بِرُّ محمد بن سيرين بأُمِّه:

كان محمد بن سيرين - رحمه الله - لا يكلم أمه إلا كما يُكلِّمُ الأمير الذي لا ينتصف منه.

وعن بعض آل سيرين، قال: ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع.

وعن ابن عون، قال: دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه، فقال: ما شأن محمد، أيشتكي شيئًا؟ قالوا: لا، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أُمِّه.

(٢) برّ زين العابدين بأمّه:

كان زين العابدين «علي بن الحسين ﷺ» كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صُحفة؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها.

(٣) بِرُّ طَلْق بن حَبِيب بأُمّه:

كان طلق بن حبيب من العُبَّاد والعلماء، وكان يُقبِّل رأس أمه، وكان لا يمشي فوق ظهر بيت وهي تحته، إجلالاً لها.

(٤) بِرُّ حَيْوة بن شُرَيْح بأُمّه:

كان حَيْوَة بن شُرَيح - وهو أحد أئمة المسلمين - يقعد في حلقته يُعلِّم الناس،

فتقول له أُمُّه: قم يا حيوة، فألق الشعير للدجاج، فيقوم، ويترك التعليم.

(٥) برُّ محمد بن المنكدر بأمِّه:

كان محمد بن المنكدر - رحمه الله - يضع خده على الأرض ثم يقول لأمِّه: قومي ضعي قدمك على خدِّي.

(٦) برّ الهُذَيْل بأمِّه:

عن حفصة بنت سيرين - رحمها الله تعالى - قالت: بلغ من بر ابني «الهذيل» بي أنه كان يكسر القصب في الصيف فيوقد لي في الشتاء - أي: لئلا يكون له دخان - قالت: وكان يحلب ناقته بالغداة فيأتيني به فيقول: اشربي يا أم الهذيل، فإن أطيب اللَّبن ما بات في الضَّرْع، ثم مات فرُزِقتُ عليه من الصبر ما شاء أن يرزقني، فكنت أجد مع ذلك حرارة في صدري لا تكاد تسكن.

قالت: فأتيت ليلة من الليالي على هذه الآية:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل: ٩٦].

فذهب عني ما كنتُ أجد.

(٧) برُّ الفضل بن يحيى بأبيه:

كان الفضل بن يحيى أبر الناس بأبيه، بلغ مِنْ بره إياه أنهما كانا في السجن، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء سُخن، فمنعهما السَّجان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فلما نام يحيى، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماء، ثم أدناه من المصباح، ولم يزل قائمًا - وهو في يده - حتى أصبح!!

۞۞۞۞۞

قِصةُ بارٌ بأبِيهِ مِنْ بني إسرائيل

عن طاوس عن أبيه، قال: كان رجل له أربعة بنين فمرض، فقال أحدهم: إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإمَّا أن أمرّضه وليس لي من ميراثه شيء، فمرّضه حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا قال: فأتى في المنام فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار.

فقال: أفيها بركة؟

قالوا: لا.

فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها، فلما أمسى أُتي في النوم فقيل له: ائت مكان كذا كذا فخذ منه عشرة دنانير.

فقال: أفيها بركة؟

قالوا: لا.

فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك، فأبى أن يأخذها، فأتى في الليلة الثالثة فيقل له: ائت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا.

قال: أفيه بركة؟

قالوا: نعم.

قال: فذهب فأخذ الدينار، ثم خرج به إلى السوق، فإذا هو برجل يحمل حوتين

فقال: بكم هما؟

قال: بدينار.

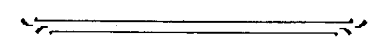
فأخذهما منه، وانطلق بهما إلى بيته، فَلّما شقهما وجد في بطن كل واحد منهما دُرَّة لم ير الناس مثلها، فبعث الملك يطلب درة يشتريها فلم توجد إلا عنده، فباعها بثلاثين وقرًا «حملاً» ذهبًا، فلما رآها الملك قال: ما تصلح هذه إلا بأخت، فاطلبوا أُختها ولو أضعفتم الثمن، فجاءوه، فقالوا: أعندك أُختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم، فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى(١).



(١) نقلنا هذه النماذج عن «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«المنتظم» لابن الجوزي، و«بر الوالدين» للطرطوشي، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم.

النصيحة السابعة:

أختاه.. حاسبي نفسك قبل الحساب



لمّا طلع الشيب في رأس الإمام الشافعي - رحمه الله - أنشد:

خَبَتْ نارُ نفسي باشتعال مَفَارقي ... وأظلم ليلي إذ أضاء شَهابُها
أيا بُومَة قد عَشْشَت فَوْق هَامَتي ... على الرّغم مِني حين طار غُرابُها
رأيت خراب العُمْر مني فزُرْتِني ... ومأواك من كلّ الدّيار خَرابُها
أأنعم عَيْشًا بعد ما حَلّ عَارضي ... طلائعُ شَيْبٍ ليس يُغْني خِضَابُها
وعزة عُمْر المرء قبل مَشيبه ... وقد فَنِيَت نَفْسٌ تولّى شَبَابُها
إذا اصْفَرّ لونُ المرء وابيضّ شَعْرُهُ ... تَنَغَّص مِنْ أيامه مُسْتطابُها
فَدَعْ عَنْك سَوْآت الأمور فإنّها ... حَرَامٌ على نَفْس التَّقِي ارْتِكَابُها
وأَدِّ زكاةَ الجَاهِ واعلم بأنّها ... كمثل زكاة المال تم نِصَابُها
وَأَحْسِنْ إلى الأحرار تَمْلِك رِقابَهم ... فَخَيرَ تجارات الكِرام اكْتِسَابُها
ولا تَمْشِيَنّ في منكب الأرض فَاخرًا ... فَعَمَّا قليلٍ يَحْتَويك تُرابُها
ومَنْ يَذُق الدُّنيا فإني طَعِمْتُها ... وسيق إلينا عَزْبُها وعَذابَها
فلم أرَها إلا غُرورًا وباطلاً ... كما لاح في ظَهْر الفَلاة سَرَابُها
وما هي إلا جِيفة مُسْتحيلة ... عليها كلابٌ هَمّهن اجْتِذابُها
فإن تَجْتَنبها كنت سلمًا لأهلها ... وإن تَجْتَذبها نازعتْك كلابُها
فطوبى لنفسٍ أوْطَنت قَعْر دَارِها ... مُغلقة الأبواب مرخي حِجَابُها

كان «عامر» - رحمه الله - من التابعين، وكان كعب الأحبار يقول عنه: «هذا

راهب هذه الأُمَّة».

وعن تعبّده يقول المُعَلَّى بن زياد: كان عامر بن عبد الله إذا صلّى العصر جلس وقد انتفخت ساقاه من طول القيام(١)، فيقول: «يا نفس، بهذا أُمرتِ، ولهذا خُلِقْتِ، يوشك أن يَذْهب العَنَاء».

وكان - رحمه الله - يقول لنفسه - أيضًا - :

«قومي يا مأوى كلّ سوءة، فوعزة ربِّك لأزحفنّ بك زحوف البعير، وإن استطعتُ ألا تمسّي الأرض من زَهَمك(٢) لأفعلن» ثم يتلوّى كما يتلوّي الحَبُّ على الْمِقْلاة، ثم يقوم فينادي: «اللّهم إن النّار قد مَنَعَتْني من النّوم فاغفِرْ لي».



(١) أي: من طول قيام الليل.

(٢) **الزّهم**: الريح المنتنة.

النصيحة الثامنة:

تَعَدّد الزّوْجَات.. بين هدى الإسلام، وهوى الأنفس

بعيدًا عن تحكّم الأهواء، وهجوم الأعداء، ننظر بإنصاف إلى حكمة الإسلام في إباحته لتعدّد الزوجات، والضوابط التي وضعها لذلك.

قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾ [النساء: ٣].

وحول معنى هذه الآية الكريمة يحدثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

الحق هنا في سورة «النساء» يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل، أي فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها، وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء.

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح واردًا، فهو لم يقل: اترك واحدة وخذ واحدة، لكنه أوضح: اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات، إذن فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة التعدد هنا، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولي عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعفية؛ لأن النساء غيرها كثيرات.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، وقوله الحق: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي: غير المحرّمات في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢].

وفي قوله سبحانه:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤].

إذن: فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتي يحللن للرجل ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا؟

إنه سبحانه يريد أن يُزَهِّدَ الناس في نكاح اليتيمات مخافة أن تأتي إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالمًا لها، فأوضح سبحانه: اترك اليتيمة، والنساء غيرها كثير، فأمامك مثنى وثلاث ورباع، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعًا في مالها أو ناظرًا إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها وليّ يقوم على شأنها غيرك.

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ

مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ ما معنى ﴿مَثۡنَىٰ﴾ ؟ أي: اثنين مكررة، كأن يقال: جاء القوم مثنى، أي: ساروا في طابور وصفٍ مكون من اثنين اثنين، هذا يدل على الوحدة الجائية، ويقال: «جاء القوم ثلاث» أي: ساروا في طابور مكون من ثلاثة؛ ثلاثة، ويقال: «جاء القوم رباع» أي: جاء القوم في طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى.

ولو قال واحد: إن المقصود بـــ ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ أن يكون المسموح به تسعة من النساء، نقول له: لو حسبنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملاً لغير ما قصد الله، فالمثنى تعني أربعة، والثلاث تعني ستة، والرباع تعني ثمانية، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر، ولكنك لم تفهم، لأن الله لا يخاطب واحدًا، لكن الله يخاطب جماعة، فيقول: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾.

فإن قال مدرس لتلاميذه: «افتحوا كتبكم» أيعني هذا الأمر أن يأتي واحد ليفتح كل الكتب؟! لا؛ إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القيمة آحادًا.

وعندما يقول المدرس: «أخرجوا أقلامكم»، أي: على كل تلميذ أن يخرج قلمه، وعندما يقال: «اركبوا سياراتكم» أي: أن يركب كل واحد سيارته، إذن: فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، وقوله الحق:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾.

هو قول يخاطب جماعة، فواحد ينكح اثنتين، وآخر ينكح ثلاث نساء، وثالث ينكح أربع نساء.

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعه مرة إيجابًا ومرة يشرعه إباحةً،

فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل، ولكنه أباح للرجل ذلك، وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة، والزواج نفسه حتى من واحدة مباح، إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل، وحين يبيح الله لك أن تفعل، ما المرجح في فعلك؟ إنّه مجرد رغبتك.

ولكن إذا أخذت الحكم، فخذ الحكم من كل جوانبه، فلا تأخذ الحكم بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة، وإلا سينشأ الفساد في الأرض، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس في حُكم الله لماذا؟ لأنك إن أخذت التعدد، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقًا من الحكم، و لم تأخذ الشق الآخر، وهو العدل، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا؟ لأن الناس شقوا كثيرًا بالتعدد أخذًا لحكم الله في التعدد وتركًا لحكم الله في العدالة.

والمنهج الإلهي يجب أن يؤخذ كله، فلماذا تكره الزوجة التعدد؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيره وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى.

إن الذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضا في العدالة، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله، وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد، وسيقال: انظر، إن فلانًا تزوج بأخرى وأهمل الأولى، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة.

فكيف تأخذ إباحة الله في شيء ولا تأخذ إلزامه في شيء آخر، إن من يفعل ذلك يشكك الناس في حكم الله، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله والسطحيون في الفهم يقولون: إنهم معذورون، وهذا منطق لا يتأتّى.

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئي دون مراعاة الظروف كلها، والذي يأخذ حكمًا عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله.

هات إنسانًا عدل في العِشْرة وفي النفقة وفي البيتوتة وفي المكان وفي الزمان و لم يرجح واحدة على الأخرى، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئًا فهي لن تجد حيثية لها أمام الناس، أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض، والصراخ الذي نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضًا قد أخذ حكم الله في إباحة التعدد، و لم يأخذ حكم الله في عدالة التعدد، والعدالة تكون في الأمور التي للرجل فيها خيار، أما الأمور التي لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها.

ومن السطحيين من يقول: إن الله قال: «اعدلوا» ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل، نقول لهم: بالله أهذا تشريع؟ أيعطي الله باليمين ويسحب بالشمال؟! ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾.

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة في العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم و لم يلغه، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له في حركة حياته عضين بمعنى: أنه يأخذ حكمًا في صالحه ويترك حكمًا إن كان عليه، فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس؛ لأن أي انحراف في فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر، فكل حق لك هو واجب عند غيرك، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدِّ واجبك.

والذين يأخذون حكم الله في إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضًا في العدل، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججًا قوية في إبطال ما شرّع الله، وتغيير ما شرّع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر.

والعدل المراد في التعدد هو: القسمة بالسوية في المكان، أي أن لكل واحدة من المتعددات مكانًا يساوي مكانِ الأخرى، وفي الزمان، وفي متاع المكان، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه، فليس له أن يجعل شيئًا له قيمة عند واحدة، وشيئًا لا قيمة له

عند واحدة أخرى، يأتي مثلا ببيجامة «منامة» صوف ويضعها عند واحدة، ويأتي بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عند واحدة، لا، لابد من المساواة، لا في متاعها فقط، بل متاعك أنت الذي تتمتع به عندها، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوي بينهن في النعال التي يلبسها في بيته، فيأتي بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد، وذلك حتى لا تَدِلَّ واحدة منهن على الأخرى قائلة: إن زوجي يكون عندي أحسن هندامًا منه عندك، والعدالة المطلوبة - أيضا - هي العدالة فيما يدخل في اختيارك؛ لأن العدالة التي لا تدخل في اختيارك لا يكلف الله بها، فأنت عدلت في المكان، وفي الزمان، وفي المتاع لكل واحدة، وفي المتاع لك عند كل واحدة، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك؛ لأن ذلك ليس في مكنتك.

والرسول ﷺ يعطينا هذا فيقول: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم ويعدل ويقول: «**اللَّهُمَّ هذا قسمي فيما أَمْلِك فلا تَلُمْني فيما تَملك ولا أملك**»[1]. يعني القلب.

إذن: فهذا معنى قول الحق:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

لأن هناك أشياء لا تدخل في قدرتك، ولا تدخل في اختيارك، كأن ترتاح نفسيًّا عند واحدة ولا ترتاح نفسيًّا عند أخرى، أو ترتاح جنسيًّا عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلَّ واحدة على واحدة، وإذا كان هذا في النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أي امرأة بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه؟ لابد أيضًا من العدالة.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما.

والذي يفسد جو الحكم المنهجي لله أن أناسًا يجدون رجلاً عدّد، فأخذ إباحة الله في التعدد، ثم لم يعدل، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام، والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا في قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك، التباين الشديد الذي يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى في المأكل والملبس والتعليم.

إذن: فالمسلم هو الذي يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له، فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أي انحراف أو شطط؛ لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هي الشيء الذي يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور، لا؛ الثغرة هي الفجوة حتى في القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام.

إنك إذا ما تصرفت تصرفًا لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله، فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات، وإذا كان الرسول ﷺ قد توسع في العدل بين الزوجات توسعًا لم يقف به عند قدرته، وإن وقف به عند اختياره، فالرسول ﷺ حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر في بيت واحدة من نسائه، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه في أيامهن فأخذ قدرة الغير، وكان إذا سافر يقرع بينهن، هذه هي العدالة.

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع في الناس أن الله لا يشرّع إلا حقًّا، ولا يشرع إلا صدقًا، ولا يشرّع إلا خيرًا، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة، ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة؟ لا؛ فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يهمل

الرجل زوجه.

ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب ﷺ أن زوجها لا يأتي إليها وهي واحدة وليس لها ضرائر، فكان عنده أحد الصحابة، فقال له: أفتها، أي: أعطها الفتوى، قال الصحابي: لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال، ذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكات ثلاثًا، فهي تستحق الليلة الرابعة، وسُر عمر ﷺ من الصحابي، لأنه عرف كيف يفتي حتى في أمر المرأة الواحدة.

إذن قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ [النساء: ١٢٩].

أي: لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفيًّا هو العدالة حتى في ميل القلب وحبه، لا.. إنما العدالة في الأمر الاختياري، ومادام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾.

ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا: إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل!

ولهؤلاء نقول: إن الحق حين قال: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي: لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل، لأن ذلك ليس في إمكانكم، ولذلك قال: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾؛ نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله، ونقول كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله: وهذه المسألة من المسائل التي تتعرض للأسرة، وربها الرجل؛ فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته، فماذا يكون الموقف؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها، أم تظل عنده ويأتي بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها؟ أو يطلق غرائزه في أعراض الناس؟

إن الحق حينما شرّع، إنما شرّع دينًا متكاملاً، لا تأخذ حكمًا منه لتترك حكمًا آخر.

والأحداث التي أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألجأهم إلى كثير من قضايا الإسلام، وأنا لا أحب أن أطيل، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا، حتى ينهوا مسألة الخليلات، والخليلات هن اللائي يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب.

إن من الخير أن تكون المرأة الثانية، امرأة واضحة في المجتمع، ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها، ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيرًا من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير في هذا الموضوع للدكتور/ محمد خفاجة، حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها في إباحة التعدد عند هذه الآية.

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهي: أن التعدد لم يأمر به الله، وإنما أباحه، فالذي ترهقه هذه الحكاية لا يعدد، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد، والمباح أمر يكون المؤمن حرًّا فيه يستخدم رخصة الإباحة، أو لا يستعملها، ثم لنبحث بحثًا آخر، إذا كان هناك تعدد في طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين في العدد، فإن التعدد في واحد لا يتأتّى، والمثل هو كالآتي:

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسي فكل واحد يجلس على كرسي، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليمد عليه ساقه، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسيًا، فواحد من الناس يأخذ كرسيًا للجلوس وكرسيًا آخر ليستند عليه، إذن فتعدد طرف في طرف لا ينشأ إلا من فائض، فإذا لم يكن هناك فائض، فالتعدد - واقعًا - يمتنع، لأن كل رجل

سيتزوج امرأة واحدة وتنتهي المسألة، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد.

إذن: فإباحة التعدد تعطينا: أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضًا، والفائض كما قلنا معلوم، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث، وضربنا المثل من قبل في النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه؛ فإننا نجد عددًا قليلاً من الديوك والبقية إناث، إذن فالإناث في النبات وفي الحيوان وفي كل شيء أكثر من الذكور، وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التي تفيض وتزيد من الإناث؟ إما أن تعفّ الزائدة فتكبت غرائزها وتحبط، وتنفس في كثير من تصرفاها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل، وإما أن تنطلق، تنطلق مع من؟ إنها تنطلق مع متزوج، وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد.

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء؛ لكن بشرط العدالة؛ وحين يقول الحق:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ﴾.

أي: إن لم نستطع العدل الاختياري فليلزم الإنسان واحدة.

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾.

وهناك مَن يقف عند: ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ ويتجادل، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول: لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين؛ لأن المسلمين الآن في خنوع، وقد اجترأ عليهم الكفار، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم، وما هبّ المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية، ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار، بحيث يكون فيه أسرى، و«ملك اليمين».

ولكنا ندافع عنه أيام كان هناك «ملك يمين»، ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه، انظر إلى المعنى: فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن

يصفي الرِّق، ولم يأت ليجيء بالرق، وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد، عدَّدَ الإسلام مصارف تصفية الرق؛ فارتكاب ذنب ما، يقال للمذنب: اعتق رقبة، كفارة اليمين، وكفارة ظهار، فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر في صيام، وكفارة قتل... إلخ، إذن فالإسلام يوسع مصارف العِتق.

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى على الرق، أم يريد أن يصفيه ويمحوه؟ ولنفترض أن مؤمنًا لم يذنب، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة، وعنده جوار، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجواري:

إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك، لا تكلفها ما لا تطيق، فإن كلفتها فأعنها، أي فضل هذا، يدها بيد سيدها وسيدها، فما الذي ينقصها؟ إن الذي ينقصها إرواء إلحاح الغريزة، وخاصة أنها تكون في بيت للرجل فيه امرأة، وتراها حين تتزين لزوجها، وتراها حين تخرج في الصباح لتستحم، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف؟ ألا تهاج فيها الغرائز؟!

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تستمتع به، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها، امرأة الرجل فتتمتع مثلها، ويريد الحق أيضًا أن يعمق تصفية الرق، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أَمَة، والذي تلده يكون رقيقًا، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتي منه بولد، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها، وفي ذلك زيادة في تصفية الرق، وفي ذلك إكرام لغريزتها، لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا!!

يقول الحق:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾.

فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أوما ملكت اليمين، ذلك أقرب ألا تجوروا، وبعض الناس يقول: ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: ألا تكثر ذريتهم وعيالهم، ونقول لهم: إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين، وبذلك يكون السبب في وجود العيال قد اتسع أكثر، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: أقرب ألا تظلموا وتجوروا، لأن العول فيه معنى الميل، والعول في الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل، وهذا معنى عالت المسألة، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب في التوزيع ينقص» ا.هـ.

وفي موطن آخر، **قال الإمام** - رحمه الله تعالى - :

وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التي لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية، لا عند الرجل ولا عند المرأة، ولو كانت هذه الأسر تمتلك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة، إنها مشكلة التعدد.

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظًا، لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع، والمغبون هي المرأة، لأنها مقيدة بزوج واحد، فليست كل امرأة مهضومة، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة..

وقد نجد امرأة قال له زوجها: سأتزوج بثانية، ورضيت هي بذلك، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور.

روي أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على ولدي وتقسم لي..

فقال: إن كان هذا يصلح فهو أحب إليّ فأقرها..

إذن.. فالغمة في زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سرورًا عند الزوجة الثانية.

والمرأة معذورة في ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله في أن يعدد و لم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل.

والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذي في صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى- وهو الله- الأمر بأن يعدل بين زوجاته.

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة، ويهمل القديمة وأولاده منها، لذلك فالنساء معذورات في أن يغضبن من هذه المسألة ..

ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله في التعدد لحدث التوازن. وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا في نفسها ولا في بيتها ولا في رعاية أولادها، فهي تقول: «من الأفضل أن يكون متزوجًا أمام عيني بدلاً من أن يدس نفسه في أعراض الناس» .

إذن.. فالذي يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به..

والذين يأخذون إباحة الله في التعدد لابد أن يأخذوه بأصوله التي وضعها الله في إطار العدالة..

وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل، فكل امرأة لها حق في البيتوتة، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلاً، وكان ﷺ لا يتوضأ عند واحدة في ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله.

والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان في الطاعون، أمر بدفن الاثنتين في قبر واحد.

والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق وأمر بالعدالة في المستطاع، وعلى

الرجل أن يعدل زَمَنًا، ويعدل نفقة، ويعدل ابتسامة، ويعدل مؤانسة ومواساة، والرجل في كل ذلك يستطيع، لكنه لا يستطيع أن يعدل في ميل القلب، وهو أمر مكتوم؛ لذلك قال الحق:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾ [النساء: ١٢٩].

أي أن العدل الحبي مستحيل، وقال النبي ﷺ : «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**» - يعني القلب -[1].

إذن: فثمة فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية، والنزوع النفسي، والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد، ولا يوجد تقنين يقول للرجل: «أحب فلانة»، إلا إذا أراد الحب العقلي، أما الحب العاطفي فلا، والذي يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبدًا.

وقد يُحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا الدواء من الخارج؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله.

إذن ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ ما هو ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾؟

ويوضحه - سبحانه - بقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وهي المرأة التي لا هي أَيِّم - أي لا زوج لها - فتطلب الزواج، ولا هي متزوجة فتستمتع بوجود زوج، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها، فيوضح الحق: أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا، أو هناك؛ لأن هذه المسألة ليست ملكًا لك، ولكني أريد العدالة في

---

(١) أخرجه أحمد وغيره.

الموضوعات الأخرى؛ كأن تسوّي في البيتوتة والنفقة، ومطلوبات أولادك، وأن تعدل بين أزواجك في المؤانسة، أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به.

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل، وجعل له غرائز، وخيارات في الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه، ولكنه - جل وعلا - يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة، فحين يمنح القلب أن يحب، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب، فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله في خلقه لما حمَّل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات.

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوَّدًا، ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمّل المشقة في تبعات تربيتهم، إذن فالحب له مهمة، والله لا يريد منا أن نمنع الحب، لكنه يريد منا أن نعلي مطالب الحب، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب في الكون ليعربد في أعراض الناس.

إنك حين تجعل الحب موجهًا إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ، وعندما ننظر - مثلاً - إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها في الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة في الحياة، ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف في أن يبتكر شيئًا أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر، ولما فكر الإنسان في أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل، إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلي غريزة حب الاستطلاع فينبغي أن نجعلها في مجالها المشروع فلا نجعلها تجسسًا على عورات الناس مثلاً، وكذلك جعل الله غريزة حب المال في الإنسان؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد، كذلك غريزة الجنس جعلها الله في الإنسان ولها سعار

ليحفظ بها النوع الإنساني، إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقًا يلغ في أعراض الناس، إذن: فالغرائز خلقها الله لمهمة، والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز في مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة في غير المجالات التي حددها لها المنهج.

إذن: فالميل أمر فطري في النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه: أنا خلقت الميل ليخدم في عمارة الكون، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه في هذا الميل، وحين تعددون الزوجات، لاْ أطلب منكم البعد عن كل الميل؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلي، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه في مجاله القلبي فقط، ولا يصح أنِ يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبي، أَحِبَّ أيها العبد المؤمن مَن شئتَ وأبغض مَن شئتَ، ولكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطي مَن تحب خير غيره ظلمًا، وأبغض أيها العبد مَن شئت، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم مَن تبغض.

ولنا الأسوة في سيدنا عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - حينما مرّ عليه قاتل أخيه، ولفت نظره جليس له: هذا قاتل أخيك، هنا قال عمر ﷺ: وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟

كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ﷺ وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر، قال له سيدنا عمر: إذا أقبلت عليّ إلوِ وجهك عني، لأن قلبي لا يرتاح لك، فسأل الرجل: أو عدم حبك لي يمنعني حقًا من حقوقي؟ قال عمر: لا. قال الرجل: إنما يبكي على الحب النساء، هذا عمر وهو الخليفة، والرجل من الرعية، لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ﷺ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية مادامت لا تمنع حقوقه كمواطن.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضًا القاعدة: إياك أيها المؤمن أن تعدي ميل القلب إلى القالب، وليكن ميل القلب كما تحب، كذلك إن

أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأةأخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذي ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك، ولكن المنهج يضع لك القواعد التي يسير عليها سلوك قالبك، وعليك أن تعدل في قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث، ولا تخضع ذلك لميل القلب، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار.

ونرى بعضًا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد، يركبون الموجة ضد التعدد، ونقول: قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد، ويقف منه موقف الرافض له مدعيًا أنه يفهم النص القرآني، إننا نقول له: عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد، هي ليست من التعدد في ذاته، ولكنها تأتي من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد، ولا يأخذ حكم الله في العدالة، فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة، ولذلك يقول الواحد من هؤلاء: إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل في التعدد فقال:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

ثم جاء في آية أخرى وقال:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

ونقول: إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف في هذه الآية عند قوله: ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ إنما فرع على عدم الاستطاعة في العدل فقال: ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ إنه - سبحانه - فرّع على عدم الاستطاعة في العدل فأمر بعدم الميل كل الميل، وتلك حكمة المشرّع الأول الذي يعلم مَن خلق وكيف خلق، ولو أن الحق لم يفرِّع على: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ ﴾ لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون؛ لذلك

نقول لهم: انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح: عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم، ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم و لم يسلبه.

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ وفي هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسارها في الحياة، فلا هي بغير زوج فتتزوج، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها، بل عليه أن يعطيها حظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿تُصْلِحُوا﴾ دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضي عليها، وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله، وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى، ويجد الحق غفورًا لما سبق ورحيمًا به.

وإن لم يستطع الرجل هذا، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شيء من قسمها ترضية له تكن التفرقة - هنا - أمرًا واجبًا، فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا.

إن الذي يقول: لا يصح أن نفرق بين الزوجين، نقول له: كيف تريد أن تحكم

الحياة الزوجية بالسلاسل؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجًا على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه؟! إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيرًا منها ويرزق الزوجة خيرًا منه.

وكثيرًا ما شهدنا هذا في واقع الحياة، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيدًا، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام في هذا المجال، فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب من أن: الزواج لا انفصال فيه.

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من المِلل والنِّحَل يلجأون إلى الطلاق؛ لأن الأحداث اضطرهم إلى أن يشرِّعوا الطلاق، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم، فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامي بأنها غير صالحة؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلمًا على أن ينفذ قضية إسلامية، فهو القائل:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

وسبحانه عنده الفضل الواسع، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه، ويرزق الزوجة زوجًا آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحي الخير والجمال فيها، وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجًا بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه، بامرأة أمينة عليه، ويطمئن عندما

يغترب عنها في عمله، ولا تملأ الهواجس صدره؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان، فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس، وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية، وبعض الخلق لا يفقهون في استخدام هذه الأودية لعلاج أمراضهم.

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معًا وهما كارهان؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما.



النصيحة التاسعة:

التبنِّي .. حرَام

جاء تحريم التبنّي بنصوص قاطعة، ومع ذلك فقد رأينا مَن يتبنّى لقيطًا، ويدوّن اسمه في بطاقته «العائلية»، بل ويُورّثه!! وإذا سألته: لم فعلت ذلك؟

أجابك: ابتغاء الثواب!!

و لم يدر بِخَلَد هذا الجاهل أن مثل عمله هذا كمثل رجل أراد أن يعالج زكامًا فأحدث جذامًا!!

أختي المسلمة:

لقد بيّن الحق سبحانه المحرّمات من النساء، وبيّن لنا أن من المحرمات:

﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣].

وحول معنى هذا الجزء من الآية الكريمة، يحدّثنا **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – فيقول:

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾.

أي: زوجة الابن، وكلمة ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ تدل على أنه كان يطلق لفظ «الأبناء» على أناس ليسوا من الأصلاب، و إلا لو أن كلمة «الأبناء» اقتصرت في الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه، لما قال: ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾.

إذن كان يوجد في البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبنى، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه

ويطلق عليه اسمه ويرثه، وجاء الإسلام ليقول: لا، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه، لأنه سيدخل في مسألة أخوة لابنتك مثلا، وسيدخل على محارمك، ولذلك أنهى الله هذه المسألة، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله ﷺ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب.

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطِفَ من أهله، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق، واشتراه حكيم بن حزام، وأخذته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبته لسيدنا رسول الله ﷺ وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وعندما علم أهل زيد أن ولدهم الذي خُطف قديما موجود في مكة جاءوا إليها، فرأوا زيد بن حارثة، ولما سألوه أن يعود معهم قال لهم رسول الله ﷺ: «**أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معي**»، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله ﷺ: قال: ما كنت لأختار على رسول الله أحدًا، وظل مع سيدنا رسول الله ﷺ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التي كانت شائعة فسماه «زيد بن محمد» وتبناه.

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة، التبنِّ وصل بيت رسول الله ﷺ، وأراد الله أن ينهي هذه المسألة فقال سبحانه:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحدًا حتى ولا محمدا بن عبد الله وهو رسول، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون: إن رسول الله ﷺ كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم، ونقول: أكان هؤلاء رجالاً؟! لقد ماتوا أطفالا، والكلام ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالا، أقال من رجالكم أم من رجاله؟ قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي لا يمنع أن يكون أبا أحد من رجاله، هو أبو القاسم وأبو الطيب

وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول.

وهذه المسألة أخذت ضجة عند خصوم الإسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدَّل لرسوله ﷺ، فتعديل الله لرسول يشرِّف رسوله ﷺ؛ لأن من الذي يعدِّل لمحمد؟ إنه الله الذي أرسله.

ويقول: ﴿وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هي حلية الابن من الصلب.

وقوله: ﴿مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ﴾ يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب، إذن فالتبنى كان موجودًا قبل نزول هذا الحكم، وأراد الله أن يبطل عادة التبنى، وكانت متغلغلة في الأمة العربية، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ﷺ، لا مشرعًا ينقل حكم الله فحسب، ولكن مطبقا يطبق حكم الله في ذاته وفي نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبنى كانت في ذاتها تهدف إلى أن ولدا نجيبا يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كلون من التكريم.

ولذلك علينا أن نلحظ أن رسول الله ﷺ تصرف بالكمال البشري في إطار العدل البشري، والعدل هو: القسط، وساعة تبنى زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده، لأن زيدًا اختار رسول الله ﷺ على أبيه، إذن فكان ذلك التبنى من رسول الله ﷺ كمالاً وعدلاً بشريًا بالنسبة للوفاء لواحد آثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالاً إلهيًا وعدلاً إلهيًا، فلا غضاضة عند أحد أن يصوب الكمال البشري بالكمال الإلهي، ولا أن يصوب العدل البشري والقسط البشري بالعدل الإلهي والقسط الإلهي، وأنزل الله وهو أحكم القائلين هذا الحكم بعبارة تعطي ذلك كله:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

أي إن دعاءهم لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وكلمة: ﴿أَقْسَطُ﴾ إياكم أن

تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن «عظيم» و «أعظم»، إنك ساعة تأتي بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفًا من جنسها، فـ «أعظم» المقابل لها «عظيم»، و ﴿أَقْسَطُ﴾ المقابل لها «قِسْط»، فما فعله رسول الله هو قسْطٌ وعدل، ولكن ما عدله الله أقسط مما صنعه رسول الله ﷺ.

إذن فيجب أن نفطن إلى أن الكمال البشري العدل البشري شيء، والكمال الإلهي والعدل الإلهي شيء آخر، ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى.

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله ﷺ خطأ ما، نقول لهم: أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك، فالذي صوب هو الله الذي أرسله، وقد صوب له فعلا فعله في إطار البشرية، وقال الحق: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. ومن الذي يجعل البشر متساوين مع الله في القسط والعدل والكمال؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام؛ لأن من مصلحة خصوم الإسلام، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه؛ يروجون أن هذا الدين يحتوي على أكاذيب – والعياذ بالله – فما دام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول: هذا الدين غير صحيح؛ لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملا في النجاة في ظنهم إذ لا منجى ولا أمل لهؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله.

لننظر إلى القصة التي طار بها المستشرقون فرحا: النبي ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان عبد المطلب له بنت اسمها: أميمة بنت عبد المطلب، وهي بذلك تكون أختا لعبد الله بن عبد المطلب. وأنجبت أميمة بنتا اسمها «بَرَّة» وغير

النبي ﷺ اسمها، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له ملحظ في الأسماء، اسمها «برة» والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير، لكن رسول الله ﷺ كره أن يقال فيما بعد: خرج رسول الله من عند «برة»، فسماها «زينب».

«برة» هذه هي بنت أميمة فهي ابنة عمة رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة - كما قلنا - كان طفلاً ثم خُطف وسرق، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أراد رسول الله ﷺ أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشري وعدله البشري فسماه «زيد بن محمد».

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج... زوجه رسول الله من «برة» على مضض منها، لأنه مولى، وهي بنت سيد قريش، وكان ملحظ الرسول ﷺ أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجًا واحدًا، فلا فرق بين مولى وسيد، وزوّج بنت عمته لزيد، وبعد الزواج لم ينشأ بينهما ود، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار.

بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما وئام، وبعد ذلك أراد الله أن يشرع فهل يشرع على حساب قلبين متعاطفين متحابين ليمزقهما؟ لا، المسألة - إذن - تمهيد من أولها، فلم تكن لها رغبة فيه، وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه، هيج كرامته، وخصوصًا أنه صار ابنًا بالتبنى لرسول الله، ويكون رفض امرأة له مسألة ليست هينة، تصعب عليه نفسه، فيأتي لرسول الله ﷺ شاكيا، وقال له: لم تعجبني معاشرة «برة» وأريد أن أفارقها، وكان ذلك تمهيدًا من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهي مسألة التبنى، فقد كانوا في الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة المتبنى، ولذلك يقول الحق:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وما دام يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ فالكلام إذن قد جاء معبرًا عن رغبة

زيد في أن يفارقها، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون في قوله:

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ إن محمدًا كان معجبًا بالمرأة ويريد أن يتزوجها، ويخفى هذه الحكاية.

نقول لهم: كونوا منطقيين وافهموا النص، فربنا يقول: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾، أنتم أخذتم منها أن النبي ﷺ كان يريد أن يتزوجها، والحق قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاه رسول الله ﷺ، فاعرف ما أبداه الله، هذه هي عدالة الاستقبال، وبدلاً من أن تقول هذا الكلام كي تشفي مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية.

قال سبحانه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فماذا أبدى ربنا؟ وحين يبدي ربنا أمرا يكون هو عين ما أخفاه رسوله، فلما ذهب زيد للنبي وقال له: أريد أن أفارق «برة» قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، لأن رسول الله ﷺ علم من الله أنه يريد أن يزوجه «برة» التي هي امرأة زيد الذي تبناه كي ينهى مسألة التبني، وأن المرأة المتبنى لا تحرم على الرجل، ويطبقها رسول الله ﷺ على نفسه.

لكن هناك أناس ما زالوا عندهم مرض في قلوبهم، وأناس منافقون، والرسول ﷺ أراد أن يكون هذا الأمر واردًا من الله في قرآنه، فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإيحاء الذي جعله الله بينه وبينه لقالوا: هذا كلام منه هو؛ لذلك قال محمد ﷺ لزيد: أمسك عليك زوجك، فينزل ربنا الأمر كله قرآنًا، فلم يقل محمد: ألهمني ربنا، أو ألقى في روعي، لا، جاء هذا الأمر قرآنًا، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى لهذه المسألة في سورة الأحزاب فيقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى

نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦، ٣٧].

فالله أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبنى فلا تخش الناس أن يقولوا: طلق المرأة من زيد ليتزوجها، كأن زواج «زيد» من «زينب» كان لغاية واحدة وهي أن تكون «برة» التي سماها رسول الله «زينب» منكوحة لزيد الذي تبناه رسول الله ﷺ بدليل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، أي أدى المهمة، فأردنا أن نعطي الحكم: «زوجنا» فمن الذي زوج؟ إنه الله، وليس رسول الله ﷺ هو الذي تزوج.

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله ﷺ في حاله، وصعدوها إلى ربنا، فقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ يدل على أن أصل الزواج من البداية ممهد له، فالغاية منه أن يقضي زيد منها وطرا وهو متبنى رسول الله ﷺ، ويكون هذا الزواج عن كره منها، إنها غير موافقة عليه، وتنتقل المسألة عند زيد إلى عزّة ويقول: لا أريدها، ويذهب إلى الرسول ويقول: أريد أن أطلق «برة» فيقول له الرسول: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

والذي أبداه الله هو قوله لرسوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، كأن الغاية من النكاح أن يقضي زيد منها وطرا وتنتهي الحكاية بالنسبة لزيد، ويأتي الحكم بالنسبة لرسول الله ﷺ فيقول ربنا: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾.

فالذي يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول، لكن عليه أن يصعدها إلى ربنا، ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا في زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا، هذا ما أبداه ربنا، إن الله حكم بأن الذي أخفاه النبي ﷺ سيبديه، إن الوحي هو الذي بين السبب الباعث على زواج الرسول ﷺ بزينب إنه قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

فالعلة في هذه العملية: يا ناس، يا محمد، يا زيد، يا زينب، أو يا من يحب أن يرجف، العلة في كل ذلك علة إلهية من كمال إلهي وعدل إلهي يتركز في قوله سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، والأدعياء: هم الذين يتبنوهم من غير ولادة.

وما دام ربنا يريد أمرًا فلابد أن يفعل، وأنتم آمنتم بأنه رسول، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه، فإن كنتم مكذبين أنه رسول، فما شأنكم إذن؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرفًا من تصرفاته بأنه تزوج ممن كانت امرأة ابنه المتبنى. وإن آمنتم بأنه رسول، فهذا الرسول مبلغ عن الله.

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين، أتقولون للرسول الذي أرسله ربنا كي يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانًا للتصرفات، تقولون له: سنأخذ تصرفاتك ونعيدها على الميزان الذي نضعه؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا، فإن قلت ذلك فقد عملت الميزان من عندك، ونقلت الأمر إلى غير الحق، وهذا أول خطأ؛ فالأصل في الرسول أن كل فعل له هو الكمال، ولا تأتي أنت بميزان الكمال وتأتي للرسول وتقول له: كيف فعلت هذه العملية؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول.

وبعد ذلك يأتي بالقضية العامة ليقول سبحانه:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكلمة ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾ أي لم يكن أبًا لأحد، ماذا تفهم منها؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ﴾ لأنه أبو الجميع، بدليل أن أزواجه أمهاتكم، ومحرمات عليكم، فهو إذن والدكم كلكم؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وبمنطق الواقع هو أب لكم كلكم؛ لذلك هو لا يأخذ واحدًا فقط ويقول: هذا ابني، لا، هو أب لكم كلكم، وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم، قد يقول واحد: لقد كان عنده أبناء.

نقول له: إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله،﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ﴾ والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة، وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد، فرسول الله ﷺ قد شرفه، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تُدْعَى ابن محمد، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول، فالعظمة في محمد ﷺ أنه جاء رسولاً.

ولذلك قلنا: إن هذه جعلت بنوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء، ونجد أن النبي جاء «بسلمان» وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربي وقال: «**سلمانُ منَّا آل البيْت**»[1].

وقول الحق: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

بمفهوم العبارة ونضحها الذوقي والأدائي والأسلوبي أنه أبوكم كلكم، فلا ينفرد

---

(١) **ضعيف**: رواه الطبراني في «الكبير» وغيره.

به أحد دون الآخر، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾، وبعدما كان زيدٌ بن محمد، أصبح زيدًا بن حارثة، ومحمد هو رسول الله، وما دمت أنت مؤمنا به – يا زيد – فرسول الله هذه تعوض إلغاء الأبوة بالتبني بالنسبة لك، ثم إنك داخل في الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين؛ لأنك آمنت به كرسول، إذن فعندما نحقق في هذه العبارة نجد أنه يُسلِّي زيدا أيضًا، وخير من هذا – أنك يا زيد – إن فقدت بين الناس اسم زيد بن محمد، وكنت تجعل ذلك شرفا لك، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله ﷺ الذي يُذكر في القرآن باسمه الشخصي، وتصبح كلمة «زيد» قرآنا يُذكر ويتلى ، ويتعبد بتلاوته، ومحفوظا على الألسنة؛ ومرفوع الذكر، إذن فقد عوضك الله يا زيد، فقد قال الحق: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾، وهب أنه بقي زيد بن محمد، فما الذي يحدث؟

سنقرأها في السيرة، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها في كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته، الذي ضمن الله حفظه، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة، إذن فذكره كزيد بن محمد في حياته أولى أو ذكر زيد في القرآن؟ إن ذكر اسمه في القرآن أولى، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾» ا.هـ.

إذن فقول الحق سبحانه:

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾.

يدل على أن حلائل الأبناء المتبنين حل لكم، بعد أن كانوا – في الجاهلية – يحرمون ذلك.

ويقول الحق من بعد ذلك:

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾.

وتحريم الجمع في الزواج بين الأختين لأن بينهما رحمًا يجب أن تظل معه المودة

والرحمة والصفاء، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة، ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ وهذا الجزء من الآية: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ مع استثناء الحق في قوله:

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤].

قد حصل في فهمهما والمراد منهما خلاف... ونقول أولاً المرأة في ملك اليمين ليس لها حق قِبَلَ سيدها في أن يطأها أو يستمتع بها، فملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجعل إماءه أمهات أولاد.

إن الإمام عليًّا - رضي الله عنه وكرم الله وجهه - وسيدنا عثمان ﷺ أخذ كل واحد منهما موقفًا، فسيدنا عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين؟ فقال: «لا آمرك ولا أنهاك أحلتهما آية وحرمتهما آية» فتوقف ﷺ ولم يُفْتِ.

أما سيدنا علي فقد حرم الجمع في وطء الأختين بملك اليمين، أما التملك من غير وطء فهو حلال، وهذا هو الذي عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأي من شذ عن ذلك من أهل الظاهر.

ويتابع الحق: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

أي أن هذا الأمر مادام قد سلف قبل أن يشرع الله، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يؤاخذنا بالقانون الرجعي، فلا تحريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم، وما دام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحدٌ أختين تحته في نكاح أو في وطء بملك يمين، ولا يجمع أيضا بينهما في زواج من إحداهما ووطء بملك يمين لأخرى». ا.هـ.

۞۞۞۞۞

النصيحة العاشرة:

التنزه عَنِ الزّواج مِنَ الأقارِب

من الأفضل الابتعاد عن الزّواج من الأقارب لفوائد عدّة:

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لقول الحق سبحانه:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء: ٢٣].

من الذي يحلل ويحرم؟ إنه الله، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حَرَّموا زواج المحارم؛ فحتى الذي لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها، أي أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت.. إلخ، من أين جاءهم هذه؟

الحق يوضح: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

ومنهج السماء أنزله الله من قديم، بدليل قوله تعالى:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣].

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته، أنزل لهما المنهج، هذا المنهج مستوفي الأركان، إذن فبقاء الأشياء التي جاء الإسلام فوجدها على الحكم الذي يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة، وإن أخذ محل العادة ومحل الفطرة، أي أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه في ديانات سابقة.

والعلوم الحديثة أعانتنا في فهم كثير من أحكام الله، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان أيضًا، كلما ابتعد النوعان « الذكورة

والأنوثة» فالنسل يجيء قويًا في الصفات. أما إذا كان الزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أي شيء: في النبات، في الحيوان، في الإنسان قريبين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفًا، ولذلك يقولون في الزراعة والحيوان: «نهجن» أي نأتي للأنوثة بذكورة من بعيد، والنبي ﷺ يقول لنا: «**اغتربوا لا تضْوُوا**» وقال: «**لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا**»[1].

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألاّ نأخذ الأقارب، بل علينا الابتعاد، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يجيء هزيلاً، وبالاستقراء وجد أن العائلات التي جعلت من سنتها في الحياة ألاّ تنكح إلاّ منها، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقلي؛ أو ضعف جنسي؛ أو ضعف مناعي، فقول رسول الله ﷺ : «**اغتربوا لا تضووا**» أي: إن أردتم الزواج فلا تأخذوا من الأقارب، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا، فإن «**ضَوِى**» بمعنى هزل، فإن أردتم ألا تضووا، أي: ألا تهزلوا فابتعدوا، وقبلما يقول النبي ﷺ هذا الكلام وجد بالاستقراء في البيئة الجاهلية هذا، ولذلك يقول الشاعر الجاهلي:

أنصح من كان بعيد الهم

تزويج أبناءٍ بنات العم

فليس ينجو من ضَوًى وسُقْمْ

فقد يضوى سليل الأقارب، وعندنا في الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحدًا يقولون: «فتوة» أي: فتى لم تلده بنت عم قريبة، وفي النبات يقولون: إن كنت تزرع ذرة في محافظة الغربية لابد أن تأتي بالتقاوي من محافظة الشرقية مثلاً، وكذلك في البطيخ الشيليان، يأتون ببذوره من أمريكا؛ فيزرعونها فيخرج البطيخ جميلاً لذيذًا، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك البذور لغلو ثمنها، فيأخذ من بذور ما زرع ويجعل منه التقاوي، ويخرج المحصول ضعيفًا، لكن لو ظل يأتي به من الخارج وإن

(١) ضعيفًا

وصل ثمن الكيلو مبلغًا كبيرًا فهو يأخذ محصولاً طيبًا.

وكذلك في الحيوانات وكذلك فينا؛ ولذلك كان العربي يقول: «ما دكّ رءوس الأبطال كابن الأعجمية» لأنه جاء من جنس آخر، أي أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة من جنس آخر، فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطي الخصائص الأكمل.

إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضًا عملية عضوية: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾.

لماذا؟ لأن هذه الصلة صلة أصل، والصلة الأخرى صلة فرع، الأمهات صلة الأصل، والبنات صلة الفرع، ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ وهي صلة الأخ بأخته إنها بنوة من والد واحد:

﴿وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾.

إذن فالمسألة مشتبكة في القرابة القريبة. والله يريد قوة النسل، قوة الإنجاب، ويريد أمرا آخر هو: أن العلاقة الزوجية دائما عرضة للأغيار النفسية، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتي أغيار نفسية ويحدث بينهما خلاف مثلما قلنا في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ [النساء: ٢٠].

ويكره منها كذا وكذا، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شيء من هذا؟! والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت، أو الأخت، أو العمة، أو الخالة، فيأمر الحق الرجل: ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق.

ومن حسن العقل وبعد النظر ألا ندخل المقابلات في الزواج، أو ما يسمى «بزواج البدل» حيث يتبادل رجلان الزواج، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلا، فإذا حدث

الخلاف في شيء حدث ضرورة في مقابله وإن كان الوفاق سائدًا. فحسن الفطنة يقول لك: إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته، فقد تتفق زوجة مع زوجها، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذي هو شقيق للأخرى. وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند ابنها لكن ابنتها تعاني ولا تجد الراحة في بيت زوجها. ماذا يكون الموقف؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولانفاق.

والحكمة الإلهية ليست في مسألة واحدة، بل الحكمة الإلهية شاملة، تأخذ كل هذه المسائل، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾، والمحرم هنا بطبيعة الحال هن الأمهات وإن عَلَوْن، فالتحريم يشمل الجدّة سواء كانت جدة من جهة الأب، أو جدة من جهة الأم، وما ينشأ منها، وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وبنات الابن وكل ما ينشأ منها، وكذلك بنات البنت[1].



(١) يراجع تفسير الإمام - رحمه الله - للآية كاملة، وكذلك يراجع تفسيرها في «تفسير ابن كثير»، و«تفسير القرطبي».

النصيحة الحادية عشرة:

ضوابط إرضاع ابن الغير

بعض النّساء تأخذهن العاطفة فيرضعن كُلّ طفل تطاله أيديهن!!

وهذا الإرضاع له عدّة أضرار، ويترتب عليه عدّة أخطار.

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لقوله تعالى:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء: ٢٣].

ولماذا يحرم الحق ﴿ أُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ ﴾؟ لأنها بالإرضاع أسهمت في تكوين خلايا فيمن أرضعته؟ ففيه بَضْعَة منها، ولهذه البَضْعَة حرمة الأمومة، ولذلك قال العلماء: «يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تنشيء خلايا، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلا»، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أي امرأة رضع منها الرجل، وأفتى المحققون وقالوا: لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات، أو يرضع من المرأة يومًا وليلة ويكتفي بها، وأن يكون ذلك في مدة الرضاع. وهي بنص القرآن سنتان:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - وسيدنا عثمان ﷺ حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور والحمل الشائع يمكث تسعة أشهر، وأحيانًا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع، ولذلك أراد عثمان ﷺ أن يقيم الحد عليها؛ لأنها مادامت ولدت لستة أشهر تكون خاطئة، لكن سيدنا علي - رضوان الله عليه وكرم الله وجهه - أدرك المسألة، قال: يا أمير المؤمنين، لماذا تقيم عليها الحد؟

فقال عثمان بن عفان: لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون، وأجرى الله فتوحاته على سيدنا علي، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا، وهذا هو الفتح، فقد يوجد النص في القرآن لكن النفس لا تنتبه له، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد، بل من اجتماع نصين أو أكثر، ومَن الذي يأتي في خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتي بالنص الذي يسعفه ويساعده على الفتيا، إنه الإمام علي، وقال لسيدنا عثمان: الله يقول غير ذلك، قال له: وماذا قال الله في هذا؟

قال: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إذن: فإتمام الرضاعة يكون في حولين كاملين أي: في أربعة وعشرين شهرًا، والتاريخ محسوب بالتوقيت العربي، والحق سبحانه قال أيضًا:

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ثلاثين شهرًا، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرًا، إذن فمدة الحمل تساوي ستة أشهر.

هكذا استنبط سيدنا علي - رضوان الله عنه وكرم الله وجهه - والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات، والله لم يختص زمنًا معينًا بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان، فقد يقول قائل: لا يوجد في

المسلمين مَن يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة، ومَن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق في سورة الواقعة:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

أي أن الآخرين أيضًا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب النصوص لاستنباط الحكم؛ إذن فالرضاع: مصة أو مصتان؛ هذا مذهب، وعشر رضعات مذهب آخر، وخمس رضعات مشبعات مذهب ثالث، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشبعات تحرمن الزواج، لكن بشرط أن تكون في مدة الرضاع، فلو رضع في غير مدة الرضاعة، نقول: إنه استغنى بالأكل وأصبح الأكل هو الذي يعطيه مقومات البنية.

إذن فمسألة الرضاع متشعبة، لأن النبي ﷺ قال: «**يَحْرُم من الرّضاع ما يَحْرُم من النَّسَب**»(١).

والمحرم من الرضاع هو: الأم من الرضاع، والبنت من الرضاع، والأخت من الرضاع، والعمة من الرضاع، والخالة من الرضاع، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تحوم حول كثير من البيوت لابد أن ندرك لها أسبابا، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله.

فالإرسال الإلهي مستمر، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحسن الاستقبال، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة، والإرسال مستمرًا فلن يستفيد أحد من الإرسال، وهب أن محطة الإذاعة تذيع، لكن المذياع خرب، فكيف يصل الإرسال للناس؟

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائمًا... ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة، وأول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل في كل شيء ... يعني: لقاء الزوج والزوجة على حل، وكثير من الناس يدخلون في الحرمة وإن لم يكن بقصد، وهذا ناشئ من الهوس والاختلاط والفوضى في شأن الرضاعة، الناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم في بالهم. وبعد ذلك نقول لهم: يا قوم أنتم احتطتم لأولادكم فيما يؤدى إلى سلامة بنيتهم، فكان لكل ولد ملف فيه: شهادة الميلاد، وفيه ميعاد تلقي التطعيمات ضد الدفتريا، وشلل الأطفال وغير ذلك.

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة في هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم، ويكتب في تلك الورقة من الذي أرضع الطفل غير أمه، وساعة يأتي للزواج نقول: يا موثق هذا ملفه إنه رضع من فلانة، في هذا الملف تدرج أسماء النساء اللاتي رضع منهن... فنبني بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة، بدلا من أن نفاجئ رجلا تزوج امرأة، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعي وإشكال مدني وإشكال اجتماعي ناشئ من أن الناس لم تُعد لمنهجها الإيماني ما أعدته لمنهجها المادي.

إذن فلابد من التزام كل أسرة أن تأتي في ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود.

وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن تأتي بمرضعة للأولاد، فاللبن الجاف من الحيوانات يكفي ويؤدي المهمة، وصرنا لا ندخل في المتاهة التي قد تؤدي بنا في المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاعة أو أمه من الرضاعة، أو أي شيء من ذلك، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ﴾.

ويقول الرسول ﷺ: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**»(١).



(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم، وغيرهم.

النصيحة الثانية عشرة

إياكِ والْحَسَد

اعلمي -أيتها المسلمة - أن الإيمان والحسد لا يجتمعان في جوف عبد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يجتمعُ في جَوْف عبدٍ مؤمن غُبار في سبيل الله وَفَيْحُ جهَنَّم، ولا يجتمعُ في جوفِ عَبْدٍ الإيمانُ والحَسَدُ**»[1].

والحاسد: عدوّ لنعمة الله تعالى:

قال الحق سبحانه:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤].

وحول معنى هذه الآية الكريمة يحدّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله - فيقول:

و«الحسد» هنا لرسول الله ﷺ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة، ولذلك قال بعض منهم:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف: ٣١].

إذن فالقرآن مقبول في نظرهم، لكن الذي يحزهم أنه نزل على محمد، وهذا من تغفيلهم، وهو مثل تغفيل مَن قالوا:

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان في «صحيحه»، ومن طريق البيهقي، وصحّحه الألباني.

ٱلسَّـمَآءِ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

لقد تمنوا الموت والقتل رميًا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق، وهذا قمة التغفيل الدال على أنها عصبية مجنونة، ولذلك يقول الحق:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته مَن يشاء، فلماذا الحسد إذن؟! إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد ﷺ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد ﷺ استقبالاً عادلاً بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل، مَن يتبعه تتجمل به حياته، وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علمًا من الكتاب أن يبشروا برسول الله ﷺ كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم في كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وَفَضَّلوا عليه الكافرين الوثنيين، فقالوا إنهم أهدى من محمد سبيلاً.

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله؛ لأننا نعرف أن في كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته على الخلق تفضل بقية الخلق عليه بمواهبهم، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطي الجميع.

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيبًا فبخلوا وضنّوا، وليتهم ضنّوا على أمر يتعلق بهم، بل على الأمر الذي وصلهم بالإله، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه، وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم: أنتم أوتيتم نصيبًا من الكتاب فلم تؤدوا حقه، وأيضًا أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه، ولن تعطوا أحدًا مقدار نقير وهو النقرة على ظهر النواة، ولذلك قال:

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [النساء: ٥٣].

إذن فلا هم في المعنويات والقيم معطون، ولا هم في الماديات معطون، فإذا كانوا

قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة، وبذلك صاروا قومًا لا خير فيهم أبدًا.

ثم يوضح الحق: إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيبًا من الكتاب يعرِّفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذي منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه؟ لاشك أنه الحسد، على الرغم من أنه ﷺ جاء مصدقًا لما معهم، إنهم لاشك حسدوا الرسول ﷺ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد، قلب متمرد على قسمة الله في خلقه؛ لأن الحسد كما قالوا: هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك، ويقابله «الغبطة» وهي أن تتمنى مثل ما لغيرك، فغيرك يظل بنعمة الله عليه، ولكنك تريد مثلها، وأنت إن أردت مثلها من الله فلابد أن تغبطه، والحق يقول:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

ولذلك يجب أن يكون الناس في عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين، لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة في أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قوم في حاجة فأعطيتهم منه، ربما قال الآخرون ممن يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك: إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطي هؤلاء؛ لأن ما عندك محدود، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده، إذن فيعطيك ويعطي الآخرين ولا ينقص مما عنده شيء.

إذن: فالغبطة أمر بديهي عند المؤمن؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن يعطي الآخر، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخْيط إذا غمس في البحر، وذلك كما جاء في الحديث القدسي: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخيط إذا أُدخل البحر»**[(١)].

---

(١) رواه مسلم في باب «تحريم الظلم»، ورواه أحمد.

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ﴾ فالحسد - كما عرفنا - هو: أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره، هذا التمني معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمردًا على مَن يعطي النعم.

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو: ردّه لقدر الله في خلق الله، وثاني ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه؛ فقلبه يحترق حقدًا، ولذلك قالوا: الحسد هو الذنب أو الجريمة التي تسبقها عقوبتها؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة؛ لأن الحقد يحرق قلبه، وربما قال قائل: وما ذنب المحسود؟

ونقول: إن لله جعل في بعض خلقه داء يصيب الناس، والحسد يصيبهم في نعمهم وفي عافيتهم، وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به؟ هذه مثل تلك، فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمي نفسه به، وليس له أن يستعمله في باطله، وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان شيئًا يكره النعمة عند غيره، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله: «ما شاء الله لا قوة إلا الله» ، فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذي لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك.

إنك ساعة ترى نعمة عند غيرك وتقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أي نعمة، إنما ربنا هو الذي أعطاه، وسبحانه قادر على كل عطاء، ومن الممكن أن يحسد الإنسان، لكن الذي يجد الحسد في نفسه ويريد أن يطفئه، عليه أن يردّ كل شيء إلى الله، ومادام قد ردّ كل شيء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسدًا، ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة، والحق سبحانه يبين لنا ذلك في قوله سبحانه:

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق: ٥].

إذن: فمن الممكن أن يمتلئ قلب أي واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه؛ لأن تيار الحقد يحدث تغييرًا كيماويًّا في تكوين الإنسان، وهذا التغيُّر الكيماوي هو الذي يسبب التعب للإنسان، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيماوي من النعمة عند غيره تجعل في نفس الإنسان وفي مادته تفاعلات، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾ [الفلق: ٥].

وعندما تستعيذ بالله من شر الحاسد ألاّ يصيبك، قد يصيبك، ولكن استعاذتك من شره تعني أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع، فتقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وتعلم أن ذلك خير لك؛ فإن أصابك في نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير، فالحاسد إذا أصابك في شيء من نعم الله عليك، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها!! فالمصاب هو من حرم الثواب، فإذا جاءت مصيبة لأي واحد وقال: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. اللّهم إنك ربي وإنك لا تحب لي إلاّ الخير لأني صِنْعَتَكَ و لم تجر عليّ إلا الخير» لكنني قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير.

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبيّن له فيما بعد أنها كانت خيرًا له، فإن أصابه في ولده وقال: مَن يدريني لعل ولدي الذي أماته الله كان سيفتنني فأكفر أو أسرق له وآخذ رشوة من أجله، لكن الله أخذه مني ومنع عني ذلك الشّر، أو أن النعمة قد تطغيني، وقد تجعلني أتجبر على الناس، وقد تجعلني أتطاول وأعتدي على الخلق، فيقول لي ربنا: امرض قليلاً واهدأ، وهكذا نرى أن المصاب لابد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول: لابد أنه سيأتيني من الابتلاء خير، وقد يقول قائل: نحن نقول:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفلق].

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعذنا الله من شرّ الحاسدين، ويحسدنا الحاسدون أيضًا.

نقول لهم: أنت لم تفهم معنى قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ إنك تفهمه على أساس ألاّ يصيبك حسده، لا.. إن حسده قد يصيبك، لكن عليك أن تعرف قدر الله في تلك الإصابة وتقول: يا رب إنك أجريتها عليّ لخير عندك لي، فإن فعلت ذلك فقد كفيت شرًّا.

ونحن نعيش في عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا في العلم بيّن لنا ربنا آيات في كونه وفي أسرار الوجود تقرب لنا كثيرًا من المعاني؛ فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخلاً تحت مرائى البصر، كان عنيفًا ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمي آخر بحجر، ثم آخر يرمي بمسدس، ثم صار في قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أي فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل، إذن فأسلحة الفتك كلما لطفت - أي دقت - عنفت، ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع، والإشعاع ليس جرمًا، وعمل الإشعاع نافذ لكن لا يوجد له جرم، وكما يقول الأطباء: نجري العملية من غير أن نسيل دمًا بواسطة الأشعة، ومثال ذلك: أشعة الليزر، إذن فكلما دقّ السلاح كان عنيفًا وفتاكًا.

وهذا مثال يوضح ذلك: لنفرض أنك أردت أن تبني لك قصرًا في خلاء، ثم مرّ عليك صديق فقال: لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديدًا؟ تقول له: لماذا؟ فيقول لك: هنا سباع وذئاب، فتضع الحديد ليمنع الذئاب، وآخر يمرّ على قصرك فيقول: إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة، فتضيق الحديد، وثالث يقول: هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات، فتضع سلكًا على النوافذ.

إذن فكلما دقّ العدو كان عنيفًا فيحتاج احتياطًا أكبر، ونحن نعلم أن الميكروب

الذي لا يُرى يأتي فيفتك بالناس، فالآفة التي تصيب الناس كلما لطفت - أي دقّت وصغرت - عنفت، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها، وأفتك الميكروبات هي التي تدق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض: لا نعرف لها فيروسًا؛ بمعنى أن هذا الفيروس المسبب للمرض صار دقيقًا جدًّا حتى عن معايير المجاهر.

إذن فما الذي يجعلنا نضيق ذرعًا بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذي تشقيه النعمة عند غيره، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشيء فتفتك به!! ما المانع من هذا؟! إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أي شيء، والأشعة هي من أفتك الأسلحة في زماننا، ولماذا لا نصدق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به؟! ومثلها مثل أي نعمة ينعمها ربنا عليك، وبعد ذلك تستعملها في الضرر، ومثال ذلك: الرجل الذي عنده بعض من المال؛ ومع ذلك يغلي حقدًا على خصومه، فيشتري مسدسًا أو بندقية ليقتلهم؛ إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام، وهذا يأتي من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان.

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله ﷺ مصدقًا بما عندهم، ما الذي منعهم أن يصدقوه؟ لاشك أنهم حسدوه في أن يأخذ هذه النعمة، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسل، وهل كان ذلك صحيحًا؟ حقًّا إنها مزية للرسل ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم، والناس في كل الأمم - ما عدا الأنبياء - يورثون أولادهم مالهم، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم.

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهًا، أو ليستعلوا على الناس، بل كلِّفوا بمتاعب جمّة، إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التي أعطاكم الله إياها في مسألة علم الدين، وتجعلونها أداة

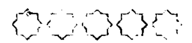
للترف والرفاهية وللعنجهية وللعظمة، وحين يجيء رسول لكي ينفض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة، ماذا تفعلون؟ أنتم تحزنون، لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم في خدمة القيم، وأخذتم عظمة السيطرة فقط، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم: لا.. لن نتبعه، فإذا كنتم تحسدون النبي ﷺ على الرسالة وجعلتموها مسألة يُدَلِّله الله بها أو أنها تعطيه سيطرة، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك، وأعطى لداود الملك، وأعطى لسليمان الملك، وأعْطى ليوسف الملك، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثاني من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟!

لقد كرّم الله سبحانه الفرع الثاني في إسحاق وجاء من إسحاق يعقوب، ومن يعقوب يوسف، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان، كل هؤلاء قد كرموا، وعندما يكرم سبحانه الفرع الثاني لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً، تحزنون وتقفون هذا الموقف؟

لماذا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرعه أتى من ذرية إبراهيم، ولماذا اعتبرتم الرسالة والنبوة نعمة مدللة، ولم تنتبهوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقي على نفسه وعلى آله، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس؛ فالنبي ﷺ يقول: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث**»[1].

ويَحْرِم ﷺ آل بيته من الزكاة، ويقول ﷺ أيضًا: «**إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس**»[2]..

وهكذا نرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده.



(١) أخرجه أحمد.

(٢) أخرجه مسلم.

النصيحة الثالثة عشرة:

العُقمُ.. حِكمَة

يقولون: «لو اطّلعتم على الغيب لاخترتم الواقع» وهذا صحيح، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ۝﴾ [الإسراء: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فلا تسخطي - أختي المسلمة - على ربّك إذا كنتِ عاقرًا، فَلِلّه في ذلك حِكمة قد تخفى عنكِ.

وحَول هذا الموضوع يحدّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

«وسبحانه هو الذي يُرضي الزوج إن افترق عن زوجته، ويرضي الزوجة إن افترقت عن زوجها؛ لأنه - جل وعلا - خلق الدنيا التي لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هي خير ممن فارق، ويرزق المرأة رجلاً هو خير ممن فارقت، فلا شيء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء.

إننا كثيرًا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم، ويذهب الاثنان إلى معامل التحليل، ويقال أحيانًا: المرأة هي السبب في عدم النسل، أو: الرجل هو السبب في عدم النسل، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر، فتلد المرأة من الزوج الجديد، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة، لأن المسألة كلها مرادات الله، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائمًا

فهو القائل:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف؟

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾، ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة، وعندما يهب الله المؤمن الإناث يكون سعيدًا، وكذلك عندما يهبه الذكور، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط، فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة، وإن وهب الحق سبحانه لأسرة ذرّية من الإناث فقط، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة، والحالة التي تقر بها العيون عادة مؤخرة.

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة، فقال أولاً: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾، وبعد ذلك: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾، ثم ذكر عطاء الذكور، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾، وأخيرًا يأتي بالقَدَر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾.

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه - سبحانه - الذكور والإناث، ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيمًا؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذي تهواه، وترد القدر الذي ليس على هواك؟! إن المواقف الأربعة هي قَدَر من الله.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضي بها، إنه سبحانه يخلق ما

يشاء ويجعل من يشاء عقيمًا، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينيه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور، أو بالذكور والإناث معًا، وأقسم لكم لو أن إنسانًا - أو زوجين - أخذا قدر الله في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم، وقد ربَّاهم غيرهم، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق، هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر الله - والعياذ بالله - فيجعل الله حياتهم سخطًا، فهو القائل في حديثه القدسي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1]. ا.هـ.

وفي موطن آخر، **قال الإمام** - رحمه الله تعالى - :

وساعة يجري الحق سبحانه وتعالى شيئًا في كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية في الكون؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون، ولذلك يعرض القرآن بصيصًا من هذه الأشياء؛ إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها، لكن حين يفسرها من أجراها تجدها في منتهى العقل.

مثال ذلك: سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح، ما الذي حدث؟

قال العبد الصالح:

﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الكهف: ٦٧].

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له:

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٨].

فيقول سيدنا موسى وهو من أولي العزم من الرسل:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[الكهف: ٦٩].

فيخرق العبد الصالح السفينة، وخرق السفينة في السطحية الفهمية شرّ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابرًا، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة، فقال للعبد الصالح:

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير، فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصبًا:

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها، لأن بها عطبًا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك؛ إذن كل شيء يجري على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد، وهي من المكون الأعلى فوراءها حكمة.

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل؟ لقد قتل العبد الصالح غلامًا، ما الحكمة في ذلك؟ إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسندًا، وقد يكون هذا الابن سببًا في فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى.

ويقول قائل: وما ذنب الولد؟

نقول: أنت لا تفهم الأمور، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة في أن يطيع أو يعصي الله، ذهب إلى رحمة الله مباشرة، وهذا أفضل له، وكان في ذلك القتل للولد

رحمة لوالديه؛ فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه.. وكذلك الأمة حين تخالف ناموسًا شرعيًّا أو كونيًّا، لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلابد أن لله فيها حكمة، وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم، فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أي طلبا من أهلها طعامًا:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ [الكهف: ٧٧].

ولم يطلب أي منهما نقودًا، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه، وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان.

فقالوا لهما: لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئامًا، ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح: لماذا لم تأخذ منهم أجرًا؟

وأخيرًا يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى:

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين. فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية، إذن فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة من يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة.

۞۞۞۞۞

النصيحة الرابعة عشرة:

اجتنبي كبائر الذنوب

اعلمي - **أختي المسلمة** - أن من ثمرات اجتناب الكبائر: تكفير السّيئات، ودخول الجنة.

قال الحق سبحانه:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

هذه الآية هي إحدى ثماني آيات قال عنها ابن عباس - رضي الله عنهما - : في هذه السور - سورة «النساء» ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت، وقلنا: إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، ثم جاءت: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ؛ والاجتناب: ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له.

هذه الآيات الكريمات كانت خيرًا لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت، لأنها تحمي من حمق الاختيار الذي وجد في الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله، ولو أن الإنسان كان مسيَّرًا وَمُكْرَهًا على الفعل لارتاح من هذا الاختيار، وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغترّ بمزيته على سائر خلق الله، والميزة التي ميَّز الله بها الإنسان هي

العَقل الذي يختار به بين البديلات، بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار.

ونعرف أن الحق قال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان قد ظلم نفسه، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة، وكل كائن منهم يقوم بعمله آليًا وارتاح من حمق الاختيار، فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه إن حمق اختياره في شيء فالله يريد أن يبصره، والله يريد أن يتوب عليه، والله يريد أن يخفف عنه، والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها، كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حمق الاختيار، فيوضح: أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنَّ عندك مسلكين: كل مسلك يغريك، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله في الآخرة يُغري، وشهوة النفس العاجلة تُغري.

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها، يُحبُّ أن يأتي لربه راغبًا محبًّا، لأن هناك فارقًا بين أن يسخَّر المسخَّر ولا يستطيع أن ينفلت عما قدر له أن يعمله، وتلك تؤديها صفة القدرة لله، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية؛ لأن المحبوبية أن تكون مختارًا أن تطيع ومختارًا أن تعصي ثم تطيع، هذه صفة المحبوبية، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبية له سبحانه، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أو لا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] كأن الله بعد تكليفاته في أمور الأعراض والأموال وتكليفاته في الدماء من قتل النفس وغيرها، أوضح: إياكم

أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور، فأنا سأرضي باجتناب الكبائر من المساوئ؛ فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، والجمعة للجمعة كفارة، ومن رمضان لرمضان كفارة، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر على استبقاء حياتك إلى أن تستغفر، فلا تقل: سأفعل الذنب ثم أستغفر، هذه لا تضمنها، وأيضًا تكون كالمستهزئ بربّه.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

في السيئات يقول: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقلنا: إن «الكفر»: هو «الستر» أي: يسترها. ومعنى نسترها يعني لا نعاقب عليها، فالتكفير إماطة للعقاب، والإحباط إماطة للثواب. فإن ارتكب إنسان أمرًا يستحق عليه عقابًا وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله. أي: يضع ويستر عنه العقاب. أما من عمل حسنة ولم يقبلها الله، فهو يحبطها.

إذن فالتكفير – كما قلنا – إماطة للعقاب، والإحباط: إماطة للثواب كما في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أي: ليس لهم على تلك الأعمال ثواب؛ لأنهم فعلوها وليس في بالهم الذي يعطي الثواب وهو الله، بل كان في بالهم الخلق، ولذلك يقول النبي ﷺ: «**فعلت ليقال وقد قيل**».

أنت فعلت ليقال وقد قيل، وقالوا عنك إنك محسن كبير، قالوا: إنك بنيت المسجد، وقرأوا اللافتة التي وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير، ويقول الحق:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

أنت فعلت ليقال وقد قيل؛ لذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر، وإن كان الواحد منهم حريصًا على أنه يأخذ

الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهي المسألة، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله ﷺ في شأن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم: «**ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِمالُه ما تنفق يَمِينُهُ**»(١).

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة، والحق يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾، و«الاجتناب» هو إعطاء الشيء جانبًا، ولذلك يقولون: فلان ازورّ جانبه عني، أي: أنه عندما قابلني أعطاني جانبه.

والمراد في قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾ هو التباعد، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهي عنه في مكان واحد، فعندما يقول الحق:

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

وعندما يقول: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾، «فاجتنبوه» أي: ابتعدوا عنه، لماذا؟ لأن حمى الله محارمه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشُبُهات وقع في الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمه...**»(٢).

والحق يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

واجتنابه يكون بألا توجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق: اجتنبها، أي: لا تذهب إليها؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون، فقد تشربها، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها، ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون: إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص!! نقول لكل واحد منهم: حسبك أن شرب الخمر قُرن بالرجس من الأوثان، فالحق يقول:

﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده، بل إياك أن تراه، إذن: فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها، بل إياك أن تكون في محضرها.

و«الكبائر» جمع: كبيرة، ومادام فيه «كبيرة» يكون هناك مقابل لها وهي «صغيرة» و«أصغر»، فالأقل من «الكبيرة»، ليس «صغيرة» فقط؛ لأن فيه «صغيرة»، وفيه «أصغر» من «الصغيرة» وهو «اللمم».

والحق يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، و«السيئات»: منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر؛ لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء، قالوا: معنى ذلك أننا سنغري الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر. نقول: لا، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك؛ فالحق يُكفر ما فلت منك فقط؛ ولذلك يقول الحق:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

يفعلون الأمر السيئ بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ

قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨].

إذن: فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنها بذلك تكون كبيرة، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون؟

يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. فإن أخذت هذه فخذ تلك، خذ الاثنتين، فلا كبيرة مع الاستغفار، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار.

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا: الكبيرة هي ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة، والتي لم يأت فيها حد فقد دخلت في عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر.

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها[1]، وهو الذي قال فيه أحد الخلفاء: كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد، أي أن كل العلماء يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد.

إذن: فقد شهد له، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء، بل قال: أريد أن أعرفها من نص القرآن، الذي يقول لي على الكبيرة يأتيني بنص من القرآن.

ودخل ابن عبيد البصري على سيدنا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل؛ لأنه عالم أهل البيت، ولأنه قد بحث في كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش في رحاب الفيض، فقال ابن عبيد: هذا هو من أسأله، فلما سلم وجلس قرأ قول الله – سبحانه –:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) لعلّ الإمام – رحمه الله – مدح فيه جانب الزّهد، وإلاّ فعمرو بن عبيد معتزلي.

ثم سكت!! فقال له سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق: ما أسكتك يا ابن عبيد؟

قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن، ساعة قال له: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله.

قال أبو عبد الله: نعم، أي على خبير بها سقطت. أي: جئت لمن يعرفها. ثم قال: **الشرك بالله**، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وأضاف: **واليأس من رحمة الله** فإن الحق قال:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

وهكذا جاء سيدنا أبو عبد الله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله، وأضاف: **ومن أمن مكر الله**؛ لأنه - سبحانه - قال:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

والكبيرة الرابعة: عقوق الوالدين؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقي. قال تعالى:

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

وقتل النفس. قال تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]..

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور: ٢٣].

وأكل الربا. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والفرار يوم الزحف. أي: إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فر واحد من الزحف. فقد قال تعالى في شأنه:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأنفال: ١٦].

وأكل مال اليتيم. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

والزنا. قال تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وكتمان الشهادة. قال تعالى:

﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[البقرة: ٢٨٣].

واليمين الغموس وهو: أن يحلف إنسان على شيء وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله، وهو قد فعله، أي القسم الذي لا يتعلق بشيء مستقبل. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

والغلول أي: أن يخون في الغنيمة. قال تعالى:

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وشرب الخمر؛ لأن الله قرنه بالوثنية. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾ [المائدة: ٩٠].

وترك الصلاة؛ لأن الله قال:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

ونقض العهد، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة: ٢٧].

إذن: فكل هذه، هي الكبائر بنص القرآن، وكل كبيرة معها حكمة، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالمًا، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذي جاء به سيدنا ابن سيدنا جعفر الصادق عندما سأله، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد. نعم. أي: إن جوابك عندي. ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت في ذهنه، وخصوصًا أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة! بل هي آيات يختارها من هنا ومن هناك، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن.

لقد نشأ هذا الرجل في بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذي وضع للمؤمن منهجًا بحيث لا يصيبه شيء في نفسه إلا وجد له علاجًا ودواء في كتاب الله، إنه وجد أن الزوايا التي تعكِّر على الإنسان أنه يخاف من شيء، والذي يخاف من شيء يكون هذا الشيء – غالبا – محدودًا معروفًا.

أنا أخاف من الشيء الفلاني، ولكن واحدًا يصيبه غمّ وهمّ لا يدري سببه، فيقول لك: أنا مغتم دون أن أعرف السبب.

إذن: ففيه انقباض لا يعرف سببه، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به، وهناك ثالث يحب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده، كل هذه هي مشاغل النفس البشرية: أن تخاف من شيء، أن تغم من شيء، أن تشفق من مكر بك وكيد لك، أن تتطلب أمرًا من أمور الدنيا، وسيدنا جعفر هو الذي قال: عجبت لمن خاف و لم يفزع إلى قول الله – سبحانه –:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

انظر لاستنباط الدليل، الذي يقوله سيدنا جعفر: فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

انظر دقة الأداء، يقول: سمعت الله، و لم يقل: قرأت، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآنًا لابُدَّ أن يتأكد أن الله هو الذي يتكلم.

وجلال القدم يغطي على جدية الحادث، فالذي يقرأ أمامك حادث، لكنه يقرأ كلامَ الله.

إذن: فجلال القدم يغطي على جدية الحادث. ويضيف سيدنا جعفر: وعجبت لمن اغتم و لم يفزع إلى قول الله – سبحانه –:

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ثم يقول: فإني سمعت الله بعقبها يقول: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ويضيف سيدنا جعفر: وعجبت لم مُكر به و لم يفزع إلى قول الله – سبحانه –:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤].

فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله – سبحانه –:

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

فإني سمعت الله بعقبها يقول:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٣٩، ٤٠].

هذه هي الاستنباطات الإيمانية، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التي قالها سيدنا جعفر تجدها تغطي زوايا النفس الاجترائية؛ لأن التكليف حينما يأتي يحد حركة الإنسان عن الشهوات، فالآيات جاءت لتحدّ من الاجتراء، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية في الألوهية إلى قطيعة الرحم، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات في النفس البشرية، أول اجتراء: هو الشرك. لأنه قال:

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [لقمان: ١٣].

والظلم الذي تعرفه: أنك تحكم بشيء للغير وليس من حقه، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك، أليس هذا أعظم الظلم، وهو ظلم لنفسك، فإياك أن تظن أنك تظلم الله؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ ولذلك يقول في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

إن هذا ظلم لنفسك؛ لأنك حين تعتقد أن لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء. واقرأ قول الله:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة.

فعبد مملوك لعشرة أسياد، وياليت العشرة الأسياد متفقون، بل هذا يقول له: اذهب، وهذا يقول له: تعالَ. إذن: فقد أتعب نفسه وأرهقها. إذن: فقد ظلمها. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤].

إن الإيمان بالله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة، ولا أوامر من جهة أخرى أبدًا.

إذن: فقد أرحت نفسك، وهذه قضية يثبتها الواقع؛ لأن الله قد أنزل في قرآنه المحفوظ المتلو المقروء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤].

فالمؤمن يقول: هذه كلمة صدق، والكافر يقول - والعياذ بالله -: هذه الكلمة غير صدق، والمسألة على أي تقدير منتهية، واحد جاء وأخذ الكون وقال: لا يوجد إله إلا أنا، والذي أخذ منه الكون إله ولكن أَعَلِمَ أن الكون أخذ منه أم لم يعلم بذلك؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة في هذا الإله، وإن كان قد درى فما الذي أسكته؟ فالمسألة - إذن - محلولة، هذه مسألة الشرك.

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين، إنه هو الحق، وهو الذي ينفع ويضر، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذي له شركاء وياليتهم متفقون؛ بل هم مختلفون.

بعد ذلك يأتي في المرحلة الثانية وهي: اليأس من روح الله، و« الرَّوْح » من « الرائحة » وهي النسيم، فساعة تكون في ضيق والجو حار تلتفت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها، هذه الراحة يعيطها الله لمن لا ييأس من روح لله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة؛ لأن الحياة أغيار، وأحداثها متعددة، وللعالم وللكون الظاهر سنن في الأسباب والمسببات.

هَبْ أن أسبابك ضاقت بشيء ولم يعد عندك أسباب له أبدًا، فالذي لا يؤمن

بإله قوي يخرق الأسباب، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا.

إذن: فاليأس من روح الله هو من جعل قوة الله العليا التي خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية في شيء يئس منها، أما المؤمن فنقول له: أنت لا تيأس؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس؛ فالذي ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية، إن الله، هو خالق هذه النواميس.

فعندما ييأس إنسان من روح الله، يكون قد سوّى الله - بطلاقة قدرته - بالنواميس، إن الذي تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره.

وبعد ذلك جاء بـــ «عقوق الوالدين» وهما الخلية الأولى التي يواجهها الإنسان، وهما السبب المباشر في إيجادك؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سببًا مباشرًا لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سببًا أوليًا لوجودك، وهو الله الذي لم تره. إذن: فاحترامهما والبرّ بهما ليس - فقط - لأنهما سبب في وجودك وإنما - أيضًا - لأنهما ربياك صغيرًا فعليك بالبر بهما، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سببًا في إيجادك، وتربيتك، وعندما ترقيها وتتساءل: من أوجد أباك؟ جدّك. ومن أوجد جدّك؟ تصل إلى أين؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له، وهو أن الله قد خلق آدم.

ثم قال: قتل النفس، والقتل هو نقض بنية الكائن، وهو يختلف عن الموت، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأي شيء. ولنقرأ القرآن بإمعان، إن الحق يقول:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية، وهذا لا يجريه إلا الله، إنما القتل بهدم البنية، فأي إنسان يستطيع أن يفعله، فتخرج الروح بإذن الله، وليس معنى ذلك أن أحدًا عَجَّل بأجل القتيل، لا؛ ولكنه تدخل في بنيان أقامه الله فهدمه، ولو لم يتدخل أحد في بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء.

إذن: فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل في هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا في بنيان له مواصفات خاصة تقتضي أن يكون المخ سليمًا، وكذلك القلب، وبقية أجزاء الجسم. لكن حين يجيء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية.

وضربنا مثلاً لنقرِّب هذا الأمر – ولله المثل الأعلى –:

إن هذه الروح نشبهها بالكهرباء، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمها ولم تذقها، إذن فبأي وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها. لكنك تعرف أنها تدير حياة جسمك كله، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة. وقد جعلها الله كدليل ذاتي في النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، تقول: لا نرى الله. نقول لك: نعم، فهو – سبحانه – يقول:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما في الكون فقط من آيات، بل إن الأدلة لا تتعداك أنت أولاً، فروحك التي تدير جسمك أين هي؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ ما رائحتها؟ أتعرف؟ لا، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها، فكيف تطلب أن ترى إلهًا وقد خلق شيئًا لم تقو على أن تراه؟ أمخلوق لا تقدر أن تراه، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه. إذن: فمن عظمته أنه لا يُدْرَك. ويقول الحق – سبحانه وتعالى – عن لحظة تنزل الروح في الجسم:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧٢].

لأنه سيكون إنسانًا سويًّا، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء – ولله المثل الأعلى –

هل تعرف ماهي هل رأيتها؟ لم ترها، هل أحد عرفها؟ الذين اكتشفوها، أعرفوا ما هي؟ لم يعرفوا، إنما نعرفها بآثارها، فساعة نرى المصباح منيرًا نقول: جاءت الكهرباء، وساعة تدور المروحة تقول: الكهرباء جاءت.

إذن: فأنت تعرفها بآثارها، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لا تجد له حركة. وعندما تخف الحركة وتَخْفُت يقولون: أخذ الحركة من شيء إن وقف يكون الموت، وليس من اليد، لأن اليد قد لا تتحرك لإصابتها بالشلل، بينما الإنسان مازال حيًّا؛ ولذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس، فإن وجدت بخارًا على المرآة فهذا يعني أن هذا الإنسان مازال حيًّا، وفيه روح، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائي فالكهزباء لا تعمل عملها؛ لأن الكهرباء لا تظهر إلا في قالب من هذا النوع، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور.

إذن: فعندما نهدم الجسم لا تجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه، فكذلك المصباح الكهربائي إن انكسر تكون الكهرباء موجودة في الأسلاك إنما لا يوجد نور، وعندما تأتي بمصباح جديد يأتي النور، كذلك الروح لا تظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل، لأن القاتل يقتل خصمه فهذه شهادة منه أنه أعجز من خصمه، صحيح أنه قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء. لكن في الواقع أن هذا عجز.

إن معنى القتل ونقض الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه، ولا يرتاح إلا إذا مات هذا الإنسان. إذن: فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه. فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنها شهادة عجز، وأنه لا يمكن أن يواجه حياة هذا الحي إلا بأن يميته لما قتله، والحق يحمي النفس البشرية من القتل حتى لا يكون أي إنسان مهددا، وحتى لا تتعطل الخلافة التي أرادها الله في الكون.

ثم تأتي كبيرة أخرى وهي: قذف المحصنات الحرائر، ونعرف أن ركنًا من أركان المجتمع السليم أن تظل الحرائر مصونات كي لا يعاني النشء والنسل الذي ينسل منهم من ظن الريبة والعار، وحين لا تظن النفس البشرية بريبة فهي تواجه الحياة بمنتهى طلاقتها وبمنتهى قدرتها؛ لذلك فالذي يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والحرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة في المجتمع، زلزلة في نسب أفراد المجتمع، ويضار بها من ليس له ذنب، يضار بها الأولاد الصغار، وما ذنبهم وقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وبعد ذلك قال: أكل الربا؛ لأن الربا يصنع خللاً اقتصاديًا فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد.

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط، والعلاقة الأولى التي أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هي أن تكون المرأة سكنًا وليست أداة استمتاع فقط، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه في النفس البشرية؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد في الأولاد.

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر، لأن الفرار يصنع خللاً في المجتمع الإيماني؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الإسلام أغاروا علينا، وماداموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الإسلام، حتى لا يمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام، ولتظل كلمة الله هي العليا، ففرار المسلم يعطي أسوة على ضعف الإيمان في النفس، ولذلك لا تغتروا بأن هذا صار مؤمنًا وذاك صار مؤمنًا، فلو كان مؤمنًا حقًّا ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال؛ لأنه إن قتل صار شهيدًا ومبشرًا من الله بكذا

وكذا؛ لذلك فالفرار في يوم الزحف يعطي أسوة سيئة ليس في الحرب فقط، بل سيعطي شيوع خلخلة إيمانية في النفس البشرية، والحق - سبحانه وتعالى - أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب في أحد أمرين كلاهما حسن: النصر أو الشهادة، فقال - سبحانه -:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢].

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ما قاله الله:

﴿ونَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة: ٥٢].

فإذا كان الحق - سبحانه وتعالى - يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يفقد الحياة التي هي سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن، ولكن الحق - سبحانه وتعالى - لا يحب المؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق:

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٦].

فالإنسان لا يدخل في معركة وهو غير مستعد لها، أو ليس لديه مظنة النصر، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحدًا، فماذا أفادنا؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة، وبثمن يُبقي للجماعة الأمان أو النصر.

وبعد ذلك قال: واليمين الغموس. واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع؛ لأن اليمين الغموس هي السبب الذي يغمس صاحبه في النار؛ لأنه حلف على شيء أنه كان وهو لم يكن، أو على شيء لم يكن وهو قد كان، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق، ولا يعرف القاضي التمييز حين يفصل في الحقوق، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدي ذلك إلى ضرر بالغير، فمن يريد

أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه.

وتأتي كبيرة أخرى وهي الغلول. وتعني أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهي ما نسميها «السَّلَب» وهي أسلحة الأعداء وما عندهم من أشياء. فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها، أيكون قد نقض عملية الحرب في سبيل الله أم لا؟ إنه ينقض عملية الحرب في سبيل الله، إن الحرب في سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هي العليا، ولذلك يقول الحق:

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

لقد قلنا: إن كان قد غل بقرة. فسيحملها يوم القيامة، وسيكون لها خوار. وإن غل في أسمنت فسيأتي حامله يوم القيامة، ومن غل في حديد أو استورد لحومًا فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتي وهو يحمله يوم القيامة.

ثم تأتي كبيرة وهي شهادة الزور. فشهادة الزور أيضًا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها؛ لأنها لا تجعل المؤمن مطمئنا على حقه.

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه؛ لأنه ينتهي إلى قوة خفية، إذ ليس أمام الذي يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه، حتى يرتب لنفسه الحماية منه. ولذلك يقول الحق – سبحانه –:

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي ليس له نصيب في الآخرة، وربما يقول قائل: إذا كانت هذه مضرة السحر في هدم كيان المجتمع وتفزيعه، فلماذا وجد؟ نقول له: إن الكائنات مخلوقة لله، وكل كائن له قانون، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد. وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد في ذلك الجنس تكافؤ الفرص، بمعنى أن لك فرصة هي

لغيرك. أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك، هذا يمثل خللاً في تكافؤ الفرص في الجنس الواحد.

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذي يحمي المجتمع، بأن تكون فرصك أنت وفرصي أنا متساوية، فيكون صاحب الحركة في مادة الكون هو الذي يتغلب، وبذلك لا آخذ أنا فرصة غير موجودة عندك. فتكافؤ الفرص هو الذي يرحم البشرية.

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل في الشيوعية في روسيا قد سقطت وبقيت قوة في الغرب تتمثل في أمريكا، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان، اليابان، ألمانيا الموحدة، وأوروبا التي تبحث عن الوحدة، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى في الفرص المادية الموجودة.

وهذا هو ما يحمي الكون من الدمار؛ لأن أي واحد يفكر في أي شر جارف يخاف ردّ الفعل، ويخاف أن يردّوا عليه بشر أشد ، ولو تيقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب.

إذن: فحماية الجنس البشري إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده، ولكن الإنسان جنس، والجن جنس آخر، والإنس والجن مكلفان من الله، فعنصر الاختيار موجود فيهما، ولذلك حكى القرآن:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝ ﴾ [الجن: ١، ٢].

وعندما قسموا قال القرآن:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝ ﴾ [الجن: ١١].

إذن: فهم مثلنا. لكنهم لهم قانون ولنا قانون:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

إذن: فقانون الجن أنه يرى الإنسان، والإنسان لا يراه، وقانونه أخف من قانون الإنسان؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى، فنحن البشر مخلوقين من طين. أي: أن لنا مادية محسة وكثيفة. والجن مخلوق من نار، والمخلوق من مادة الطين مثلنا، النبات والحيوان، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها. هب أنها خلف جدار وأنت جالس. أيتعدى طعمها لك؟ أتتعدّى رائحتها لك؟ أيتعدّى لونها لك؟ لا. إذن: فالجرمية المحيزة لا تجعلك تنتفع به.

لكن هب أن نارًا موضوعة وراء الجدار، وبعد مضي مدة ستشعر بالحرارة، أي أن الحرارة قد نفذت. والجن له شفافية وله خفة في قانونه وفي انتقاله ولا توجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان، ولذلك لاحظوا أن الحق - سبحانه وتعالى - حينما أراد أن يبين لنا هذا، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذي سخر الله له الجن:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

وحينما اجتمع في جنوده ومن حوله من الناس قال:

﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [النمل: ٢٠].

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٢، ٢٣].

وهذا كله ليس بمهم، إنما المهم هو قول الهدهد:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول. فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك، فجاء بالملكية أولاً:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

هذه مقومات المُلك، أما المسألة التي تهم سيدنا سليمان:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب، ثم يقول:

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٢٥].

إذن: فهو يعرف من الذي يستحق السجود، ولاحظ أنه جاء بـــ ﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾ لأن طعامه دائمًا من تحت الأرض، ينقر ويُخرج رزقه.

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه:

﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل: ٣٨].

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ملكة سبأ في الطريق إليه، ومعنى أن يقول:

﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾.

معناها أن الذي يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتي به قبل أن تأتي بلقيس.

بالله هل من قانون بشري يأتي به؟ وكيف ذلك؟ ولذلك لم يتكلم إنسيٌّ عادي، فالإنس العادي يعرف أن قانونه البشري لا يقدر على تلك المهمة، لأن سليمان قال: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي﴾، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم في الطريق. فهل يذهب إنسان عادي ويحل العرش ويحمله ويأتي به قبل أن يأتوا؟ لا، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وهنا يتصدى أحد الأذكياء من الجن قائلاً:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩].

ومن يقول ذلك ليس بجن عادي، فالجن أيضًا فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء، مثل الإنسان، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، فكم يمكث من الوقت؟ لا نعرف، تُرى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف. إذن: فتأخذ هذه العملية زمن مقامه، لكن هاهو ذلك الإنسي الذي أعطاه الله فتحًا من الكتاب وعلمًا يقول:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

الإنسي العادي لم يتكلم، والعفريت من الجن قال:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

أما الإنسي الذي أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

ولذلك انظر إلى الأداء العاجل في القرآن أداء الحركة:

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾.

فالمسألة حدثت على الفور.

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال:

﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

ومنها نعرف أن له قانونًا في الحركة والسرعة، والإنسان الذي وهبه الله علمًا الكتاب له قدرة وحركة. إذن: فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له.

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيي المفكرين قائلين: ما الجن الملائكة والعالم الخفي الذي تحدثوننا به؟ نقول: ألا تؤمن إلا بالمُحسّ بالنسبة لك؟ ما رأيك في الميكروبات التي ظهرت الآن بعدما اخترع المجهر؟ لقد كانت موجودة، كنت تعرفها؟ لقد كانت غيبًا عنك، فلماذا لا تأخذ من أن شيئًا لم يكن موجودًا تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك، كان موجودًا وكنت لا تملك آله إدراكه، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناس غير مُدركة، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها؟ فما المشكلة في هذا؟

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: **«وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»**[1].

قد تتساءل: وهل الشيطان يجري مجرى الدم، أهو سائل أم ماذا؟

نقول: هو خلق لطيف خفى له قانونه الخاص، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك في الغيبيات التي يذكرها الله، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هي الميكروبات، وهي من الجنس المادي من الطين، لكنها ضئيلة جدًا، وماذا يفعل الميكروب؟ إنه ينفذ في الجسم ولا تدري أنت به وهو داخل في جسمك، وبعد ذلك ماذا يفعل في حرارتك؟ وماذا يفعل في جسمك؟ فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله: إن الشيطان سيجري منك مجرى الدم فما التناقض في هذا؟ إذا كان هناك شيء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل، ولا تشعر به وهو داخل، ثم يقلب ميزانك في الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد. أي تناقض إذن؟

---

١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه.

إن ربنا ترك من غيبيات كونه المادي مايثبت صدقه في التحدث بغيبيات أخرى:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

لقد جاء الحق بواحد من الإنس حتى لا يظنن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون - سبحانه - إذن: فالمسألة ليست عنصرية بل هي إرادة الله إنه - جلت قدرته - أوضح: أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوي بقانونه وهو الجن محكومًا لواحد من الإنس، ويجعله يعمل ما يريده.

و لم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها؛ لأنه ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره. وقد يطغى وهذا هو السحر. وأوضحنا ذلك عند قوله - سبحانه -:

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فتنة، لماذا؟ لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها في الضار فقد تستعملها في ذلك؛ فستذهب بك إلى النار. والحق يقول:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

إذن: فالحق - سبحانه وتعالى- من طلاقة قدرته يعطي للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئًا يستطيع به أن يسخر الأقوى وهو الجن، والجن يعرف هذه الحكاية. ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن ولا يأتي ويدوم بل يأتي لمحة خاطفة؛ لأنه لا

يستطيع أن يستقر على صورته التي يتمثل فيها، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة، وإن حكمته الصورة، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة «مسدسه» لقتله!

ولذلك فالجن يأتي لمحة مثل ومضة البرق ويختفي، إنها طلاقة قدرة الحق التي يمكن أن تعطي للجنس الأقل - الإنسان - قوة القدرة على أن يسخر الجنس الأقوى - الجن - لكن هذه ليست في مصلحة الإنسان، ولذلك فالمؤمن من الجن يقول: أنا أكتفي في جنسي بقانوني، فربما يجعلني عدم تكافؤ الفرص طاغيًا، لأن من يملكون هذه القدرة يطغون في الناس. والذي يقوم بعمل تكره به المرأة زوجها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يحل مثل هذا العمل، ومن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية.

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق:

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فالسحر وارد بنص القرآن، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعة في السحرة ولا ذاتية فيهم، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس، والذي يتبع هؤلاء السحرة، ويذهب لهم ليفكوا له السحر، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقًا مصداقًا لقوله الحق:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦].

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا، لكن ذلك السحر يزيد المتسبب فيه رهقًا وتعبًا.

وعلى المؤمن أن يحمي نفسه بهذا الدعاء: «**اللهم قد أقدرت بعض خلقك على**

السحر، واحتفظت لذاتك بإذن الضر، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به».

عندئذ لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه، فهم يستغلون الضعيف فقط، والسحر يُوجِد عدم تكافؤ فرص، ويفتن الناس في الناس، ويؤدي إلى إخلال توازن المجتمع.

وبعد ذلك تجيء كبيرة منع الزكاة، والحق - سبحانه وتعالى - حين يطلب منا أن نزكي، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشيء من عندنا؛ فالعقل الذي يخطط للعمل مخلوق لله، والجوارح التي تعمل مخلوقة لله، والأرض التي تعمل فيها أو الصنعة التي نصنعها مخلوقة لله، لكنه أوضح لك: سأحترم عملك، وعليك أن تعطي أخاك الفقير بعضًا مما رزقتك به.

إذن: فكل حاجة لله.

ويقول قائل: مادام هو ربُّ الكلّ، فلماذا يترك واحدًا فقيرًا؟ نقول: لكي يُثبت الأغيار في الكون، ويعرف الغني أن الفقر قد يلحقه، ويعرف القوي أن الضعف قد يلحقه. إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون، فيُحنن الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك في الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق، ولذلك فإذا رأيت واحدًا جوعانًا بحق فاعرف أن واحدًا ضيع زكاته فلم يؤدها، وإن رأيت عورة في المجتمع فاعرف أن فيه حدًّا مضيعًا لله، لأن ربنا جعل المجتمع متساويًا والنقص هنا يكمله من هناك، فإن رأيت نقصا عامًّا فاعرف أنه فيه حقًّا لله مضيعًا.

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة، ونعرف أن الصلاة هي إعلان دوام الولاء للإله الواحد، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله مرة واحدة في العمر، وتُزكي إن كنت واجدًا وقادرًا مرة واحدة في السنة، وتحجُ مرة واحدة في العمر، وتصوم شهرًا واحدًا في السنة، وإن كنت مريضًا لا تصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لا يرجى شفاؤه أو أصبح

الشخص لا يقوى على الصوم لكبر سنه، وإذا كنت فقيرًا لا تزكي، فقد سقطت الزكاة عنك أيضًا، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج.

ها هي ذي ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها. وبقي ركنان اثنان من أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والصلاة، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفي أن تقولها في العمرة مرة، فماذا بقي من أركان الإسلام؟ بقيت الصلاة، ولذلك قال ﷺ: «**الصلاة عمود الدين**»(١).

إذن: فترك الصلاة معناه: أنه تمرّد على إعلان العبودية والولاء للحق. وقد طلبها الله في اليوم خمس مرات، وحتم الجماعة فيها في يوم الجمعة في الأسبوع. لماذا؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيدًا لله. فلا يعبد واحد ربنا سرًّا وبعد ذلك لا يرى أحد منا أحدًا فكلنا نسجد لله ولابد من إعلان الولاء لله، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له - سبحانه -.

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات في اليوم، هذا بالأمر والتكليف، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له في أي وقت تجده في استقبالك في أي مكان تقف وتقول: الله أكبر تكون في حضرة ربنا، وقلنا سابقًا: إن من له السيادة في الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلبًا حتى تلقاه. ويحدد لك الميعاد، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله: ستتكلم في ماذا. وقد يقف المسئول أو السيد في الدنيا وينهي المحادثة. لكن ربنا ليس كذلك. أنت تذهب له في أي وقت وفي أي زمان وتطيل كما تحب ولن ينهي المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت. ولذلك يقولون:

حسبُ نفسي عزًّا بأني عبد ... يحتفي بي بلا مواعيد ربَّ
هو في قدسه الأعزُّ ولكن ... أنا ألقى متى وأين أُحِبَّ

---

(١) رواه أبو نعيم الفضل بن دكين في «الصلاة» عن عمر، وهو حديث حسن، وفي حديث صحيح: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة..**» الحديث.

صحيح هو يأمرني أن ألقاه خمس مرات في اليوم، لكن الباب مفتوح للقائه في أي وقت، وأوضحنا - سابقا - ولله المثل الأعلى - هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم - أيوجد فيها عطب ؟ لا. وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات. والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسار أو بوصلة يضعها، أما أنت المخلوق لله وربك وهو غيب يُصلح جهازك بما يراه مناسبًا.

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم، ونقض العهد لا يجعل إنسانًا يثق في وعد إنسان آخر. فينتشر التشكك في نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض، والوعد قد يحل مشاكل الناس المعْسرين، فعندما يقول قادر لغير قادر: أعدك بكذا. ويعطيه ما وعده به، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن يصدقه بعد ذلك. وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق، يصبح صادقًا، وكل ما عند الناس يصبح عنده، ولذلك يقولون: من يأخذ ويعطي يكون المال ماله.

وبعد ذلك تأتي كبيرة قطيعة الرحم: لأن الحق - سبحانه وتعالى - اشتق للرحم اسمًا من اسمه فهو القائل في الحديث القدسي: «**أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**»[1].

ونعلم جميعًا حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له: يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول: إنه أخوك، فيقول معاوية للحاجب: أي إخوتي هو؟ ألا تعرف إخوتي؟ فقال الحاجب: إنه يقول: إنه أخوك. فلما دخل الرجل، سأله معاوية، أأنت أخي؟ قال: نعم. فقال معاوية: وأي إخوتي أنت؟ فقال: أنا أخوك من آدم! فقال معاوية: رحمٌ مقطوعة، لأكونن أول من وصلها.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود وأحمد وغيرهما.

تلك هي الكبائر التي ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهي تمثل ما يمكن أن يكون نقضًا للمجتمع كله من أساسه، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحي المجتمع، وهذا يخالف الإيمان، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعًا عشنا في أمن. والإسلام أيضًا منهج إن اتبعناه جميعًا عشنا في سلام. فيوم تأتي أيها المسلم كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركنًا من الأركان، وحينئذ لا يكون هناك أمان ولا سلام، ولذلك يقول الحق – سبحانه –:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

وعندما ندقق في كلمة ﴿تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ نلتفت إلى أن أصل الفضائل: أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائص بالنواهي؛ ولذلك يقولون: التخلية قبل التحلية.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

و﴿نُكَفِّرْ﴾ أي: نستر. لأن الكفر هو الستر. وقلنا: إن التكفير للذنوب إماطة للعقاب، والإحباط إماطة للثواب.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم.

يقول الحق: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد كان يكفي ألا تعاقب، لكنك حينما تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط، بل يدخلك الله مدخلاً كريمًا، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك في مدخله، فانظر، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله؟.

يقول رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: **أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ

لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[١].

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد، وهو: التوازن بين أفراد الجنس الإنساني، كل هذا الكلام كي يُحفظ الجنس الإنساني مع بعضه، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازنًا ومصالحة إيمانية بين نوعي الجنس الإنساني، و الجنس الإنساني فيه ذكورة وفيه أنوثة.

ونعرف أن كل جنس من الأجناس لا ينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعًا وهذا نوعًا ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين.

إذن: فما دام الجنس الواحد نوعين فلابُدَّ أن يجمعهما في شيء مشترك، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة. والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر، فالذكر والأنثى يشتركان في مطلوبات الجنس، وبعد ذلك ينفردان في مطلوبات النوع، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد. والأفراد أيضًا ليسوا مكررين، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة في مجال كذا أو كذا، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشري.

ومادام الجنس البشري قد انقسم لنوعين، فيكون للرجال خصوصية وللنساء خصوصية. وربنا - سبحانه وتعالى - لا يأتي حتى في البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين في خصائص البنية، صحيح البنية واحدة: رأس وجذع وأرجل، إنما يأتي ويميز بنية كل نوع بشيء، الرجل له شكل مميز، والمرأة لها شكل مميز.

ولذلك فالذين يقولون: نسوي الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم: المرأة لها تكوين خاص، والرجل له تكوينه الخاص، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

مجالات الرجل، وبقيت مجالاتها التي لا يمكن للرجل أن يشاركها فيها، معطلة لا يقوم بها أحد. إذن: فأنت حملتها فوق ما تطيق وأنت مخطئ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى.

إن الحق - سبحانه وتعالى - ساعة يخلق جنسًا، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين، يوضح: تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك، المشترك بين الأنوثة والذكورة، ما هو؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر في عقيدته الإيمانية، الاثنان متساويان فيها، ولا يفرضها واحد على الآخر، وضرب الله - سبحانه وتعالى - لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة في الأمر الأولى للإيمان، وإن اختلفت في الأمر الثانوي للأحكام، فيقول:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

وهذان رسولان، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد. إذن: فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل، ولا أحد تابع لآخر في هذه المسألة أبدًا. ويقول الحق:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

فرعون الذي ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم امرأته على أن تكفر والحق - سبحانه وتعالى - قال فيها:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: ١١].

إذن: ففي مسألة العقيدة الكل فيها سواء، الذكورة والأنوثة، فيها عقل وفيها تفكير.

ولعل المرأة تشير برأي قد يعز على كثير من الرجال. ولنا المثل من زوج رسول الله «أم سلمة» وموقفها في صلح الحديبية فعندما يأتي الرسول ﷺ ليعقد المعاهدة، ويحزن أصحابه ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال: «أنقبل الدنية في ديننا».

فيقول له سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: الزم غرزك يا عمر بن الخطاب إنه رسول الله.

فدخل رسول الله مغضبًا، طبعًا من حمية عمر وحزن الصحابة، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية، لكن رسول الله ﷺ يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها: «**هلك المسلمون، ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي**»؟

فقالت: يا رسول الله: لا تلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبي الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك.

لقد وقع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة. ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله في هذه المسألة، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول: سأبين لكم: أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لا تعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم، وقد تقتلون أناسًا مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أي ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقًا لقول الحق تعالى:

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح: ٢٥].

﴿ لَوْ تَزَيَّلُواْ ﴾ أي: لو تميز المؤمنون في منطقة لعاقبنا الكافرين عقابًا شديدًا. إذن: لقد أوضح لهم العلة، فرضي الكل، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا أم سلمة، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك في قصة بلقيس، لقد فكرت بلقيس في الرجل الآتي ليزلزل ملكها: يا ترى هل هو طالب ملك، فجاء على لسانها في القرآن الكريم:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٢].

فماذا قال القادة؟ قالوا: لا، هذه ليست مسألتنا، وجاء القرآن بقولهم:

﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣ ﴾ [النمل: ٣٣].

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط، يحارب أو لا يحارب، لكن الذي يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال.

نقول لقائد الجند: أنت تنتظر الأمر، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون في عواقب الأمور؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس:

﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾.

لقد وضعواالأمر في رقبتها وهي امرأة، ففكرت: سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين. فأرسلت هدية له، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَـٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ

تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل: ٣٦].

فعرفت بلقيس أن المُلْكَ ليس هدفه، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة، فقالت: أذهب له وأسلم، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت:

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٤٤].

يعني: أنا وهو أصبحنا عبيدًا لله، هذه رفعة الإيمان؛ فلا غضاضة مادامت هي وهو عبيدًا لإله واحد، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأي الحسن أيضًا رمن الأداء الجميل، وهي عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه، لقد تركت العرش في بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها، وكان لابُدَّ أن يلتبس عليها الأمر، وقالوا لها: أهكذا عرشك؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة:

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢].

هي امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر؛ لذلك لا يصلح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر. لكن المهم أن تعلم أن لها حدودًا في إطار نوعيتها، ولا تعتبر النقص في شيء للرجل أنه نقص فيها، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى في البنية يختلف الرجل عن المرأة؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلاة وفيه قوة، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة، ولها عاطفة فياضة، وفيض حنان، والرجل فيه صلابة حزم وعزم. إذن: فكل واحد معدّ لمهمة.

فلا يقولن أحد: أنا ناقص في هذه، لكن انظر غيرك إنه ناقص في ماذا وهو عندك أيضًا كامل.

ويأتي الدين ليوضح: يا مؤمنون. الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث.

الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث. أي تدليل أكثر من هذا؟

لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء، والدين يطلب أن تكون المرأة سكنًا للرجل، فالمفروض أن الرجل هو الذي يتحرك حركة الحياة خارجًا، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه، والذي يصقل السيف ويحده، مثل الشجاع الذي يضرب به تمامًا. كل له عمل يكمل عمل الآخر، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة.



النصيحة الخامسة عشرة:

احرصي على إفشاء السلام

اعلمي - أختي **المسلمة** - أن إفشاء السلام من موجبات الجنّة.

عن الْمِقدام بن شُرَيْح عن أبيه عن جَدِّه ﷺ قال:

قلتُ: يا رسول الله حَدِّثني بشيء يوجب لي الجنّة، قال: «**مُوجِبُ الجنّة: إطعامُ الطّعام، وإفشاء السّلام، وَحُسْنُ الكلام**»(١).

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن أهمية إلقاء السّلام ووجوب الرّد عليه، فقال الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء: ٨٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة، فما معنى: ﴿حُيِّيتُم﴾ ؟ الكلام السطحي الأولي فيها: إذا حياك واحد وقال لك: «السلام عليكم» فعليك أن ترد السلام.

وكان العرب قديمًا يقولون: حياك الله، وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية في اللقاء هي السلام:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

أو كما قال الحق في موقع آخر:

---

(١) قال المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٣٨٥٣): «رواه الطبراني بإسنادين رواة أحدهما ثقات».

﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٦١].

ولنفهم معنى كلمة «حيَّاك»، مادة الكلمة هي «الحاء»، و«الياءان»، ومنها كلمة «حياة» التي منها حياتنا. والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنًى سطحيًّا عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركي وهي أول ظاهرة فينا، وبعد ذلك في الحيوان، وإن ارتقيت في الفهم تجد أن كلمة «الحياة» تنتظم كل أجناس الوجود حتى الجماد، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا في المظهر الحسي والحركي، ولكن لكل كائن حياة تناسبه.

وعندما كانوا يعلموننا في المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتي بقضيب مغناطيسي، ثم نأتي ببرادة الحديد، ونسير به في اتجاه واحد وذلك حتى نرتب الجزئيات ترتيبًا يتناسب مع اتجاه المغناطيسية في القضيب الحديدي، هذا القضيب الذي نراه مادة جامدة في نظرنا، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كي يدرك حركتها.

وحتى يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ، جاءوا بأنبوبة زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب الممغنط ومرّروه بجانب البرادة، فرأى التلاميذ البرادة وهي تتقافز إلى أن تستقر، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير الممغنطة عندما يمر عليها القضيب الممغنط في اتجاه واحد فذراتها تترتب على أساس واضح حتى تصير ممغنطة.

وهذا دليل الحس؛ فقد انقلبت السوالب في جهة والموجبات في جهة، فالقضيب المغناطيسي له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك.

ومثال آخر: لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا،

وعندما يأخذون الصورة من قريب، فهم يرون الحركة، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصير نقطة بعيدة وكأنها ثابتة، وهي ليست ثابتة، وإنما هي متحركة بصورة دقيقة جدًّا لدرجة أنها لا تُدرك، فكل شيء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه، وكل شيء له الحس والحركة الخاصة به، وعندما نأتي للقرآن، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول:

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨].

استثنى القول «وجه الله» أي: ذاته، فكل شيء ماعداه هالك.

ومعنى ﴿هَالِكٌ﴾ أي: ليس فيه حياة، ومادام كل شيء يهلك فهذا دليل أن في كل شيء حياة، حتَّى يأتي الإذن من الحق أن تذهب الحياة من كل شيء إلا وجهه سبحانه، وقد يتساءل إنسان ومَنْ الذي قال: إن كلمة ﴿هَالِكٌ﴾ تعني ليس فيه حياة؟

نقول: إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع في كل آية جزئية تشرح لنا ما خفى علينا في جزئية أخرى كي نفهم أن القرآن متكامل، فيقول الحق:

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فيكون الهلاك ضد الحياة.

ونحن إذا ما نظرنا إلى الصناعات التي نصنعها، وليكن البلاستيك مثلاً، إننا نصنع منه أواني للغسيل أو لخلافه، وأول ما نشتريه للاستعمال نجده زاهي اللون، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون، فما الذي حدث له؟ لقد تغير، ما الذي أحدث التغيير؟

يقال: الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك، إذن: ففيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغير، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات

السنين وأحيانًا بآلاف السنين، وكلما طال عمرها تغير لوها من الحياة والتفاعلات.

وعندما نمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عددًا هائلاً من الغرب الصغيرة، ولا حصر لهذه الغرف، ويقول المؤمن: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فكل شيء في الوجود له حياة تناسبه؛ إذ استقريتها وتتبعتها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التي تستنبط والتي تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس.

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس – وهو الإنسان – المنتفع بكل كائن حي في الكون، هذه حياة تنتهي في ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله، وأراد الله أن يكلفه تكليفًا إن استمع إليه ونفذه فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهي، وعندما نقيس الحياة التي لا تنتهي بالحياة التي تنتهي، فأي منها جديرة بأن تسمى حياة؟ إنها الحياة الأخرى التي لا تنتهي، ولذلك يقول الحق:

﴿وإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

هذه هي الحياة الحقة، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التي تهددك فيها الآفات والآلام والاضطرابات والأسقام والأمراض، وبعد ذلك تنتهي، فيوضح الحق: خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فهذه هي الحياة حقًا، ولذلك فالحق عندما تعرض لهذه المسألة أوضح: إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هي التي أريدها لكم، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه، ولذلك قال:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هو يخاطبهم – إذن – فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لونًا أرقى من الحياة، وهي حياة لا تهددها الآفات ولا الأثقال ولا الأمراض ولا الفناء، إنها الحياة الحقة، ولذلك يسميها الحق «الروح» لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهي فيقول:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢].

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر، ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتي لا تنتهي يسميها الحق «روحًا» أيضًا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه هي التي سوف تعطي الحياة الأرقى، الأولى اسمها «روح» تعطي حياة فانية، والثانية هي «روح» أيضًا، إنها ما أوحى الله به، لأن الناس إذا عملوا به يحيون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر، إذن فقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هي دعوة إلى الحياة الخالدة، والحياة الأبدية السعيدة في الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله في حياته، وإن كانت منتهية.

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأغيار والأسقام والمهيجات، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفي عنه القلق والخوف فكأنه يحسن حياته، وكلمة «حيَّاك الله» أو «السلام عليكم» تعني: «كن آمنًا مطمئنًا» وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان؟!

إذن فكلمة «حيَّاك الله» أو «السلام عليكم» أي الأمان والاطمئنان لك، فأنت لا تعرف هل يجيء القادم إليك بخير أو بشر، لكن ساعة يقول: السلام عليكم، فقد يجعل بهذه التحية الأمان في قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته.

إذن فقوله الحق: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ يعني: إذا ربيتم حياتكم بالتحية التي هي السلام والتي تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية.

فكلمة «تحية» إعطاء لقيمة الحياة، وكذلك كلمة «حيوا» أي أعط من أمامك شيئًا من الحياة المستقرة الآمنة المطمئنة، فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان، ليست حياة.

والشاعر العربي يقول:

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْت ميّت الأحياء

فقول الحق: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ ﴾ أي أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتم بالأمن وبالسلام ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ أي عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها. والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا، قصروا المسألة على تحيات اللقاء، فمن قال لك: السلام عليكم، فقل له: وعليكم السلام ورحمة الله، أي أنك تزيد عليه.

عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «**وعليك السلام ورحمة الله**»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال له الرسول ﷺ : «**وعليك السلام ورحمة الله وبركاته**»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «**وعليك**»، فقال له الرجل: يا رسول الله – بأبي أنت وأمي – أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ، فقال: «**إنك لم تدع لنا شيئًا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ فرددناها عليك**»[1].

وعندما تكلم العلماء في مسألة السلام، صنفوا لها فقالوا: الماشي يسلم على القاعد، والراكب يسلم على الماشي، والصغير يُسلم على الكبير، والمُبصر يسلم على الكفيف، والقليل يُسلم على الكثير، وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء.

وهنا يقول الحق: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ أللنساء تحية؟

نعم. لهن تحية، المرأة تحيي المرأة، والمرأة تحيي زوجها، والمرأة تحيي محارمها،

---

(١) رواه ابن جرير.

والمرأة العجوز التي لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها، أما المرأة الشابة فهي لا تبدأ أحدًا بالسلام ولا ترد السلام، لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها؛ لأنهم يقولون: المرأة على المرأة عين أكثر من ألف رجل، أي أن المرأة تحرس المرأة أكثر من ألف رجل، فعندما تكون معها مثيلتها تحفظها، ولذلك يقال: إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه. لماذا؟ لأن بَدْءَها له إثارة، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضروريًا أن تستجيب، فإن كان معها أحد أو جماعة تُؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام.

وقالوا: وإذا كان الذي يلقي السلام ويبدأه به غير مؤمن؟ النبي ﷺ أوضح أنهم يلوون في الكلام، فإذا قالوا لكم: «السلام» فقولوا: وعليكم.

وذلك يعني إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأهلاً بها وعليهم مثلها، وإن كانت كلمة خبيثة كقولهم: «السام عليكم» فقولوا: «وعليكم»؛ لأن السام معناها: الموت، فلكيلا يستهزئوا بكم، قولوا: وعليكم.

وبعض العلماء قال: المقصود بـ ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي بالنسبة للمؤمن، و ﴿رُدُّوهَآ﴾ بالنسبة للكافر.

لكن أتلك هي التحية فقط؟ إذا كان الذي حيَّاك بقول وأمّنك بقول: فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول نفاقًا، يظهر لك الأمن ثم يقول: السلام عليكم، ومعه الضر؟ كما أن الحق علمنا أن نرد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هي المحك والأساس، فإذا حياك إنسان بخير عنده فعلى المسلم أن يقدم التحية بخير منها، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكارم بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص، ويكون الخير متناميًا، فإذا قدم إنسان خيرًا لإنسان آخر، وردّ عليه بعمل أفضل منه، ففي ذلك نماء للخير، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره، فيكون خير كل إنسان محجوزًا على نفسه؛ لأنه

مادام سيعطي التحية ويأخذ على قدر ما يعطي، فكأنه لم ينقُص من خيره شيء.

والحق سبحانه وتعالى حين يسخِّي النفوس في أن تعطي أكثر مما حييت به، فهذا يبين أن المؤمن في البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره، لأنّه كلما فعل خصلة خير فهي تعود عليه بالخير، ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيرًا من أحد، أعطته خيرًا يناسب قدرها، ليعطي هو خيرًا يناسب قدره، وهذه تحدث كثيرًا خصوصًا مع الملوك.

ومثال ذلك: كان المواطن السعودي يقول للملك عبد العزيز آل سعود: أريد أن تشرب القهوة عندي، ويذهب الملك عبد العزيز آل سعود ليشرب القهوة، ويؤدي لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة، فكل من يحيي الملك يرد عليه التحية بأكثر منها.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ وجاءت كلمة ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها.

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكارمون، فهو يضعها في الحساب؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ فالحساب لا ينتهي عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدي خيرًا منها، ولكن هناك جزاءً أعلى وأفضل عند مليكٍ مقتدر.

وفي تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنا أن كلمة التحية وهي «السلام عليكم» معناها أمان واطمئنان، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطي الحياة بهجة، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة، فكأن إشاعة السلام بقولنا: «السلام عليكم» أو «السلام عليكم ورحمة الله» أو «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» تجعل المجتمع مجتمعًا صفائيًّا، ومادام المجتمع كله مجتمعًا صفائيًّا، فخير أي واحد يكون عند الآخر،

ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن.

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله: «السلام عليكم» بإضافة «ورحمة الله وبركاته» فهو يربط النفس البشرية برباط إيماني بالحق سبحانه وتعالى. وبذلك تتذكر وتعي أن الخلق عيال الله، وسبحانه يحب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ ومن الطبيعي أن نفهم أن رد التحية يعني أن نقول: تحية مثل التي قالها لنا، فالرد ليس مقصودًا به أن نرد التحية نفسها، ولكننا نقول مثلها، فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه.

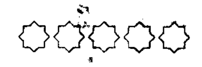
مثال ذلك أن تقول: «لقيت رجلاً فأكرمته»، هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه، مثال آخر: «تصدقت بدرهم ونصفه»، فهل معنى ذلك أنني تصدقت بدرهم ثم استرددته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه؟ لا، إن معنى ذلك هو أنني تصدقت بدرهم، ونصف مثل الدرهم، فإذا قال الحق: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أي ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التي تتلقاها، فإذا ما قيل لك: السلام عليكم فقل: وعليكم السلام.

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين: لا تظنوا أيها المؤمنون أني بخلقي لكم وإعطائي لكم حرية الاختيار في الإيمان أو في الفعل أو في الترك إياكم أن تظنوا أني لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية، فحين آمركم بفعل، فمعناه أنني خلقتكم صالحين أن تفعلوا، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أنني خلقتكم صالحين ألا تفعلوا.

إذن فعندما يأتي أمر؛ فمعنى هذا أن الذي خلقني علم أزلاً بصلاحيتي لتنفيذ هذا

الفعل أو عدم تنفيذه، أي صلاحيتي أن أطيع وأن أعصي، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه: «افعله»، وفعل يقول له فيه: «لا تفعله»، والمخالفات والمعاصي إنما تنشأ من نقل «افعل» في مجال «لا تفعل» ، ومن نقل «لا تفعل» في مجال «افعل»، هذا هو معنى المعصية، والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار، بل لابد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار.

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك، فإنك لن تنقل أمرًا من مجال «لا تفعل» إلى مجال «افعل»، أو من مجال «افعل» إلى مجال «لا تفعل»، فلو أخذت الاختيار لتريح نفسك لحظة وهي فانية، فكيف تتعب نفسك في الباقية؟ فإن أردت أن تكون حازمًا وعاقلاً فلا تفعل ذلك؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقْدِمُ على مثل هذا.



النصيحة السادسة عشرة:

الرِّضا عند حلول البلاء

من علامات الإيمان وحُسن التوكّل: الرّضا عند حلول البلاء بساحات المعيشة.

قال الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير، يكون بالنسبة له حسنة؛ وإذ أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية، إذ تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة، وإن جاء بشر فهو سيئة.

والمصائب نوعان:

- مصيبة للنفس فيها غريم.
- ومصيبة ليس فيها غريم.

فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي، وتتولد في قلبي حفيظ عليه، وغيظ منه، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه، ولكن إن مرضت مثا فمن هو غريمي في المرض؟ لا أحد.

إذن: فالمصائب نوعان:

- نوع لي فيه غريم.

- ونوع لا يوجد لي غريم فيه.

النوع الأول الذي يكون لي فيه غريم يمتلئ قلبي عليه بالحقد، ويُرغبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهنا ثلاث مراحل:

الأولى: كظم الغيظ.

والثانية: هي العفو.

والثالثة: هي أن تحسن؛ فترتقي إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون.

وكذلك يقول الحق:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

أي: من صبر على ما أصابه، وغفر لغريمه وعدوه، فالصبر والمغفرة من الأمور التي تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوِّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام.

أما المصائب التي ليس للإنسان فيها غريم فهي لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس، وإنما تحتاج إلى صبر فقط، إذ لا حيلة للإنسان فيها.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا اللون من المصائب:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

لأن العزم المطلوب هنا أقل، ولذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث في النفس، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه، أي أن الغيظ موجود في القلب، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه، ثم يرتقي المؤمن في انفعاله الإيماني، فيأتي العفو، وهذه مرحلة ثانية وهي أن يُخرِج الغيظ من قلبه، ويحل بدلاً منه العفو. ثم تأتي المرحلة الثالثة:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أي: أن هذا إحسان يحبه الله ويجزي عليه، وهو أن تحسن لمن أساء إليك، فتنال حب الله، وهذا من كمال الإيمان؛ لأن العبيد كلهم عيال الله، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هب أنك دخلت البيت، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثاني، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب، لذلك تُربِّتُ على كتفه وتصالحه، وقد تعطيه مالاً، أو تشتري له شيئًا لترضيه، أي أنك تحسن إليه.

ومادمنا كلنا عيال الله، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف في صف المظلوم. إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك. أفلا يستحق في هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده، والظالم في هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذي حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير.

والحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتي المصائب أن نرد عل الكافرين ونقول:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وهكذا تُرد المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبر أمره؛ فقد يحدث لي شيء أكرهه؛ ولكنه في حقيقة الأمر يكون لصالحي، فإن ضربني أبي لأنني أهمل مذاكرتي، أيكون ذلك عقابًا لي أم لصالحي؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذي سوف تحققه في الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله في كونه بالنسبة للمؤمنين، فإن هُزموا في معركة، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير في دينهم، وإلي أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها، فلهذا انهزموا.

ولله المثل الأعلى، فنحن نجد الأستاذ -وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم -يعاقب المخطئ منهم، وفي هذا تربية للتلاميذ.

إذن إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا، وأن كل شيء مكتوب لنا لا علينا، الذي كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١].

إذن فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير، وأن هناك أحداثًا تتم للتأديب والتهذيب والتربية، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربي إلا من يحب، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته، فما بالنا بحب الخالق لنا؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد في فنائه عددًا من الأولاد يلعبون الورق؛ وبينهم ابنه، فهو ينفعل على الابن، ولكن إذا دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها؛ فهذا من غبائهم؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به، إما أدبًا وإما ثوابًا

وإما ارتقاءً في الحياة، ولذلك فهو خير[1]، ومن هنا كانت الآية الكريمة:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم.

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيدًا؛ فيقول سبحانه: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾، ومادام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى من والاه، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١].

لأن الله الذي آمنت به هو إله قادر حكيم، فإذا جرت عليك أمور فابحثها؛ إن كانت من فعل نفسك، هنا عليك أن تلوم نفسك، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلابد أن تفهم أنها تحدث لحكمة.

والحق سبحانه وتعالى قد يعطى الكافر مقومات حياته، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً. وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقًا.

والحق سبحانه وتعالى حين يخطئ المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله قد تخلى عنا، فهذا ضعف في الإيمان وبالتالي فإنه ضعف في التوكل. ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لايزال مولاك. وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويُصوِّبه لك، فثق به سبحانه وتوكل عليه.

---

(١) عن صهيب الرومي قال: قال رسول الله ﷺ **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**.
أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٩٩)، وغيره.

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنسانًا اتكل عليك في أمر من الأمور، ثم أخطأت أنت في هذا الأمر، لابد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ، وفي هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة بالثقة في هذا الإنسان، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويصوب لنا كل أمر؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح. ولذلك يقال: الجوارح تعمل والقلوب تتوكل. فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها، وهذا من عمل الجوارح لابد أن تؤديه، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل في محصول وفير ينبته الزرع، فلا تأتي آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة، فتضيع كل ما عملته، وبعد إتقانك لعملك يأتي دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك.

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله، فنقول لهم: أنتم كاذبون؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل.

لكن على من نتوكل؟ إنك حين تتوكل على الله الحي الذي لا يموت، فلن يضيع عملك، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة، فقد تنقلب قوته ضعفًا، وقد يُكْرِهُكَ أو يُذلك، وقد تصيبه كارثة فيموت.



النصيحة السابعة عشرة:

أَحْسِني الْجِوار

اعلمي - أختي المسلمة - أن الإحسان إلى الجار من موجبات الجنّة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانةً تُذْكُر مِنْ كَثْرِةِ صَلاَتِها وصَدَقِتها وَصيامِها غير أنها تؤذي جيرانها بِلسَانِها.

قال: «**هي في النار**».

قال: يا رسول الله، فإن فلانة تذكر من قلّة صيامها وصلاتها[1]، وأنها تتصدق بالأثْوار من الأَقِطِ[2]، ولا تؤذي جيرانها.

قال: «**هي في الجَنَّة**»[3].

وفي لفظ: قالوا: يا رسول الله، فلانة تصوم النّهار، وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها.

قال: «**هي في النّار**».

قالوا: يا رسول الله، فلانة تُصَلّي المكتوبات، وتتصدّق بالأَثْوَار من الأَقِطِ ولا تؤذي جيرانها.

قال: «**هي في الجنّة**»[4].

---

(١) يعني: لا تؤدي إلاّ الفرائض كما في الرواية التالية.

(٢) الأثوار: هي قطعة من الأقط، والأقط: هو شيء يُتخذ من مخيض اللّبن الغنمي.

(٣) صحيح: رواه أحمد وغيره، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٩٠).

(٤) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣٦٥٥): رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح.

وها هو الحق سبحانه وتعالى يأمرنا بالإحسان إلى الجار، فيقول:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[النساء: ٣٦]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لقول الله تعالى:

﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾؛ ﴿ وَٱلْجَارِ ﴾ كلمة «جار» تعني: عَدَلَ: كقولنا: جار عن الطريق أي عَدَلَ عنه، فكيف أسمى من في جانبي «جارًا»؟ لأن من في جانبك حدد مكانًا له من دنيا واسعة، فيكون قد ترك الكثير وجاء للقليل، وأصبح جارك، أي أنه عدل عن دنيا واسعة وجاء جانبك، فيسموا الجار لمن جار، أي عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك.

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب، وباليتيم وبالمسكين، للجار حقوق كثيرة؛ لذلك قال النبي ﷺ كما جاء في الحديث:

«الجيران ثلاثة: فجار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقًا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق: فأما الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم»[1].

ويقول ﷺ في حق الجار: **«ما زال جبريلُ يُوصِيني بالجار حتى ظننتُ أنَّه سَيُورِّثه»**[2].

أي: سيجعل له من الميراث، وما هي حدود الجار؟ حدوده: الأقرب بابا إليك،

(١) ضعيف: أخرجه البزّار، وغيره.

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

إلى أربعين ذراعًا، وقالوا: إلى أربعين دارًا، هنا يقول الحق:

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

فأعطاه حق القربى وحق الجوار، وقال:

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.

لأن فيه جارًا قريبًا وجارًا بعيدًا، وقوله: ﴿ٱلْجُنُبِ﴾ أي البعيد، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، ﴿وَٱلصَّاحِبِ﴾ هو المرافق. و ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي بجانبه. قالوا: هو الزوجة أو رفيق السفر؛ لأن الرفقاء في السفر مع بعضهم دائمًا، أو التابع الذي يتبعك طمعًا فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علمًا أو حرفة يريد أن يتعلمها منك؛ فهو الملازم لك، والخادم أيضا يكون ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾ وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة.

وها هو ذا النبي ﷺ يقول لأبي ذر رضي الله عنه: «**يا أبا ذر إذا طبخت مَرَقةً فأكثر مَاءها وتعاهد جِيرانَك**»[١].

والمهم أن تتواصل مع جارك، أو الجار ذي القربى: أي الذي قربته المعرفة، وكثير من الجيران يكون بينهم ود، وهناك جار لا تعرف حتىَ اسمه، فهذا هو ﴿ٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾.



(١) رواه مسلم.

النصيحة الثامنة عشرة:

عليكِ بالتواضع

التواضع: صفة من صفات عباد الرحمن.

قال الحق سبحانه:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾[الفرقان: ٦٣].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«يعطينا الحق تبارك وتعالى صورة للعبودية الحقة، ونموذجًا للذين اتبعوا المنهج، كأنه سبحانه وتعالى يقول لنا: دَعكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي، ونفذوا أحكامي، وصدَّقوا رسولي.

نقول: عباد وعبيد، والتحقيق أن «عبيد» جمع لعبد، وأن «عباد» جمع لعابد، مثل: رجال جمع راجل؛ ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ [الحج: ٢٧] إذن: عبيد غير عِباد.

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد، فكلنا عبيد لله تعالى: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، فمادام يطرأ عليه في حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور، فالعبد الكافر الذي تمرَّد على الإيمان بالله، وتمرَّد على تصديق الرسول، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها.

فهل بعد أن ألِفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إن أصابه؟! أو يستطيع

التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته؟ إذن: فأنت عبد رغمًا عنك، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار.

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذي منحه الله في أن يؤمن أو يكفر، وتنازل عنه لمراد ربه، فاستحق أن يكون من عباد الله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [الفرقان: ٦٣] فنحن وإن كنا عبيدًا فنحن سادة؛ لأننا عبيد الرحمن؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله في الإسراء هي عبوديته لله تعالى، حيث قال: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١] فالعبودية هي علة الارتقاء.

فلما أخلص رسول الله ﷺ العبودية لله نال هذا القُرْب الذي لم يسبقه إليه بشر.

ولذلك وصف الملائكة بأنهم: ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحد تخالف في ظاهر الأمر هذا المعنى الذي قُلْناه في معنى العباد، وهي قوله تعالى في الكلام عن الآخرة: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧].

فقال للضالين: ﴿ عِبَادِى ﴾ وهي لا تُقال إلا للطائعين، لماذا؟

قالوا: لأن في القيامة لا اختيار لأحد، فالجميع في القيامة عباد، حيث انتفى الاختيار الذي يُميِّزهم.

والعلماء يقولون: إن العباد تُؤخَذ منها العبادية، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية؛ العبادية في العباد أن يطيع العابد أمر الله، وينتهي عن نواهيه طمعًا في ثوابه في الآخرة، وخوفًا من عقابه فيها، إذن: جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها.

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم بإحسانه على عبيده إيجادًا من عدم، وإمدادًا من عُدْم، وتربية وتسخيرًا للكون، فالله يستحق بما قدّم من إحسان أن يُطاع بصرف النظر عن الجزاء في الآخرة ثوابًا أو عقابًا.

أما العبودية فهي: ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان، ولا ما أخَّر من ثواب وعقاب، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أن يُطاع، وإن لم يسبق له الإحسان، وإن لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب.

وإن كانت العبودية مكروهة في البشر كما قال أحد الساسة: متى استعبدتم الناس، وقد ولدهم أمهاتهم أحرارًا؟! ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده، وأما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده، فهي عبودية سيادة، لا عبودية قهر.

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام؛ يقول لك: إن أردت أن أذكرك فاذكرني، وفي الحديث القدسي: **«مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»**[1].

وإن كان سبحانه وتعالى يستدعيك إلى خَمْس صلوات في اليوم والليلة، فما ذلك إلا لتأنس بربك، لكن أنت حر تأتيه في أيِّ وقت تشاء من غير موعد، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة ونهايتها وموضوعها... إلخ، فزمام الأمر في يدك.

وقد تعلم سيدنا رسول الله ﷺ خُلق الله، فكان إذا وضع يده في يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذي ينزع يده من يد رسول الله، وهذا أدب من أدب الحق - تبارك وتعالى - إذن: فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن، لا عبودية لجبار.

وأول ما نلحظ في هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلّة، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان، ثم يذكر سبحانه وتعالى صفات هؤلاء العباد، صفاتهم في ذواتهم، وصفاتهم مع مجتمعهم، وصفاتهم مع ربهم، وصفاتهم

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/٢٥١)، والبخاري (٧٤٠٥)، وغيرهما.

في الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء.

أما في ذواتهم، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام: إما قاعد، وإما سائر، ونُخرِج حالة النوم لأنه وقت سكون، أما حال القعود فالحركة محدودة في ذاته، والمهم حال الحركة والمشي، وهذا هو الحال الذي ينبغي الالتفات إليه.

لذلك يوضح لنا ربنا ﷻ كيف نمشي فيقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ يعني: برفق وفي سكينة، وبلين دون اختيال، أو تكبُّر، أو غطرسة، لماذا؟

لأن المشي هو الذي سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة، وهذا الأدب الرباني في المشي يُحدِث في المجتمع استطراقًا إنسانيًّا يُسوِّي بين الجميع.

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وتصعير الخدِّ أن تُميله كِبرًا وبَطَرًا وأصله «الصعر» مرض في البعير يصيب عنقه فيسير مائلاً، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبِّرًا مختالاً فليتكبر بشيء ذاتي فيه، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أنْ تضمنه لنفسك أو تحتفظ به؟!

إن كنتَ غنيًّا فقد تفتقر، وإن كنتَ قويًّا صحيحًا قد يصيبك المرض فيُقعدك، وإن كنت عزيزًا اليوم فقد تذلّ غدًا، إذن: فكل دواعي التكبُّر ليست ذاتية عندك، إنما هي موهوبة من الله، فعلام التكبُّر إذن؟!

لذلك يقولون في المثل: «اللي يخرز على وركه» إنما يخرز على ورك غيره؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتي بالصبي الذي يعمل تحت يده، ويجعله يمدّ رِجْله، ويضع السرج على وركه، ثم يأخذ في خياطته، فرآه أحدهم فَرَقَّ قلبه للصبي فقال للرجل: إنه ضعيف لا يتحمل هذا، فإن أردت فاجعله على وركك

أنت، كذلك الحال، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشيء ذاتي فيه، لا بشيء موهوب له.

والمتكبِّر شخص ضُرِب الحجاب على قلبه، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى، ويرى أنه أفضل من خَلْق الله جميعًا، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحيى أن يتكبر على خَلْق الله، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة، لذلك يقول الناظم:

فَدَعْ كُلَّ طاغِيةٍ للزمَان فَإنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعني: سيرى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه، ويُرغِم أنفه.

ومعنى: ﴿ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨]، «المرح»: الفرح ببطر، و«البطر»: أن تأخذ النعمة وتنسى المنعِم، وتتنعّم بها، وتعصي مَنْ وهبك إياها، إذن: المنهيّ عنه الفرح المصاحب للبطر، وإنكار فضل المنعم، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨].

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشي، فيقول: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩].

وقالوا: إن المراد بالمشي الهَون: هو الذي يسير فيه الإنسان على سَجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبر، لكن دون انكسار وذِلّة، وسيدنا عمر ﷺ حينما رأى رجلاً يسير متماوتًا ضربه، ونهاه عن الانكسار والتماوت في المشية، وهكذا فمِشية المؤمن وَسَط، لا متكبر ولا متماوت متهالك.

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ و«الجاهل»: هو السَّفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخُلُق ولا في الأدب.

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأميّ: «الأميّ»: هو خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب، أما «الجاهل»: فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهودًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من

ذهنه الخطأ، ثم تُدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خاطبك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرَّد عليه فتَسْفَه عليه كما سَفِهَ عليك، بل قرِّعه بأدب وقُل: ﴿سَلَـٰمًا﴾ لتُشعِره بالفرق بينكما.

والحق تبارك وتعالى يُوضِّح في آية أخرى ثمرة هذا الأدب، فيقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي في هذا المعنى:

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ … فَخَيْر مِنْ إجَابَته السُّكُوتُ
فإنْ كلَّمتَه فرجتَ عَنْه … وَإنْ خلَّيْته كَمَدًا يَمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة، وطغى عليك وتجبر، فلابُدَّ لك من رَدِّ العدوان بمثله؛ لأنك حَلُمتَ عليه، فلم يتواضع لك، وظنَّ حِلْمك ضعفًا، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلق، كالشاعر الذي قال:

صَفَحْنَا عَنْ بَني ذُهْل … وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ
عَسَى الأيامُ أنْ يُرْ … جعْنَ قَوْمًا كَالذي كَانُوا
فَلما صرَّح الشَّر فَأمْـ … سَى وَهْو عُرْيَانُ
ولم يَبقَ سوَى العُدْوا … ن دِنَّاهُمْ كمَا دَانُوا
مَشَيْنا مِشْية اللَيْث … غَدا والليثُ غَضْبانُ
بضَرْب فيه توهِينٌ … وتخضِيعٌ وإقْرانُ
وطَعْن كفم الزِّق[1] … غَدا والزِّق مَلآنُ
وفي الشرِّ نجاةٌ حيـ … ـنَ لاَ يُنجيك إحْسَانُ
وبعْضُ الحِلْم عِنْد الجهْـ … ـل لِلذلَّة إذْعَانُ

(١) الزق: السّقاء، وهو كل وعاء اتّخذ لشراب ونحوه.

وللإمام علي كرَّم الله وجهه:

إذَا كُنْــتُ مُحــتاجًا إلى الحِلْــم إنّــني ... إلى الجُهــلِ في بَعْــضِ الأحَــايين أحْوجُ

ولِــي فَــرسٌ لــلحِلْم بــالحِلْم مُلجَمٌ ... وَلِــي فَــرَسٌ لــلجَهْلِ بــالجهْلِ مُسْرَجُ

فَمَــنْ رَامَ تَقْوِيمِــي فَــإني مُقــوِّمٌ ... ومَــنْ رَامَ تَعْوِيجــي فَــإني مُعــوِّجُ

ومعنى: ﴿ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] قالوا: المراد هنا سلام المتاركة، لا سلام الأمان الذي نقوله في التحية «السلام عليكم» فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول، ويتعدى عليك باللسان تقول له: «سلام» يعني: سلام المتاركة.

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ هنا تعني المعنيين: سلام المتاركة، وسلام التحية والأمان، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريه تقول له: لو تماديتُ معك سأوذيك، وأفعل بك كذا وكذا، فأنت بذلك خرجت من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥].

ألم يقُلْ إبراهيم عليه السلام لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ﴾ [مريم: ٤٧].

والمعنى: لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك، وتفاقمتْ بيننا المشكلة» اهـ.

أختي المسلمة:

إن الكبر داء عضال، لا تنفع معه حسنة، مَنْ ابتلي به كرهه الله تعالى؛ قال سبحانه:

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

وحول معنى قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ .

يحدِّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول:

وبعد ذلك يجيء الحق سبحانه وتعالى في ختام الآية بما يدك كبرياء ذي الإحسان، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذي ستبذله يعطيك في نفسك غرور الاستعلاء؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذبًا، وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة، فهذه الأعراض تتغير، ومعنى «أعراض» أنها تأتي وتزول، فالذي يريد أن يستعلي ويستكبر فعليه أن يستعلي ويستكبر بحاجة ذاتية فيه؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله، إنما الأغيار من البشر، فنحن نرى من كان قويًا يصير إلى ضعف، ومن كان غنيًا يصير إلى فقر، ومن كان عالمًا يصبح كمن لا يعلم:

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

فلا كبرياء إذن لمخلوق، ومَن يريد أن يستعلي ويتكبر على غيره فليتكبر - كما قلنا - بحاجة ذاتية فيه، أي: بشيء لا يُسلب منه، والخلق كلهم في أغيار، والوجود الإنساني تطرأ عليه الأغيار، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك: اعمل كذا وأحسن لذي القربى واليتامى والمساكين، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلي بها؛ لأنها موهوبة لك من الله، ومادامت موهوبة لك من الله فاستحِ؛ لأن الذي يتكبر هو الذي لا يجد أمام عينه مَن هو أكبر منه.

هات واحدًا يتكبر لأن عنده مليونًا من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه، ماذا يفعل؟ إنه يستحيي ويتضاءل، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه، لكنه لو ظل ناظرًا إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده.

إذن: فعندما يتكبر المتكبر، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس في باله، لكن لو كان الحق المتكبر بذاته في باله لاستحيى، فإذا كان في بالك مَن يعطيك لاستحييت.

إذن: فمعنى «المتكبر» أن ربنا غائب عن باله، لذلك يقول الحق في ختام الآية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

وما «الاختيال»؟ وما «الفخر»؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة، ولذلك نسمي الحصان «خيلاً»؛ لأنها تتخايل في حركتها، وعندما يركبها أحد تتبختر به؛ ولذلك نسمي الخيلاء من هذه، إذن: «الاختيال»: حركة مرئية، و«الفخر»: حركة مسموعة، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشي بعنجهية، كما نهاه عن أن يسير مائلاً بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدرًا للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه:

﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾ [الحج: ٩، ١٠].

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحكي عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر؛ والخيلاء والفخر ممنوعان، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر، ولماذا جاء الحق بهذا هنا؟

إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته، إنه يحسن مما وهبه الله، ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيدًا؛ لأنك تحسن عليهم، وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم، فلماذا لا تنظر إلى سيادة مَنْ أعطاك؟!

إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك.

يقول الحق:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

التحذير مِن الكِبر:

وقد جاء التحذير من الكبر في آيات كثيرة من القرآن، منها:

قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾

[الإسراء: ٣٧].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية في الأرض؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع له توازنًا اجتماعيًّا.

وأوّل شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعًا عند الله سواء، وكلنا عبيده، وليس منا مَن بينه وبين الله قرابة أو نَسَب، فالجميع عند الله عبيد كأسنان الْمُشْط، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإنْ تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً: هذا غني، وهذا فقير.

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى، وهذا لا يصح، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان، وأن الحصيلة واحدة، وصدق الله العظيم القائل:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ومادام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أن يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

أي: فخرًا واختيالاً، أو بَطَرًا وتعاليًا؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به، ويظن أنه أفضل من غيره، يجب أن يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به، بمعنى أن يكون ذاتيًّا فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه.

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هي هبة يمكن أن تسترد في يوم من الأيام، وكيف الحال إذا تكبَّرتَ بمالك، ثم رآك الناس فقيرًا، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً؟

إذن: فالتواضع والأدب أليَقُ بك، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟!

وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا.

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه، فلينظر إلى العبادات، ففيها استطراق العبودية في الناس، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية: الغني والفقير، والرئيس والمرؤوس، الوزير مثلاً والخفير، الكل راكع أو ساجد، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله، الكل عبيد لله بعد أن خلعوا أقدارهم[1]، عندما خلعوا نعالهم، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج.

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرؤوسه وهو في هذا الموقف وفي هذا الخضوع والتذلُّل، لماذا؟ لأن الخضوع هنا

(١) معنى أقدارهم – هنا – علوّ مكانتهم في الدنيا، فهي من القَدْر لا من القَدَر.

والتذلُّل لله، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة.

ثم يقول تعالى:

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين، ولأصحاب الكبرياء الكاذب: كيف تتكبرون وتسيرون فَخْرًا وخُيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتي فيكم؟!

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرقوا الأرض، بل ستظل صلبة تتحداكم، وهي أدْنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام، وكذلك الجبال وهي أيضًا جماد ستظل أعلى منكم قامة ولن تطاولوها، والحق سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرَّم لِيُبقِي له على التكريم في :

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهي جماد؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه.

والناظر لأجناس الكون: الجماد والنبات والحيوان والإنسان، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس، فالجماد ينفع النبات، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان، والحيوان ينفع الإنسان، وهكذا جميع الأجناس مُسخّرة في خدمة الإنسان، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان؟ ومَنْ تخدم؟

لابُدَّ أن يكون لك دَوْر في الكون ووظيفة في الحياة، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك، فابحثْ لك عن مهمة في الوجود.

وفي فلسفة الحج أمر عجيب، فالجماد الذي هو أدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله، وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ

لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به.

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية في الكون، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر.

وكذلك النبات يحرُم قطعه، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي أخدمها وأُقدِّسها، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح الأصل، ولكي لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْري في الكون كله.

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبوديّ في الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ.



النصيحة التاسعة عشرة:

احْذَرِي أَكْلَ الحرام

اعلمي - **أختي المسلمة** - أن أكل الحلال من موجبات الجنة.

روى الترمذي بإسناد حسن صحيح غريب، والحاكم، وقال: حديث صحيح الإسناد، عن أبي سعيد الخدريّ ﵁ قال:

قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا، وَعَمِلَ في سُنَّة، وأَمِنَ النّاسُ بوائِقه دَخَلَ الجنَّة»**.

قالوا: يا رسول الله، وإنّ هذا في أمتك اليوم كثير؟

قال: **«وسيكونُ في قرونٍ بَعْدي»**.

والذين عبدوا أموالهم وأولادهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، قال تعالى - عن المنافقين نفاق اعتقاد - :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝ ﴾ [التوبة: ٥٥]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

«الله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولادًا، وهذا في ظاهره رفعة في الدنيا، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة في التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله، ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق في العذاب، ولم يُرد الحق العذاب لهم، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا في العذاب، والعمل غير الشرعي في تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذي أوصلهم إلى العذاب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وأول ألوان العذاب: أن تلهيهم تلك النعم عن المنعم، وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون في عداء مع المؤمنين بمنهج الله، ويخافون إعلان هذا العداء؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول ﷺ في طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون ويتساءلون: هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله له بعض خبايانا؟ وكانوافي خوف أن يفتضح أمرهم، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم.

وثانيًا: كانوا يخافون من أن يدخل الرسول ﷺ في حرب؛ لأنهم ماداموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم: ما لنا نبذل المال ونضحي بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به، وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء رسول الله ﷺ طمعًا في الجنة أو النصر، وهذا لون من ألوان العذاب.

وهناك لون آخر من العذاب: عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبي النساء، فيكونون في عذاب نفسي طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء الحرب.

ولون ثالث من ألوان العذاب: أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال، لا يهمه من أين جاء المال؟ ولكن يهمه أن يأتي، والذي يكسب حلالاً يكون واضح الحركة في الحياة، والذي يكسب حرامًا هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس، ويعيش في عذاب أليم دائم من أن يأتي يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى، أو أنه اختلس، أو أنه زَوّرَ وزَيَّف، أو أنه فعل شيئًا يُحقّره في أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة؛ كأن يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض، أو غير ذلك، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر.

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل: أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك، وطلبته منه وأعطاك إياه، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث، ولكن إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألاّ يراك أحد، ولا تدخل من باب الشقة، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذًا تدخل منه دون أن يراك أحد، وتضع خطة للسرقة، وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد، فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجري لتختبئ وتأخذ الشيء وتكون حريصا على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت، وكل هذا عذاب يمر به كل مَن يجمع المال الحرام، إذن فجمع المال الحرام عذاب.

وكل مَن يُربي أولاده مِن مال حرام لا يبارك الله له فيهم، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذابًا لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات، ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي، فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر، ومثل هذا الابن لا يطيع أباه، ويكون العَذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمنًا إيمانًا صادقًا بالله، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره، ويتمرد دائمًا عليه.

وفي عهد رسول الله ﷺ كان أبو عامر عدوًّا لله ورسوله، وكان ابنه حنظلة مؤمنًا، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ، وعندما نودي للقتال، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة، بل سارع إلى الحرب مع رسول الله ﷺ واستشهد في المعركة، ولكن كيف عرف الصحابة قصّة حنظلة، مع أن هذه المسألة تكون سرًّا بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد؟

لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله ﷺ بإشراقات الله أن

الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة، ولما كان الشهيد لا يُغسل، فقد عرف رسول الله ﷺ أن هذا ليس غُسلاً من الشهادة، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقبِلَ الشهيد على الله وهو جُنُب، رأى رسول الله ﷺ ما حدث لحنظلة، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها: ماذا حدث ساعة خروج حنظلة إلى المعركة؟ فقالت: إنه عندما سمع نداء القتال، خرج بدون غُسل، وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيدًا هو ابن عدو لله ورسوله، وكيف يكون هذا غيظًا في قلب الأب.

وقصة أخرى: سيدنا عبد الله بن عبد الله بن أبيّ؛ والده عبد الله بن أبي كان زعيم المنافقين في المدينة، وهو الذي انسحب يوم أُحُد ومعه ثُلث المقاتلين من المعركة، ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله ﷺ يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبيّ، انظروا إلى الإيمان، فها هو الابن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويقول له: يا رسول الله إن كنت آمرًا بقتل أبي فأمرني أنا بقتله؛ حتى لا ألقى قاتله من المسلمين وفي قلبي غِلٌّ عليه، وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون هو قاتله، أليس هذا عذابًا في قلبه؟! وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة، أليس هذا عذابًا في الدنيا؟!

ولكن غير المؤمنون لا يلتفتون إلى واهب النعمة، ولا إلى الجزاء الذي ينتظرهم في الآخرة، ولا يتنبهون إلى حكمة الخلق التي تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون في خدمة هذا الخليفة، أي أنه أقبل على عالم كامل من كل شيء؛ معدًّا له إعدادًا فوق قدراته وطاقاته.

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضرًا، أو ماضيًا أو مستقبلاً، فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول: إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي، والأزلي: هو القديم بلا بداية، والأبد: هو المستقبل بلا نهاية، والحاضر:

هو ما نعيش فيه.

والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة «كن» جاء كل «ممكن الوجود»، لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجود ممكن، وسيأتي له عدم، أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود لا ينتهي، أي أن واجب الوجود هو: وجود الله وحده سبحانه وتعالى، ولذلك فهو وجود أزلي قديم بلا بداية، وأبد باقٍ بلا نهاية، وبذلك فهو يخرج عن الزمن.

نأتي بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة، أي: التي لها مُوجدٌ وهي: وهي كل ما في الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى، ومنها هذه الدنيا التي يعبدها بعض الناس من دون الله، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السموات والأرض، أي: ليس لها وجود بلا نهاية، ولكن كان وجودها ببداية، إذن فهي ليست أزلاً، وهي ليست أبدًا لأنها تنتهي بيوم القيامة.

ولذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا، لأن الله أزل وأبد، والدنيا لا أزل ولا أبد، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هي بمقدار عمره فيها، وقبل ميلاده لا علاقة له بها، وبعد الموت لا علاقة له بها، وحتى إذا أخذنا الدنيا في عمومها فإن لها بداية ونهاية، فكيف يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن حب مَنْ لا بداية له ولا نهاية، وحب من له بداية ونهاية؟! لا يجتمعان.

إذن: فالإنسان والآخرة اشتركا في شيء واحد، ولابد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة؛ فالذي يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئًا له بداية ونهاية، ولكن الذي يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له، والذي عمل للآخرة، عمل لما لا نهاية له أو للذي سيخلد فيه، وتكون فيه حياته الحقيقية.

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

نعرف أن الحياة الحقيقية هي في الآخرة وليست في الدنيا» ا.هـ.

هذا، وقد أمر الله سبحانه المرسلين والمؤمنين أن يأكلوا طيّبًا.

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ : «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ »[البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يُطيل الشّعر أَشْعَث أغبر يمدّ يَدَيْه إلى السّماء يا ربّ، يا ربّ، ومطعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حرام، ومَلْبَسَه حرام، وَغُذِّي بالحرام، فأني يُسْتَجَابُ لِذَلك؟!»[1].

وفي سورة المائدة، قال الحق سبحانه:

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

[المائدة: ٨٨].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

أولا نسأل: ما هو الرزق؟ الرزق هو ما انتفع به. فالذي تأكله رزق، والذي تشربه رزق، والذي تلبسه رزق، والذي تتعلمه رزق، والصفات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هي رزق، وكل شيء ينتفع به يُسمى رزقًا.

ولكن حين يقول الحق: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾، فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان. وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب. إذن فهناك رزق حرام، مثال ذلك اللص الذي يسرق شيئًا ينتفع به، هذا رزق جاء عن طريق حرام، ولو صبر لجاءته اللقمة تسعى

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي.

إلى فمه لأنها رزقه. أو الرزق هو ما أحله الله، وهنا اختلف العلماء وتساءل البعض: هل الرزق هو الحلال فقط والباقي ليس زرقًا؟ وتساءل البعض الآخر: هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حرامًا؟ الحق يقول: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨].

«كلوا ما رزقكم الله» هذا أسلوب، ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا أسلوب آخر. فـ «ما رزقكم الله» أي نأكله كله، وهذه لا تصلح؛ لأننا لا نأكله كله طبعًا بل إننا سنأكل بعضه؛ لأن الذي يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحًا لإيجاد مثله، وإما أن يكون غير صالح لإيجاد مثله، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا ينتج سنبلة قمح، إذن يجب علينا أن نأكل بعضًا ونستبقى بعضًا صالحًا لأن ينتج مثله، فعندما نحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتي بسنابل القمح؛ لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله، وهذا يعني أن نحتفظ بامتداد الرزق، فلو أكل الإنسان كل القمح الذي عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع؟ إذن فاستبقاء الرزق يقتضي أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به امتدادًا رزقيًّا في الحياة.

والرزق الحلال هنا نوعان: ما يصلح لامتداده فيجب احتجاز بعض منه من أجل أن يستخدمه الإنسان في استجلاب رزق آخر. وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً. نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لمن لا يقدر على الحركة، ولذلك نجد الحق في سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: ٤٣].

هنا قال أهل تفسير الرؤيا:

﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: ٤٤].

إنه اضطراب في الجواب؛ لأن كونها أضغاث أحلام أنها لا معنى لها، وقولهم بعد ذلك: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ﴾ فمعنى ذلك أن لها تأويلاً وقد كان لها تأويل، ثم مَن الذي رأى الرؤيا؟ إنه الملك. ويأتي الحق بيوسف مفسرًا للرؤيا، إذن فلا ضرورة أن يكون الرائي مؤمنًا ولا صالحًا.

وقد يقول قائل: كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل؟

ونقول: قد تكون الرؤيا إكرامًا للرائي، وقد تكون الرؤيا إكرامًا للمعبر الذي يعرف التأويل، وهي هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف.

وعرف سيدنا يوسف كيف يفك «شفرة» الرؤيا، والعجيب في الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين، وهنا قال يوسف:

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

أي: كلوا البعض وليكن قليلا قليلا، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد وهن سنين الجدب لتأكلوا فيها ما جمعتموه في سنين الخصب، اتركوا البعض الآخر، لاستمرار النوع، وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح في عصرنا هي أن نتركه في سنابله وكذلك الذرة نتركها في غلافها، وكان تعبير الرؤيا دقيقًا لأنه يريد أن يستبقي للناس حياتهم في زمن الجدب، ويستبقي لهم كذلك الضرع الحيواني، فتأكل الناس الحب، وتأكل الماشية التبن المتبقي، وكذلك ضمن الحق مقومات الحياة لكل ما يلزم للحياة.

ونلحظ أن المأكول في هذه الآية هو القليل، أما الباقي فهو الكثير في سنابله، هذا في أيام الرخاء؛ فماذا عن أيام الجدب؟

﴿ثم يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي أن الناس ستأكل في أعوام الجدب الكثير من الحبوب التي في المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يحصنون في هذه المخازن، وذلك لاستبقاء جزء من القمح للزراعة.

إذن فـ «مِنْ» في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ للتبعيض، أي كلوا بعض ما رزقكم الله، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سببًا لامتداد نوعها فالنوع يكون متصلاً.

مثال ذلك: رجل عنده بذور البطيخ وزرعها، وبعد أن جاءت الثمار أكلها هي والبذور، فمن أين يزرع في العام القادم؟! كان يجب أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذورًا، وكان يجب أن يحتفظ بجزء من البطيخ ليعطي منه الجار أو المحتاج.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ تصلح لاستبقاء النوع وتصلح لصرف الزائد إلى غير القادر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي أنك حين تتقي من تؤمن به إلهًا فليس في ذلك غضاضة؛ لأنك آمنت أنه إله وقوي، والغضاضة في أن تأتمر بأمر مُساوٍ لك، أما الانقياد والائتمار لأمر الأعلى منك، فهذا لا يكون سببًا في الغضاضة إنما هو تشريف لك وتكريم.



النصيحة العشرون:

إيـاكِ وَقَذْفِ المحصنات

اعلمي - أختي المسلمة - أن قذف المحصنات من الموبقات[1].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السَّبْع الموبقات**».

قالوا: يا رسول الله، وما هنّ؟

قال: «**الشّركُ بالله، والسِّحْر، وقتلُ النَّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم، والتولِّي يَوْمَ الزَّحْف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

إن حرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى من حُرمة الكعبة، لذا قال الحق سبحانه في سورة «النور»:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ [النور: ٤]

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - :

«الرمي»: قذف شيء بشيء، و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ جمع «مُحْصنة» من الإحصان وهو الحفظ، ومنه قولنا: «فلان عنده حصانة برلمانية مثلاً» يعني: تكفّل القانون بحفظه؛ لذلك إنْ أرادوا محاسبته أو مقاضاته يرفعون عنه الحصانة أولاً، ومنه أيضًا كلمة «الحصن» وهو الشيء المنيع الذي يحمي مَنْ بداخله.

---

(١) الموبقات: المهلكات.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

يقول تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] يعني: الدروع التي تحمي الإنسان وتحفظه في الحرب.

و﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾: تُطلَق على المتزوجة، لأنها حصَّنَتْ نفسها بالزواج أن تميل إلى الفاحشة، وتطلق أيضًا على الحرة، لأنهم في الماضي كانت الإماء هُنَّ اللائي يدعين لمسألة البغاء، إنما لا تقدم عليها الحرائر أبدًا.

لذلك فإن السيدة هندًا[١] التي نُسيِّدها الآن بعد إسلامها، وهي التي لاكت كبد سيدنا حمزة في غزة أُحُد، لكن لا عليها الآن؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، لما سمعت السيدة هند رسول الله ﷺ ينهى النساء عن الزنا قالت: أوتزني حُرَّة؟ لأن الزنا انتشر قبل الإسلام بين البغايا من الإماء، حتى كانت لهن رايات يرفعنها على بيوتهن ليُعرفْنَ بها.

والمعنى: يرومون المحصنات بما ينافي الإحصان، والمراد الزنا؛ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ وهذا يُسمَّى حدَّ القذف، أن ترمي حُرّة بالزنا وتتهمها بها، ففي هذه الحالة عليك أنْ تأتي بأربعة شهداء يشهدون على ما رميْتها به، فإن لم تفعل يُقام عليك أنت حَدُّ القذف ثمانين جلدة، ثم لا ينتهي الأمر عند الجَلْد، إنما لا تُقبل منك شهادة بعد ذلك أبدًا.

﴿ وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ﴾. لماذا؟

لأنه لم يَعُدْ أهلاً لها؛ لأنه فاسق ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ والفاسق لا شهادةَ له، وهكذا جمع الشارع الحكيم على القاذف حَدَّ الجلْد، ثم أسقط اعتباره من المجتمع بسقوط شهادته، ثم وصفه بعد ذلك بالفسق، فهو في مجتمعه ساقط الاعتبار ساقط الكرامة.

---

(١) هي: هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان بن حرب - رضي الله عنهما - .

هذا كله ليزجر كل مَنْ تسوِّل له نفسه الخوْضَ في أعراض الحرائر واتهام النساء الطاهرات؛ لذلك عبَّر عن القَذْف بالرمي؛ لأنه غالبًا ما يكون عن عجلة وعدم بينة، فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ مجتمع الإيمان من أن تشيع فيه الفاحشة، أو مجرد ذكرها والحديث عنها.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾

اختلف العلماء في معنى الاستثناء هنا: أهو استثناء من الفِسْق؟ أم استثناء من عدم قبول الشهادة؟

ذكرنا أن مشروعية التوبة منَّة وتكرُّم من الحق تبارك وتعالى لأنه لو لم تشرّع التوبة كان مَنْ يقع في معصية مرة، ولا تُقبل منه توبة يتجرأ على المعصية ويكثر منها، و لم لا؟ فلا دافع له للإقلاع.

إذن: حين يشرّع الله التوبة إنما يحمي المجتمع من الفاقدين الذين باعوا أنفسهم، وفقدوا الأمل في النجاة، فمشروعية التوبة كَرَم، وقبولها كرم آخر، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ ﴾ [التوبة: ١١٨]. أي: شرّع لهم التوبة ليتوبوا فيقبل منهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ [النور: ٥]، تدل على أن مَنْ وقعت منه سيئة عليه أن يتبعها بحسنة، وقد ورد في الحديث الشريف: «**وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها...**»(١). لذلك تجد الذين أسرفوا على أنفسهم في ناحية ما، حينما يكبرون ويُحبّون التوبة تراهم شغوفين بحُبِّ الخير وعمل الطاعات، يريدون أن يُكفِّروا بها ما سبق من السيئات، على خلاف مَنْ حافظ على نفسه، ونأى بها عن المعاصي، فتراه باردًا من

---

(١) حسن: وهو جزء من حديث أخرجه الترمذي في «سننه» (١٩٨٧)، وغيره.

ناحيتها يفعل الخير على قَدْر طاقته.

وكأن الحق تبارك وتعالى يُحذِّر عباده: يا عبادي احذروا مَنْ أخذ مني شيئًا خِلْسة أو ترك لي حكمًا، أو تجرأ عليَّ بمعصية سيتعب فيما بعد، ويلاقي الأمرَّيْن؛ لأن السيئة ستظل وراءه تطارده وتُجهده لأغفرها له، وسيحتاج لكثير من الحسنات وأفعال الخير ليجبر بها تقصيره في حَقِّ ربه.



النصيحة الحادية والعشرون:

الزَّواجُ.. عِفَّة.. وَطَاعة

الزواج في الإسلام لا يُراد منه بقاء النوع الإنساني فقط، بل هناك ما هو أهمّ من ذلك، ألا وهو بقاء النوع الإسلامي.

كما أنه - أي الزواج - عفّة، وطاعة.

وحول هذا الموضوع يحدّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - فيقول عقب قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

[محمد: ٣٦، ٣٧].

أنا لا أسألكم أموالكم، لأني إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون، لأن مالكم عائد من أعمالكم، ويقول الحق: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴾ وإذا ظهر وخرج الضغن في المجتمع فالويل للمجتمع كله؛ ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن في المجتمع كله، وساعة يبرز الضغن في المجتمع، انتهى كل شيء جميل، ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة.

وضع أسسًا للضعيف بما يحميه، وكذلك للنساء اللاتي كن محرومات من الميراث قبل الإسلام، وجعل الحق سبحانه وتعالى لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدودًا ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ وإياكم أن تتعدوا هذه الحدود؛ لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود، فلابُدَّ أن يكون من أهل النار - والعياذ بالله - فقد وضع الله تلك القواعد

لاستبقاء حياتك وحياة مَن تعول.

وهناك لون آخر من الاستبقاء، هو استبقاء النوع، لأن للإنسان عمرًا محدودًا في الحياة وسينتهي؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع في غيره، كيف؟ نحن نتزوج كي يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات، وهذا استبقاء للنوع الإنساني.

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريمًا؛ لذلك يأمرنا الحق - سبحانه - أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر، فإياك أن تستبقي نوعًا من وعاءٍ خبيثٍ نجس، اختلطت فيه مياه أناس متعددين، فلا يدري أحد لمن ينسب الولدَ فيصير مضيعًا في الكون، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة.

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج، فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجًا أمام أعين الناس جميعًا، ويصير معروفًا للجميع أن هذه امرأة هذا، وهذا زوجها، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت.

وما ينشأ من الذرية بعد ذلك يكون قطعًا منسوبًا إليه. ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينًا أو عاريًا أو جائعًا أو غير معترف به؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانًا مستوفيًا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلا: جئت من أين؟ أو مَن أبوك؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلاً طوال عمره. فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعي.

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة في الكون، فالتي تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعي كأم ألا تلقى ابنها الوليد في البحر بل أمام مسجد؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعي ولذلك ترمي الأم الزانية

بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونًا عليه.

وهي لا تلقي بوليدها عند خَمَّارة أو دار سينما، ولكن دائمًا تضعه عند أبواب المساجد، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعي في مثل هذا المكان؛ لأنها تخاف عليه، لذلك تلفه وتضعه في أحلى الملابس، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضًا من المال؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك، والحياء من الذنب هو الذي يجعلها تتخلص من هذا الطفل.

إنها - كما قلنا - تحتاط بأن تضعه في مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب، يأخذه ويكون مأمونًا عليه، إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمي في دين الله؛ وهذا شيء عجيب.

والله يريد أن يبني بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد في البيوت؛ لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجًا أمام أعين الناس. ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله.

وأضرب هذا المثل: نحن نجد الرجل الذي يحيا في بيت مطل على الشارع وله ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها، ولو عرف الرجل أن شابًّا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلي الرجل بالغيظ والغَيْرة.

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها، ويبارك للأم ويأتي بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران[1]، فما الفرق بين الموقفين؟

---

(١) الأولى أن يُقَال: عقد النِّكاح.

لماذا يغضب الأب من الشاب الذي يتلصص؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله، أما الشاب الذي جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردًا وسلامًا، وبعد ذلك يتسامى الأمر، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها.

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول ﷺ: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء فإنهن عَوانٍ في أيديكم**[١] **أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[٢].

ومادام الله هو الذي خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب: «أريد أن أتزوج ابنتك»، بردًا وسلامًا على قلب الأب، ويكون الفرح والاحتفال الكبير؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر. والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنساني استبقاءً نظيفًا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة، ولا يخجل منه المولود نفسه، ولا يُذَم في المجتمع أبدًا، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع.

واستبقاء النوع هو الذي تأتي من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالاً على علم الناس ويعرفها الجميع.

وقد سألني سائل وأنا في الجزائر: لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات نحو: «زوجتك موكلتي» أو تقول هي: «زَوَّجْتُك نفسي» ويقبل الرجل، وتنكسر العلاقة بكلمة «أنتِ طالق»؟ وأجبته: لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة.

---

(١) عوان: أسيرات.

(٢) أخرجه ابن ماجه والنسائي.

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التي تقدمت، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التي تأتي، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب، والإخصاب يعني أن يأتي الحيوان المنوي من الذكر لبويضة الأنثى كي ينشأ التكاثر، والتكاثر في غير الإنسان يتم بعملية قسرية.

ففي الحيوانات نرى الأنثى وهي تجأر بالصوت العالي عندما تنزل البويضة في رحمها كالبقرة مثلاً، حتى يقول الناس جميعًا: إن البقرة تطلب الإخصاب، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ، ولا تمكن فحلاً آخر منها من بعد ذلك، وهكذا يتم حفظ النوع في الحيوانات.

أما في النباتات، فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال. ونحن نعرف بعضًا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات، وقد يعرفها المتخصصون فقط، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة في عود واحد كالذرة مثلا؛ فالأنوثة توجد في «الشراشيب» التي توجد في «كوز» الذرة، وعناصر الذكورة توجد في السنبلة التي يحركها الهواء كي تنزل لتخصب الأنوثة. وكذلك القمح. وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال؟!

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها، لكن لابد من أن تتلاقح إخصابًا لينشأ التكاثر، فيوضح ربنا: اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات، والنبات الذي يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعًا من الحشرات غذاؤها في مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها، حشرة يجذبها اللون الأحمر، وحشرة يجذبها اللون الأبيض؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة، وهذه العملية تحدث ولا ندري عنها شيئًا.

من الذي يلقح؟ من الذي يعلمها؟ إنه الله القيوم الذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، فاستبقى لنا الأنواع غريزيًّا وقسريًّا، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئًا، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح، ولذلك يقول الحق:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢].

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدي كل كائن وظيفته وتنتهي المسألة، لكن حين كان لك اختيار، وتوجد مشقات كثيرة في الإنجاب وحفظ النوع، فقد قرن – سبحانه – حفظ النوع بالمتعة، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل، فلابد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك.

إذن فإياك أن تلقي حيوانك المنوي إلا في وعاء نظيف، محسوب لك وحدك كي لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب، ولكيلا يكون مهينًا ولا مدنسًا في حياته؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها.

ولذلك – فسبحانه – سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق، أو الرجل يكتفي بالرجل باللواط للمتعة، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله، فعندما تنتفع امرأة مع امرأة، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع، نقول لها: أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معًا، فيوضح سبحانه أنه لابد أن تكون المتعة في ضوء منهج الله.

۞۞۞۞۞

النصيحة الثانية والعشرون:

حافظي على الصلاة

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - :

وبعد أن جعل الله للإسلام أركانًا، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان، فأركان الإسلام هي: الشهادة؛ والصلاة؛ والصوم؛ والزكاة؛ والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدي الصلاة، ولكنه قد لا يملك مالاً؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة.

وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم، فيعفيه الله من الصوم، وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج، أما شهادة «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» فقد لا يقولها المسلم في العمر إلا مرة واحدة، ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبدًا مادامت فيه الصلاحية لأدائها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة»**[1].

ولأن الصلاة هي الركن الذي لا يسقط أبدًا فقد جمع الله فيها كل الأركان، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألاّ إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضًا، وهكذا نجد الصلاة أوسع في الإمساك عن ركن الصيام، فالإنسان وهو يقيم الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم، فالصوم - مثلاً - لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أي مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدي الله.

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي وأحمد.

إذن: فالصلاة تأخذ إمساكًا من نوع أوسع من إمساك المؤمن في الصيام، والزكاة هي إخراج جزء من المال، والمال يأتي به الإنسان من الحركة والعمل، والحركة والعمل تأخذ من الوقت، وحين يصلي المسلم فهو يزكي بالأصل، إنه يزكي ببذل الوقت الذي هو وعاء الحركة، إذن ففي الصلاة زكاة واسعة.

والحج إلى البيت الحرام موجود في الصلاة؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة في كل صلاة، هكذا.

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان، فلم تشرّع بواسطة الوحي، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد ﷺ .



النصيحة الثالثة والعشرون:

احذري التبذير

التبذير: إعلان حرب على نعمة الله تعالى، لذا نهى الإسلام عنه.

قال الحق سبحانه:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[الإسراء: ٢٦، ٢٧].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهاتين الآيتين:

الحق سبحانه بعد أن حثَّن الإنسان على والديه صعَّد المسألة فحثَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه، فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؛ ﴿حَقَّهُۥ﴾ لأن الله تعالى جعله حقًّا للأقارب إن كانوا في حاجة، وإلا فلو كانا غير محتاجين، فالعطاء بينهما هدية متبادلة، فكل قريب يُهادي أقرباءه ويهادونه، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيع في المجتمع روح التكافل الاجتماعي.

لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زكاة تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده، كأنه سرقه؛ لأن الله تعالى أسماه «حقًّا» فمَنْ منع صاحب الحق من حقه، فكأنه سرق منه.

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك، لأنهم في بلاد ترف وغنى، فتشدّدوا في هذه المسألة؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها.

لذلك، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد، وقال: لقد حلفتُ يمينًا، وأرى أن أُكفِّر عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام، فقال أحدهم: لقد ضيّقتَ واسعًا فقد شرع

الله للكفارة أيضًا إطعام عشرة مساكين أو كسوهم أو تحرير رقبة، فرد عليه المنذر قائلاً: أومثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوهم؟! إنه يفعل ذلك في اليوم لألف وأكثر، وإنما يزجره الصوم، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة، ويُؤثِّر في رَدْعه وزَجْره.

وكلمة «حق» وردت في القرآن على معنيين:

الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ [المعارج: ٢٤].

والحق المعلوم هو: الزكاة، أما الحق الآخر: فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف، وهو التطوع والإحسان، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فرضه عليك، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝ ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٩].

ولم يقل: «معلوم» لأنه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله علينا.

ويجب على مَن يُؤْتِي هذا الحق أن يكون سعيدًا به، وأن يعتبره مَغْنمًا لا مَغْرمًا؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها، فالصحيح قد يصير سقيمًا، والغني قد يصير فقيرًا وهكذا، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك في المستقبل، وضمان لأولادك من بعدك، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غدًا، إن دارت عليك الدائرة.

إذن: فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف، وتعلم أن حقك محفوظ في المجتمع، وكذلك إن تركت أولادك في عوزٍ وحاجة، فالمجتمع مُتكفِّل بهم.

وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ

ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء: ٩].

ولذلك، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم، ويُعطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحسانًا.

و﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ هو الذي يملك وله مال، لكن لا يكفيه، بدليل قول الحق سبحانه: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ [الكهف: ٧٩].

أما «الفقير» فهو الذي لا يملك شيئًا، وقد يعكس البعض في تعريف المسكين والفقير، وهذا فهم خاطئ.

﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٦]؛ «السبيل»: هو الطريق، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده، فنقول: «ابن القاهرة، وابن بور سعيد» فإن كان منقطعًا في الطريق وطرأت عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة، وإن كان في الحقيقة صاحب يسار وغنى، كأن يضيع ماله فله حق في مال المسلمين بقدر ما يُوصّله إلى بلده.

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله، لأن له حقًّا واجبًا فلا تجعله في وضع مذلّة أو حرج.

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

فالتبذير هو الإسرف، مأخوف من «البذر»، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التي يريد زراعتها، وينثرها بيده في أرضه، فإذا كان متقنًا لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها، وتكون المسافة بين البذور متساوية.

وبذلك يفلح الزرع ويعطي المحصول المرجو منه، أما إن بذرَ البذور بطريقة

عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة، فهي كثيرة في مكان، وقليلة في مكان آخر، وهذا ما نُسمِّيه تبذيرًا، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فيُعاق نموّها.

لذلك، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ «التبذير»؛ لأنه يضع المال في غير موضعه المناسب؛ وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم، في حين يمسك في الشيء الضروري.

إذن: «التبذير» صَرْف المال في غير حِلّه، أو في غير حاجة، أو ضرورة.

والنهي عن التبذير هنا يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء، يعني حينما تعطي حَقّ الزكاة، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطي أكثر مما يجب عليك، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد في عطائك، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلو إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف.

وقد يكون المعنى: أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل، ولكن لا تُبذِّر في الأمور الأخرى، فالنهي هنا لا يعود إلى الإيتاء، بل إلى الأمور التافهة التي يُنفَق فيها المال في غير ضرورة(١).

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

كلمة «أخ» تُجمع على إخوة وإخوان.

وإخوة: تدلّ على أخوّة النسب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٥٨].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره» (٥/٣٩٧٦): «مَن أنفق ماله في الشهوات زائدًا على قدر الحاجات، وعرَّضه بذلك للنفاد فهو مبذر، ومَن أنفق ربح ماله في شهواته وحفظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذر، ومَن أنفق درهمًا في حرام فهو مبذر، ويُحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد» ا.هـ.

وتدل أيضًا على أخوة الخير والورع والتقوى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨].

والمقصود: هارون أخو موسى - عليهما السلام - وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً، ومع ذلك سماها القرآن «إخوة» أي أخوّة الورع والتقوى.

أما «إخوان» فتدل على أن قومًا اجتمعوا على مبدأ واحد، خيرًا كان أو شرًّا، فقد تدلّ على الاجتماع في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقد تدل على الاجتماع في الشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة، ووُدٍّ واحد، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر.

إذن: كلمة «إخْوَة» تدل على أُخُوّة النسب، وقد تتسامى لتدل على أُخوّة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر.

ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخوين من أسرة واحدة هما «مصعب بن عمير» بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه «أبو عزيز» وكان ما يزال كافرًا، وخرج مع جيش الكفار من مكة، والتقى الأخوانِ: المؤمن والكافر.

ومعلوم أن مصعب بن عمير كان من أغنى أغنياء مكة، وكان لا يرتدي إلا أفخر الثياب وألينها، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلّل مكة، ثم بعد أن آمن تغيّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم، ثم بعثه الرسول ﷺ إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم، وفي غزوة أُحُد رآه رسول الله ﷺ يرتدي جلد شاة،

فقال: «**انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم**»(١).

فماذا حدث بين الأخوين المؤمن والكافر؟ وأيّ الصلات كانت أقوى، صلة الإيمان بالله، أم صلة النسب؟

لما دارت المعركة نظر مصعب، فإذا بأخيه وقد أسَرَهُ أحد المسلمين اسمه «أبو اليَسَر» فالتفت إليه، وقال: يا أبا اليَسَر اشدد على أسيرك، فأُمّه غنية، وسوف تفديه بمال كثير.

فنظر إليه أبو عزيز وقال: يا مصعب، أهذه وصاتك بأخيك، فقال له مصعب، هذا أخي دونك.

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوّة النسب، وصدق الله تعالى حين قال:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

قوله: ﴿ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٧].

أي: أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين في صفة واحدة هي التبذير والإسراف، فإن كان المبذّر قد أسرف في الإنفاق ووَضْع المال في غير حِلّه وفي غير ضرورة، فإن الشيطان أسرف في المعصية، فلم يكتف بأن يكون عاصيًا في ذاته، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله:

﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.

ليس كافرًا فحسب، بل ﴿ كَفُورًا ﴾ وهي صيغة مبالغة من الكفر؛ لأنه كَفر وعمل على تكفير غيره.

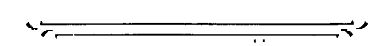
✧✧✧✧✧

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٠٨) بلفظ: «**انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوّر الله قلبه، لقد رأيتُهُ بين أبوين يغذوانه بأطيب الطّعام والشراب**».

النصيحة الرابعة والعشرون:

الاقتصاد واجب



وإذا كان الحق سبحانه قد نهانا عن التبذير، فقد نهانا أيضًا عن التقتير، قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

تحدّث الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة عن المبذِّرين[1]، وحذّرنا من هذه الصفة، وفي هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾.

واليد عادة تُستخدم في المْنح والعطاء، نقول: لفلان يد عندي، وله عليَّ أيادٍ لا تُعَد، أي: أن نعمه عليَّ كثيرة، لأنها عادة تُؤدّى باليد، فقال: لا تجعل يدك التي بها العطاء ﴿مَغْلُولَة﴾ أي: مربوطة إلى عنقك، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك.

وفي المقابل: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾.

فالنهي هنا عن كل البَسْط، إذن: فيُباح بعض البسْط، وهو الإنفاق في حدود

(١) تقدّم تفسيرها قبل قليل.

الحاجة والضرورة. وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذي سبق الحديث عنه.

فبذَّر: أخذ حفنة من الحبِّ، وبَسَط بها يده مرة واحدة، فأحدثتْ كومة من النبات الذي يأكل بعضه بعضًا، وهذا هو التبذير المنهيّ عنه، أما الآخر صاحب الخبرة في عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذي يسمح بتفلت حبات التقاوي واحدة بعد الأخرى، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أي «بَذَرَ».

وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم، وهو الوسط، وكلا طرفيه مذموم.

وقد أتى هذا المعنى أيضًا في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

أي: اعتدال وتوسُّط.

إذن: لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك، ولكن بعض البَسْط الذي يُبقِي لك شيئًا تدخره، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقيَ بحياتك.

وقد سبق أن أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق..

وقلنا: إن الإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويُسهِم في إنمائها ورُقيّها، على خلاف القَبْض والإمساك، فإنه يُعرقِل حركة الحياة، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعوق حركتها.

إذن: لابُدّ من الإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولابُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِي على شيء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقي به، وترفع من مستواك

المادي في دنيا الناس.

فالمبذر والمسْرف تجده في مكانه، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقِي على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي.

ثم تأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير:

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وسبق أن أوضحنا أن وضَعْ القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء.

وكلمة ﴿فَتَقْعُد﴾ تفيد انتقاص حركة الحياة، لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها، لذلك قال تعالى:

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٩٥]..

﴿مَلُومًا﴾ أي: أتى بفعل يُلاَم عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادُه وأهلُه، وكذلك الممسك البخيل، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن.

﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: نادمًا على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة، أو من قولهم: بعير محسور. أي: لا يستطيع القيام بحمله. وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته، أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده.

فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت مَلُوم، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسورًا عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها.

إذن: فكلا الطرفين مذموم، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع. إذن: فما القصد؟

القصد أن يسير الإنسان قوامًا بين الإسراف والتقتير، كما قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧].

فالقرآن يضع لنا دستورًا حاسمًا وَسَطًا ينظّم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع، فابْسُط يدك بالإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء، لكن ليس كل البسط، بل تُبقِي من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك، لا تتفاعل معه، ولا تُسهم في إثراء حركته.

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التي لا تنفد، وهو القائل:

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦].

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه.



النصيحة الخامسة والعشرون:

لا تَفْصِلِي بين الصّلاة والسّلوك

سُئل الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – : ما حكم الإسلام في امرأة مسلمة ملتزمة بتكاليف العقيدة ومنهج الإسلام لكنها تنزل الشارع سافرة حاسرة الأعضاء؟

فأجاب – رحمه الله تعالى:

على الفتاة التي تزعم أن الدين يحجر عليها في لباسها وفي زينتها وفي حياتها أن تعلم جيدًا أنه كيف أراد الدين أن يؤمِّن شيخوختها في الهرم وعند سن اليأس إذ أن أول صدمة تقع في كيان المرأة عند سن اليأس عندما تنقطع عنها الدورة الشهرية، وفي هذه الأوقات الحرجة لما تذوى نضارة المرأة ويخبو جمالها نراها محتاجة إلى عطف زوجها وحنانه وبره. وهي ضعيفة مسكينة، كثيرة التفكير في المصير المؤلم من ناحية أخرى لأنها لم تعد تشبع غرائز الزوج.

فعلى الفتاة أن تعلم أن الإسلام إنما أراد أن يؤمن هذه الشيخوخة الذابلة المنهكة وأن يدفع إليها البشر والتفاؤل والإيمان.

فعلى هذه الفتاة أن تعلم أنها لن تظل جميلة طوال عمرها ولا فاتنة ساحرة مدى حياتها... فإذا ما ذبلت تلك الزهرة بتقدم العمر وانمحت نضارتها واعتصرت محاسنها... ولم تعد تصلح لإثارة غرائز الزوج وهي ليست في مستوى الإهاجة ونزل إلى الشارع فرأى فتاة في خير عمرها، وفي كامل زينتها ورونقها جرت شهوته إلى غمار المقارنة بين ما ينظر في الشارع وما يراه في البيت وبين هذا وذاك تتكالب عليه الهموم والحسرات، ولا تعتقد أن هذه المقارنة ستسر أي امرأة.

فنظرة الرجل في الشارع إلى حسن ظاهر ساخر مبتذل تبدد رصيد الحب بينه وبين زوجته، ولو لم ير في الشارع لما التهبت مشاعره، ولا تنبهت غرائزه، من هنا تنحل الأسرة الزوجية، وتفكك المودة العائلية.

فاعلمي أيتها الفتاة أن الذي منعك منع من أجلك، والذي منع منع ليحافظ عليك.

ويضيف - رحمه الله - فبمقدار ما أغوت امرأة رجالاً بمقدار ما زهد فيها رجال، وبمقدار ما رغب فيها أناس بمقدار ما رغب عنها أكثر منهم، وبمقدار ما استمالت من نفوس فإن الله يذل آخرها في الدنيا، بأن ينصرف الكل عنها انصرافًا مزريًا محتقرًا. والذي كان يتمنى أن يحظى بنظرة واحدة لو رآها لبصق عليها.



النصيحة السادسة والعشرون:

احذري الإجهاض

الإجهاض لغير ضرورة شرعيّة: من أكبر الذنوب، لأنه كما قال الإمام الغزالي – رحمه الله – : تعدّي على موجود حاصل.

وقد حذّر الحق – سبحانه وتعالى– منه في قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

الخالق سبحانه يُحذّرنا: إياكم أنْ تُدخِلوا مسألة الرزق في حسابكم، لأنكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم.

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود، وما دام هو سبحانه الذي خلق، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع، فإياك أنْ تتعدّى اختصاصك، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾..

القتل: إزهاق الحياة، وكذلك الموت. ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته.

فالقتل: إزهاق الحياة بنَقْض البِنية: لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى، وهي أجهزة الجسم، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة.

فإذا ضرب إنسانٌ إنسانًا آخر على رأسه مثلاً، فقد يتلف مُخّه فتنتهي حياته، لكن تنتهي بنقض البنية التي بها الحياة، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح.

أما الموت: فيبدأ بمفارقة الروح للجسد، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك. وتتلَفُ أعضاؤه، فالموت يتم في سلامة الأعضاء.

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة: من مُولّد أو مصدر للكهرباء، وسلك مُوصّل ولمبة كهرباء، فإذا كُسرَتْ هذه اللمبة يذهب النور، لماذا؟

لأنك نقضتَ شيئًا أساسيًّا في عملية الإنارة هذه. وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح، لأنك نقضْتَ عنصرًا أساسيًّا من بنية الإنسان، ولا تستمر الروح في جسده بدونها.

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت- ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد- لكن توجد عقوبة على القَتل.

إذن: المنهي عنه في الآية القتل، لأنه من عمل البشر، وليس الموت. وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران:١٤٤].

فالقتل غير الموت، القتل اعتداء على بِنية إنسان آخر وهَدْم لها.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْلَـٰدَكُمْ ﴾.

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى، ولكن المشهور في استقصاء التاريخ أنهم كانوا يَئدون البنات دون الذكور، وفي القرآن الكريم:

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨، ٩].

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْنًا وعُدّةً في مُعْترك الحياة، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض، كما يَرَوْن فيهم العزْوة والامتداد. في حين يعتبرون البنات مصدرًا للعار، خاصة في ظلّ الفقر والعَوَزِ والحاجة، فلربما يستميل البنت ذو غِنىً إلى شيء من المكروه في عِرْضها، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضًا.

وقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

أي: خَوْفًا من الفقر، والإملاق: مأخوذة من مَلَق وتملّق، وكلها تعود إلى الافتقار، لأن الإنسان لا يتملّق إنسانًا إلا إذا كان فقيرًا لما عنده محتاجًا إليه، فيتملّقه ليأخذ منه حاجته.

وقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وفي هذه الآية مَلْمح لطيف يجب التنّبه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض.

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾.

أي: خَوْفًا من الفقر، فالفقر- إذن- لم يَأْتِ بعد، بل هو مُحْتمل الحدوث في مستقبل الأيام، فالرزق موجود وميسور، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل، لذلك جاء الترتيب هكذا:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾.

أولاً: لأن المولود يُولدَ ويولد معه رزقه، فلا تنشغلوا بهذه المسألة، لأنها ليستْ من اختصاصكم.

ثم: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ .

أي: أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم. ويمكن أن يُفهَم المعنى على أنه: لا تقتلوا أولادكم خَوْفًا من الفقر، فنحن نرزقكم من خلالهم، ومن أجلهم.

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة، لأن أعداء الدين الذين يُنقِّبون في القرآن عن مَأْخذ يروْنَ تعارضًا أو تكرارًا بين هذه الآية التي معنا وبين آية أخرى تقول:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ونقول لهؤلاء: لقد استقبلتم الأسلوب القرآني بغير المَلَكَة العربية في فَهْمه، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة، بل هو أسلوب بليغ يحتاج في فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسٍّ لُغويٍّ.

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليمًا فلن تجدوا فيه تعارضًا ولا تكرارًا، فليست الأولى أبلغَ من الثانية، ولا الثانية أبلغ من الأولى، بل كل آية بليغة في موضوعها، لأن الآيتين وإنْ تشابهَتَا في النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق في المعنى كبير، فآية الإسراء تقول:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب: نرزقهم وإياكم.

أما في آية الأنعام:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾..

فلابُدَّ أن نلاحظ أن للآية صدرًا وعَجُزًا، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر، بل لابُدَّ أن تجمع في فَهْم الآية بين صدرها وعجزها،وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أي إشكال.

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَيْ الآيتين، وأغفلوا صَدريهما، ولو كان الصدر واحدًا في الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه، ولكنْ صَدْري الآيتين مختلفان:

الأولى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ .

والأخرى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾.

والفرْق واضح بين التعبيرين: فالأول: الفقر غير موجود، لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث، ولكنه مُتوقَّع في المستقبل، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو، بل برزق مَنْ يأتي من أولاده.

أما التعبير الثاني: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾..

فالفقر موجود وحاصل فعلاً، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء في الرزق عن الأبناء.

وما دام الصَّدْر مختلفًا، فلابُدَّ أن يختلف العَجُز، فأيْنَ التعارضُ إذن؟ وهناك مَلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم﴾..

فالفاعل جمع، والمفعول به جمع، وسبق أن قلنا: إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، فالمعنى: لا يقتل كل واحد منكم ولده. كما يقول المعلم للتلاميذ: أخرجوا كُتبكم. والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه.

فإنْ قال قائل: إن الآية تنهى أنْ يقتلَ الأب ولده خوْفًا من الفقر، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له.

نقول: لا.. لأن معنى الآية ألا يقتل كل الآباء كل الأولاد، فينسحب المعنى على أولادي وأولاد غيري، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع. أما لو قُلْنا: إن المعنى: تجاملني وتقتل لي ابني، وأجاملك وأقتل لك ابنك، فهذا لا يستقيم، لأن المقابلة هنا ليست مقابلة جمع بجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

خِطْئًا مثل خطأ، وهو الإثم والذنب العظيم. وتأتي بالكسر وبالفتح كما نقول: خُذوا حِذْركم، وخذوا حَذَركم.

وكلمة: ﴿خِطْـًٔا﴾ .

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب، ولكنك تجاوزْتَه.

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه، ثم يُصوِّب له هذا الخطأ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التي يسير عليها،ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ.

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطأه ونُرشده، لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب.

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ، ولكنه لا يُصحِّحه، بل يُقدِّره بالدرجات التي تُحسَب على التلميذ، وتنتهي المسألة بالنجاح لِمَنْ أصاب، وبالفشل لمن أخطأ، لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة، عليه أنْ يسيرَ عليها.

وكلمة «خطْئًا أو خطأ» مأخوذة من خطا خطوة، وتعني الانتقال بالحركة، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره، فهذا هو الخطأ أي: الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب.

ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة:١٦٨].

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله.

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفةً له في الأرض ليعمرها، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدثه من قَتْل الأولاد، وهم بذُور الحياة في المستقبل؟.

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ المراد بها البنون دون البنات، وسلَّمْنا معه جدلاً أنك تُميت البنات، وتُبقِي على الذكور، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى؟!.

إذن: هذا فَهمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد، وهم البنون والبنات معًا.

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير، فقال: ﴿خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة:

أولها: أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله، ولا يهدم بنيان الله إلا الله.

ثانيها: أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض.

ثالثها: أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان، لأن ولدك بعض مِنْك، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأبوة والرحمة، بل والإنسانية.

وهكذا وضع الحقُّ وسبحانه لنا ما يضمن بقاء النَّسْل واستمرار خلافة الإنسان لله في أرضه، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد.

۞۞۞۞۞

فتوى للإمام الأكبر/ الشيخ جاد الحق علي جاد الحق

شيخ الأزهر- بشأن الإجهاض

قال – رحمه الله تعالى – بعد أن عرض آراء العلماء:

نستخلص من العرض السابق المبادئ الآتية:

١– فقهاء المذاهب جميعًا على أن إسقاط الجنين «دون عذر بعد نفخ الروح فيه» محظور شرعا، ومعاقب عليه قانونا.

٢– التعقيم لمنع الإنجاب نهائيًّا– دون مسوغ شرعي– محرم شرعا.

٣– الالتجاء إلى وقف الحمل للعيوب الوراثية جائز.

٤– يجوز إسقاط الحمل– ولو نفخت فيه الروح– في حالة إنقاذ الأم من خطر محقق وبناء على طلبها، وبعد تقرير الطبيب المختص أن بقاء الحمل في بطنها خطر على حياتها أو عند ولادتها.

هذا وقد أكد هذا مجمع البحوث الإسلامية في الجلسة رقم (٧) من الدورة رقم (٣٠) والرقم العام للمحضر ٢٢١ بتاريخ ١٩ من شوال سنة ١٤١٤ هـ ٣١/ ٣/ ١٩٩٤ م

حيث قرر:

«أنه يمتنع إسقاط الحمل مطلقًا إلا إذا كان هناك سبب طبي تقتضيه المحافظة على حياة الأم، لأنها أصله وحياتها متحققة، وقد استقرت حياتها، ولها حظ مستقل في الحياة، كما أن لها وعليها حقوقا، فلا يضحى بالأم في سبيل جنين لم تستقل حياته بعد، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها » .

« وهذا القرار اختيار للراجح في مذهب الإمام مالك الذي منع الإجهاض

مطلقا. وبعد أن جرى في هذا المحضر مناقشة وضع الحمل، وأنه محترم في كل الأطوار أي منذ تمام التلقيح.

لما كان ذلك:

وبهذا الاعتبار- أي متى استقر الجنين بتمام التلقيح في الرحم- امتنع إجهاضه بأية وسيلة من الوسائل المؤدية إلى إسقاطه من بطن أمه قبل تمام دورته الرحمية إلا إذا دعت الضرورة لهذا الإجهاض، حفظا لحياة الأم، ودرءًا للخطر عنها، كما إذا كانت المرأة الحامل عسرة الولادة، وقرر الأطباء المتخصصون أن بقاء الحمل ضارٌّ بها، فعندئذ يباح الإجهاض، بل إنه يصير واجبا حتما إذا كان يتوقف عليه حياة الأم عملا بقاعدة «يزال الضّرر الأشدّ بالضّرر الأخف»[1]، وبعبارة أخرى إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما، ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة أوردها الفقهاء.

ولاشك أنه إذا دار الأمر بين موت الحامل بسبب الحمل وبين هذا الحمل وإسقاطه، كان الأولى بقاء الأم، لأنها الأصل، ولا يضحى بها في سبيل إنقاذ الجنين لا سيما وحياة الأم مستقرة، ولها وعليها حقوق، وهو بعد لم تستقل حياته، بل هو في الجملة كعضو من أعضائها، وقد أباح الفقهاء قطع العضو المتآكل، أو الجزء المريض بمرض لا شفاء منه حماية لباقي الجسم..

وإذا كان ذلك، وكان الإجهاض بعد نفخ الروح قتلا للنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق لم تكن العيوب التي تكتشف بالجنين مبررا- شرعا- لإجهاضه أيًّا كانت درجة هذه العيوب، من حيث إمكان علاجها طبيًّا أو جراحيًّا أو عدم إمكان ذلك لأي سبب كان متى أخذ في الاعتبار أن التطور العلمي التجريبي دل على أن بعض

(١) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم الحنفي المصري في «القاعدة الخامسة».

الأمراض والعيوب قد تبدو في وقت مستعصية على العلاج ثم يستظهر لها العلم العلاج والإصلاح، وسبحان الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم بل يعلمه بقدر درجة استعداده ووسائله.

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

وإذا كانت الأمراض والعيوب وراثية أمكن- لمنع انتشارها في الذرية- الالتجاء إلى وقف الحمل مؤقتًا أو نهائيًا حسب الأحوال دون حاجة للإجهاض.

أما اكتشاف العيوب - المسئول عنها في الصور المطروحة بالسؤال- بالجنين قبل نفخ الروح فيه فإنه قد تقدم بيان أقوال الفقهاء في الإجهاض في هذه المرحلة والرأي فيها، كما تقدم الرأي الذي انتهى إليه مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف من اختيار مذهب الإمام مالك بمنع الإجهاض مطلقًا على نحو ما سبق تأصيله.

والله - سبحانه وتعالى- أعلم» ا.هـ(١).



(١) «بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة» (٥/٩٦-١٠١).

النصيحة السابعة والعشرون:

عَلَيْكِ بالصَّدَقة

اعلمي – أختي المسلمة – أن ثواب الصّدقة كبير، وفضلها عظيم، ومن فوائدها:

(١) الطهارة والتزكية:

قال الحق سبحانه:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

هذه هي الصدقة غير الواجبة؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد، بل هي صدقة الكفارة.

وقوله الحق: ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، يعني أموال من اعترفوا بذنوبهم، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم، رغم أن المال كله لله، مصداقًا لقوله:

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم: أخرجوا شيئًا من المال الذي وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبت لكم، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئًا من مؤمن مثله، فالحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال.

وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾؛ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج، ويبقى له شيء يتموَّله، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير، وإن لم يقصد.

فيوضح له الحق: اطمئن إلى أن كل شيء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكًا لك، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرف، مصداقًا لقوله الحق:

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

لأن السفيه لا يصح أن يتملك؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شيء، فينزل الحق الحكم: إن مال السفيه الذي يملكه ليس ماله إنما هو مالكم. ولكن إلى متى؟ فيأتي القول الحق:

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

أي: ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية.

والحق في هذه الآية يقول:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال، وهو يأتي بالمال، بالأسباب التي جعلها للبشر في حركة الحياة، وأَمَّنهم على عرقهم، وأَمَّنهم على ما يملكون؛ حتى لا يزهد أحد في الحركة؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه، ولم يتملك المال؛ لضن الناس بالحركة. وإذا ضن الناس بالحركة؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملكًا لهم؛ لأن النفس تحب أن تتملك، والتملك أمر غريزي في النفس؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذي طلب أن يؤخذ من الأموال، وأوضح أنه يضاعفها له، ومعنى أنه يضاعفها عنده

أنه يُنمي فيه غريزة التملك.

وقوله الحق: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها، ما لم يكن فيهم سفه في التصرف أو عدم رشد؛ بأن يكون وارث المال قاصرًا لا يقدر على التصرف فيه، فأوضح لنا سبحانه: لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله، ولكن ليرعى الوصي المال باعتبار أنه ماله هو، وحذر سبحانه الوصي: إياك أن تتعدى في ملكية هذا المال؛ لأن الذي جعله مالك، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال، ولأجلٍ هو أن يبلغ القاصر رشده، أو يرجع السفيه إلى عقله.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

فإياك أيها الوصي، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال، بل جعل لك حق القيام عليه فقط، ثم يقول سبحانه:

﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

ولم يقل: «فادفعوا إليهم أموالكم» وإلا كان الأمر صعبًا على الناس.

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضي الله عنهم، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل والمحروم، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحروم، فالمال - إذن - ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم.

وفي آية أخرى قال الحق:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

و «الحق المعلوم» هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم، وأما الأمر الثاني فهو حق أيضًا. ولكن الذي يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه، وهو التطوع، ولذلك لم يقل: حق معلوم كما في سورة الذاريات:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩].

لقد ذكر سبحانه هنا الحق و لم يقل إنه معلوم؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله.

والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله، أو يظل الليل يستغفر، بل إن المسلم له أن يصلي العشاء وينام، ثم يقوم لصلاة الفجر؛ لكن إن وجد في نفسه نشاطًا، فهو يقوم الليل؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان.

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة، وقد جعل الله هذا حقًّا لكنه غير معلوم؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر.

ووقف العلماء رضي الله عنهم هنا وقالوا: «إن قوله الحق ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾، لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير، بل هو مال المؤدي، ولو بيَّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال، وهذا أفضل للفقير، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها، وبعد ذلك حدث أن هلك المال، فالغني ضامن لحق الفقير».

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾، والصدقة تطهرهم؛ لأن الذنب الذي فعلوه واعترفوا به تسبب في تقذير أنفسهم بالمعصية، وما داموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية، فهم في حاجة أن يُطَهَّروا بالمال الذي كان سببًا في عدم ذهابهم إلى الغزوة.

وانظر هنا ملحظ «الأداء البياني» في القرآن، فالحق سبحانه يقول: ﴿خُذْ﴾

وهو أمر للنبي ﷺ، ويقول: ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً﴾، من أموال الأغنياء، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج، إذن هنا أربعة عناصر: آخذٌ هو رسول الله ﷺ، ومأخوذ منه هو صاحب المال، ومأخوذ هو المال، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج.

ومادام الأمر لرسول الله ﷺ، فهذا الأمر ينسحب بالتالي على كل من ولي أمرًا من أمور المسلمين.

ولقائل أن يقول: ولكنها صدقة وليست زكاة. ونقول: ما دام الله هو الذي أمر بها تطهيرًا فقد صارت واجبًا، والآية صريحة، وتقتضي أنه ما دامت هناك ولاية شرعية، فولى الأمر هو الذي يأخذ من الناس ويؤدي للفقراء، أو لأوجه الصرف التي شرعها الله؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذًا من مُساو له، أما إن أخذ من الوالي وهو المسئول عن الفقراء، فلن يكون عيبًا، كما أن الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلاني يعطي لهم زكاة، فيعاني أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطي؛ ويعيش أبناء المعطي في تعالٍ لا لزوم له.

إذن فحين يكون الوالي هو الذي يعطي فلن يكون هناك مُستعل أو مُستعلًى عليه.

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال، فهنا يصبح على كل إنسان أن يراعي محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال، ومال مُعطى، ومعطىً له هو الفقير.

وعلى من يعود قوله الحق: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم﴾؟ السطحيون في الفهم يقولون: إنما تطهر من نأخذ منه المال، وتزكى المال الذي نأخذ منه.

لكن من يملك عمقًا في الفهم يقول: ما دامت هناك في هذه الآية عناصر، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها، وإنما تطهر وتزكي المأخوذ منه صاحب المال، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ، وأيضًا تطهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير، لأن التطهير معناه إزالة قذر، والتزكية نماء.

القذارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكي عناصر الفعل كلها.

والتطهير لمن يعطي، له معنى معه، والزكاة لها معنى معه؛ لأنك إن أخذت منه المال، فقد يكون قد غفل وأدخل في ماله شيئًا فيه شبهة، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال.

أما كيف تنمي صاحب المال؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده، ولا يخاف أن يضيع منه المال، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كي تعطي المحتاج، فكأنك تطمئنه وتقول له: أنت لو احتجت فلن تضيع، وبذلك تُنمى تواجده وثقته، وطهرته أيضًا من أن يكون في ماله شبهة، هذا من ناحية صاحب المال.

أما من ناحية المال نفسه، فالصدقة تطهر المال؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره.

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص، عكس الربا الذي يزيد المال، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً، أما المزكي فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفًا، والسطحي يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده، ولكن هذا بمقاييس البشر، لا بمقاييس من يملك الأشياء؛ فالزكاة التي تعتبرونها نقصًا تنمى، والربا الذي تعتبرونه ينمي إنما يُنقص، والحق يقول:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

إذن فهناك مقاييس عند البشر، ومقاييس أخرى عند الحق، فما رأيته منقصًا لك، هو عند الله زيادة، وما رأيته مزيدًا لك، هو في الواقع نقصٌ، كيف؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابي، ويظنون أن هذا هو الرزق، ولا يتذكرون أن هناك رزقًا اسمه «رزق السلب»، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة

وعشرة؛ ورزق السلب يتمثل في أنك تصرف سبعين فقط، بدلاً من أن تصرف مائة، فيبقى لك ثلاثون، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر، هذا من ناحية المال.

والحق يقول:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وكيف تكون الصدقة تطهيرًا للآخذ وهو لم يذنب ذنبًا يحتاج إلى تطهير، بل هو معطى له لأنه محتاج؟ ونقول: إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة؛ لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة، فلا يحقد عليه ولا يحسده، فهو إن رأى عنده خيرًا، دعا له بالزيادة؛ لأن بعضًا من الخير يعود عليه.

والفلاحون في ريف مصر يهدون بعضهم بعضًا من لبن ماشيتهم، أو بعضًا من الخير الخارج من لبنها، وساعة أن تمر إحداها على أهل القرية يدعون الله بحمايتها، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد.

هذا عن التطهير، فماذا عن التزكية والنماء؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيرًا، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيدًا، ويتسابق أهل الخير لنجدته، فنفسه تنمو بالاطمئنان؛ لأنه في مجتمع إيماني.

إذن فقوله الحق: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ راجع لكل العناصر في الآية.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم بالخير؛ ولذلك كان النبي ﷺ كلما أتاه قوم بأي صدقة قال: «**اللهم صلى عليهم**».

فأتاه أبو أوفى بصدقته، فقال: «**اللهم صلى على آل أبي أوفى**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).

هذه هي التزكية القولية التي يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطي، ويجد ويجتهد من ليس عنده؛ ليسمعها من رسول الله ﷺ .

وقوله الحق: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: اطمئنان لهم، وما دام الرسول ﷺ قد دعا له، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله ﷺ بالدعاء. وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه: ولماذا لا أجدّ في حياتي وأجتهد؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله ﷺ ؟

ويُنهي الحق الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي أنه سبحانه ﴿سَمِيعٌ﴾ لكل ما تعتبره قولاً، و﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً.

(٢) ثوابها ينمو:

ومن الأدلة على ذلك:

(أ) قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[البقرة: ٢٦١]

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

إن الله ينسب المال للبشر المتحركين؛ لأنهم أخذوا هذه الأموال بحركتهم، وفي موضع آخر من القرآن يقول الحق:

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

إن المال كله مال الله، وقد أخذه الإنسان بالحركة، فاحترم الله هذه الحركة، واحترم الله في الإنسان قانون النفعية، فجعل المال المتبقي من حركتك ملكًا لك أيها الإنسان، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه، ومن فضل الله على الإنسان أنه

سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضًا من المال المتبقي من حركته فهو يطلبه كقرض، ويرده مضاعفًا بعد ذلك.

إذن: فالإنفاق في سبيل الله يرده الله مضاعفا، ومادام الله يضاعفه فهو يزيد، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك؛ لأنك أعطيته لمقتدر قادر واسع عليم، إنه الحق الذي يقدر على إعطاء كل واحد حسب ما يريد هو سبحانه؛ إنه يعطي على قدر نية العبد وقدر إنفاقه، وهذه الآية تعالج قضية الشُح في النفس الإنسانية؛ فقد يكون عند الإنسان شيء زائد، وتشح به نفسه ويبخل، فيخاف أن ينفق منه فينقص هذا الشيء.

وهنا تقول لك قضية الإيمان: أنفق لأنه سبحانه سيزيدك، والحق سيعطيك مثلما يعطيك من الأرض التي تزرعها، أنت تضع الحبة الواحدة، فهل تعطيك حبة واحدة؟ لا.. إن حبة القمح تعطي كمية من العيدان وكل عود فيه سنبلة وهي مشتملة على حبوب كثيرة، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تضاعف لك ما تعطيه أفلا يضاعف العطاء لك الذي خلقها؟! وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك، فما بالك بالله جل وعلا؟!

إن الأرض الصماء بعناصرها تعطيك، أئذا ما أخذت كيلة القمح من مخزنك لتبذرها في الأرض، أيقال: إنك أنقصت مخزنك بمقدار كيلة القمح؟! لا.. لأنك ستزرع بها، وأنت تنتظر كم ستأتي من حبوب، وهذه أرض صماء مخلوقة لله، فإذا كان المخلوق لله قد استطاع أن يعطيك بالحبة سبعمائة، ألا يعطيك الذي خلق هذه الأرض أضعاف ذلك؟!

إنه كثير العطاء، والحق قد نسب للمنفقين الأموال التي رزقهم الله بها فقال:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلمة عامة، يصح أن يكون معناها الجهاد، أو

مصارف الصدقات؛ لأن كل هذا في سبيل الله؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه في مجتمع متكافل، ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه، أيحقد على ذي القوة؟

لا.. لأن خيره يأتيه، نضرب المثل في الريف نقول: البهيمة التي تدر لبنًا ساعة تسير في الحارة، فالكل كان يدعو الله لها ويقول: «يحميكي» لماذا؟

لأن صاحبها يعطي كل من حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها، لذلك يدعو لها الجميع، ولا يربطها صحابها، ولا يعلفها، ولا ينشغل عليها، والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل، وحين نجد مجتمعًا بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معينًا له، هنا يقول العاجز: إنني في عالم متكامل.

وإذا ما وُجد في إنسان قوة وفي آخر ضعف؛ فالضعيف لا يحقد وإنما يقول: إن خير غيري يصلني، وكذلك يطمئن الواهب أنه إن عجز في يوم ما سيجد من يكفله - والقدرة أغيار - مادام الإنسان من الأغيار، فقد يكون قويًا اليوم ضعيفًا غدًا.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

هو قانون يريد به الله أن يحارب الشُّح في نفس المخلوقين، إنه يقول لكل منا: انظر النظرة الواعية؛ فالأرض لا تنقص من مخزنك حين تعطيها كيلة من القمح، صحيح أنك أنقصت كيلة من مخزنك لتزرعها، ولكنّك تتوقع أن تأخذ من الأرض أضعافها، وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

إن الآية تعالج الشُّح، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده.

(ب) وقال تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

إن ابتغاء مرضاة الله في الإنفاق تعني خروج الرياء من دائرة الإنفاق، فيكون خالصا لوجهه – سبحانه – وأما التثبيت من أنفسهم، فهم لأنفسهم أيضا.

فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس الإيمانية أي شيء فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها. وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله.

والمراد بـ ﴿ تَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، هو أن يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حبا أعمق لا حبًّا أحمق. إذن فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولا إنفاقًا في سبيل الله، وتكون بتثبيت النفس بأن وهب المؤمن أولا دمه، وثبت نفسه ثانيا بأن وهب ماله، وهكذا يتأكد التثبيت فيكون كما تصوره الآية الكريمة:

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يوجد به زرع كثيف أخضر لدرجة أنه يستر من يدخله. ومنها «جن» أي «ستر»، ومن يدخل هذه الجنة يكون مستورًا.

إن الحق يريد أن يضرب لنا المثل الذي يوضح الصنف الثاني من المنفقين في

سبيل الله ابتغاء مرضاته وتثبيتا ومن أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحد منهم كمن دخل جنة كثيفة الزرع، وهذه الجنة توجد بربوة عالية، وعندما تكون الجنة بربوة عالية فمعنى ذلك أنها محاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها، فماذا يفعل المطر بهذه الجنة التي توجد على ربوة؟ وقد أخبرنا الحق بما يحدث لمثل هذه الجنة قبل أن يتقدم العلم الحديث ويكتشف آثار المياه الجوفية على الزراعة.

فهذه الجنة التي بربوة لا تعاني مما تعاني منه الأرض المستوية، ففي الأرض المستوية قد توجد المياه الجوفية التي تذهب إلى جذور النبات الشعرية وتفسدها بالعطن، فلا تستطيع هذه الجذور أن تمتص الغذاء اللازم للنبات، فيشحب النبات بالاصفرار أولا ثم يموت بعد ذلك، إن الجنة التي بربوة تستقبل المياه التي تنزل عليها من المطر، وتكون لها مصارف من جميع الجهات الوطيئة التي حولها، وترتوي هذه الجنة بأحدث ما توصل إليه العلم من وسائل الري، إنها تأخذ المياه من أعلى، أي من المطر، فتنزل المياه على الأوراق لتؤدي وظيفة أولى وهي غسل الأوراق.

إن أوراق النبات – كما نعلم – مثل الرئة بالنسبة للإنسان مهمتها التنفس، فإذا ما نزل عليها ماء المطر فهو يغسل هذه الأوراق مما يجعلها تؤدي دورها فيما نُسميه نحن في العصر الحديث بالتمثيل الكلوروفيلي. وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور لتذيب العناصر اللازمة في التربة لغذاء النبات، فتأخذ الجذور حاجتها من الغذاء المذاب في الماء، وينزل الماء الزائد عن ذلك في المصارف المنخفضة. وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة، واكتشفوا أن المحصول يتضاعف بها.

إن الحق يخبرنا أن من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تروى بأسلوب رباني، فإن نزل عليها وابل من المطر، أخذت منه حاجتها وانصرف باقي المطر عنها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾. والطَلُّ وهو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتي ضعفين من نتاجها. وإذا كان الضعف هو ما يساوي الشيء مرتين، فالضعفان يساويان الشيء أربع مرات.



أحاديث في فضائل الصّدقة

ذكر الإمامُ المنذري - رحمه الله - في كتابه «الترغيب والترهيب» أحاديث كثيرة في فضائل الصدقة، نذكر منها ما يلي:

(١) عن أبي أُمامة رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«صَنَائعُ المعروف تقي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَة السِّرِّ تُطْفِئ غَضَبَ الرَّب، وصلَةُ الرَّحمِ تَزيدُ في العُمُر».**
رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

(٢) وعن أُم سَلَمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«صَنَائِعُ المَعْرُوف تَقي مَصَارِعَ السُّوء، والصَّدقة خفيًّا تُطفِئُ غَضَبَ الرَّب، وصَلَةُ الرَّحم تَزيدُ في العُمر، وكُلّ مَعرُوف صَدَقَةٌ، وأهلُ المعروفِ في الدُّنيا هُم أهلُ الْمَعرُوف في الآخِرة، وأهلُ المُنكرِ في الدنيا هُم أهلُ المُنكَرِ في الآخِرة»**[1].

(٣) وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله ﷺ: **«تَصدَّقْنَ يا معشَرَ النِّساء ولو مِنْ حُلِيِّكُنَّ»**، قالت: فَرَجَعتُ إلى عبد الله بن مسعود، فقلت: إنك رَجلٌ خَفيفُ ذات اليَد، وإنَّ رَسول الله ﷺ قد أمرنا بالصَّدقة فائته فاسألهُ، فإن كان ذلك يُجزِئ عَني وإلاَّ صَرَفْتُها إلى غَيْرِكُمْ، فقال عبد الله بل ائتِه أنت، فانطلقتُ، فإذا امرأةٌ مِنَ الأنصار بِبَاب رَسُول الله ﷺ حَاجتهَا حَاجَتي، وكان رَسُول الله ﷺ قد أُلقِيَتْ عَلَيْه المَهَابة، فَخَرجَ عَلينا بلالٌ رضي الله عنه فَقُلنا لَهُ: ائت رَسُول الله فَاخبرهُ أن امرأتين بالباب يسألانك أتجزئ الصَّدَقة عَنهُما عَلَى أزواجهما وعَلَى أيتامٍ في حُجُورِهِمَا ولا تُخبِرْهُ مَنْ نَحنُ.

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني.

قالت: فَدَخَل بلالٌ عَلَى رسول الله ﷺ فسأله، فَقَال له رسول الله ﷺ: «**مَنْ هُما؟**» فقال: امرأةٌ منَ الأنصار، وزَيْنبُ، فَقَال رسول الله ﷺ: «**أيُّ الزَّيانب؟**» قال: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال رسول الله ﷺ: «**لَهُمَا أجرَانِ: أجرُ القَرابَةِ وأجرُ الصَّدقَةِ**». رواه البخاري ومسلم، واللفظ له.

(٤) وعن سلمان بن عامر ﷺ عنْ النبي ﷺ قال: «**الصَّدقَةُ عَلَى المِسكينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**». رواه النسائي والترمذي وحسّنه، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحيهما»، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولفظ ابن خزيمة قال: «**الصَّدَقَةُ عَلَى المِسكينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى القَرِيبِ صَدَقَتَان: صَدَقةٌ وَصِلَةٌ**».

(٥) وعن حكيم بن حزام ﷺ أن رجُلاً سأل رسول الله ﷺ عَن الصَّدقات أيّها أفضَلُ؟ قال: «**عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكَاشِحِ**». رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن.

«**الكاشح**»: بالشين المعجمة: هو الذي يضمر عداوته في كشحه، وهو خصره، يعني: أن أفضل الصدقة على ذي الرحم القاطع المضمر العداوة في باطنه.

(٦) وعَن أُمّ كلثوم بنت عُقبة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**أفضَلُ الصَّدقة الصَّدَقَةُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الكاشِحِ**». رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم.



النصيحة الثامنة والعشرون:

ماذا تفعلين عند نشوز الزّوج؟

يجيب الحق سبحانه عن هذا السؤال فيقول:

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء: ١٢٨].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

وقوله الحق: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ أي أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث. ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل، وهذه لفتة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع، لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضًا من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر.

ونلحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ [النساء:٣٤].

ما النشوز؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول:

«هذه نغمة نشاز» أي أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه.

والأصل فيها مأخوذ من النشز، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض، والمفروض في الأرض أن تكون مبسوطة، فإن وجدنا فيها نتوءا فهذا اسمه نشوز.

والأصل في علاقة الرجل بزوجته، أن الرجل قد أخذ المرأة سكنًا له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه..

واشترط الفقهاء في الزواج التكافؤ أي أن يكون الزوجان متقاربين.. ولذلك قال الحق:

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ [النور:٢٦].

حتى الكفاءة تكون في الطيبة أو الخبث، فلا يأتي واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كي لا تتعبه، ولا يأتي واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كي لا يتعبها..

لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره.

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان في الطباع والسلوك، وفي هذا توازن، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة، فالخبيثة لا تخجل منها أيضًا، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته، فإن خافت امرأة من بعلها نشوزًا أي ارتفاعًا عن المستوى المفترض في المعاملة، في السكن والمودة والرحمة التي ينبغي أن تكون موجودة بين الزوجين، وهي قد أفضت إليه وأفضى إليها، فإن خافت أن يستعلي عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار، أو ضاعت منه مودته أو رحمته، هذا كله نشوز..

وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز في الزوج قبل أن يقع.

فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر.

وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى.

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ .

والإعراض يعني أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها. وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضًا..

والقضية التي بين اثنين- كما قلنا- وقال الله عنهما: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء:٢١].

وقال في ذلك أيضًا:

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧].

أي أن يغطي الرجل المرأة وتغطي المرأة الرجل فهي ستر له وهو ستر لها وحماية..

ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهي تداري أي جزء ظاهر من جسمها، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفي شيئًا.

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد، وكذلك المرأة، فلا يقول الرجل أي نعت أو وصف جارح للمرأة، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها..

ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله، واطلع على عورتها بحق الله.

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهي هذا الخلاف قبل أن يقع، لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت في العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال في الرجل بقية من فتوة..

وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته، أو يرغب في الزواج بأخرى لأي سبب

من الأسباب، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قَسْمها، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزواج فلتسمح له بذلك، أو تتنازل له عن شيء من المهر، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته، وهي مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة.

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء:١٢٨].

والصلح هنا مهمة الاثنين معًا، لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيرًا، والذي يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون في العلاقة بين الرجل والمرأة، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود، فتقول له الزوجة كلمة تنهي الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد مِن تدخل من لا يملك سببًا أو دافعًا لحل المشكلة.

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هنا:

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا ﴾ .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول الحق:

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وكذلك قول الحق سبحانه:

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:١٩].

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخيرات، لأن كل خصال الخير التي تتطلبها الحياة، قد لا تتوافر في المرأة الجميلة..

بل قد توجد في المرأة التي ليست على حظ من الحسن، لأن ذات الحسن قد

تستند إلى رصيد حسنها..

أما التي ليس لها حظ من الحسن فهي تحاول أن تكون أمينة ومطيعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج، لأنها تريد أن تستبقي لنفسها رصيد استبقاء.

ولذلك نجد اللاتي ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة في حمل أعباء تكوين الأسرة، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسّي، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه، لأن الجمال الحسيّ قد يأخذ بعقل الرجال، لكن عمره قصير، وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر.

ولذلك قالوا: «إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت: الحمد لله، فقال لها: على أي شيء تحمدين الله؟ قالت: على أني وأنك في الجنة. قال: لم؟ قالت: لأنك رزقت بي فشكرت، ورزقت بك فصبرت، والشاكر والصابر كلاهما في الجنة» .

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هي مجمع الجمال والحسن في كل شيء، فإن كانت متدنية المستوى في جانب فهي متميزة في جانب آخر، فلا تضيع الامتياز الذي فيها من أجل قصورها في جانب ما.

وزوايا الحياة كثيرة.. وقلنا سابقًا: إنه لا يوجد أحد ابنًا لله، بل كلنا بالنسبة لله عبيد. وما دمنا جميعًا بالنسبة لله عبيدًا وليس فينا ابن له.

وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء، فهناك فرد قد أخذ الامتياز في جانب، والآخر قد نال الامتياز في جانب آخر- هذا النقص في زاوية ما، والامتياز في زاوية أخرى، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أي إنسان يساوي مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم.

فإن وجد الإنسان شيئًا لا يعجبه في المرأة، ووجدت المرأة شيئًا لا يعجبها في

الرجل، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل.

والرجل الذي ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال، لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التي ليست كذلك، والذي يرضى هو من ينظر إلى المحاسن..

والذي يغضب هو من ينظر إلى المقابح.. والعادل في الغضب والرضا هو من ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا:

لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظري أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما، لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته، لذلك قال سبحانه:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: ١٢٨].

إننا في بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد، والذي يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة في النفوس، والتي تتسرب إلى موضوعات أخرى، لذلك يجب أن يكون الصلح، ويتم بحقيقته، كقول الله تعالى:

﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع.

وبعد ذلك يتابع الحق:

﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .

يوضح لنا سبحانه: أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أنني عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى «الشبكة»، أو تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى.

وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه، إياكم أن يستولي الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض..

وجاء الحق في آية وقال:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء:٢١].

وهنا يقول: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ وهناك فرق بين الحقوق التي قد يتمسك بها أحد الزوجين، والإحسان الذي يتطوع به.

ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين: أأحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل؟

فسأل واحد: وهل هناك خير من العدل؟

فقال القاضي: نعم إنه الفضل.

العدل إعطاء الحق فقط، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه.



النصيحة التاسعة والعشرون:

ضوابط خروج المرأة للعمل

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - :

المرأة عندما تخرج من البيت للعمل، تعود مرهقة وتستقبل في المنزل زوجًا مرهقًا وأطفالاً مشتتين فتعاني من عذابات كثيرة، عذابات الاغتراب، وعدم الانسجام مع الزوج وعدم القدرة على تربية الأبناء بالقدر الكافي من الحنان.

إن ثبات الحقيقة العلمية التي أوردها القرآن الكريم رضاعة الطفل من أمه هي تنمية له واستثمار في صحة المجتمع نفسه بتنشئة أطفال مشبعين بالحنان وبالمواد التي تبني أجسامهم بصحة وعافية، هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفوها أخيرًا هي التي دعت الحكومات إلى منح النساء إجازات لرعاية الأبناء.

وثبات الحقيقة العلمية التي تؤكد زيادة نسبة اضطراب المرأة عصبيًّا عندما لا تجد مَن يرعى ابنها في حضانة تمنحه مثلما تمنحه الأم، ثبات تلك الحقيقة يؤكد أن رعاية الأم تفوق بالتأكيد أي رعاية أخرى، وهذه الرعاية ليست أمرًا مفروضًا على الأم، بل هو أمر غريزي ترتوي به الأم عطاء لأبنائها كما يرتوي الأبناء أخذًا.

وثبات الحقيقة العلمية أن حنان الأم يُعطي الأبناء ثقة بالنفس وصحبة الآباء تجعل الأبناء ينشأون على محبة الأسرة، تلك الحقيقة ثبتت في النظام الأسري للإسلام وافتقدها الغرب في هذه الأيام عندما رأى زيادة في أعداد المنحرفين بين شبابه.

وليس معنى ذلك أن الإسلام يُحَرِّمُ عمل المرأة، ولكن الإسلام يضع الأسس التي تسير عليها حياة الأفراد بانسجام واطمئنان.

فإذا كانت المرأة هي عائلة لأسرها أو أن ظروف الحياة تفرض عليها العمل مشاركة للزوج فلتعلم أن ذلك - رغم أنه قد يفيد الأسرة في عاجل الأمر - يجعل الأسرة تدفع ثمنه انتقاصًا من راحتها واطمئنانها.

فتوى:

وسُئل الإمام - رحمه الله - : هل خروج المرأة للعمل يتعارض مع وظيفتها الأساسية وهي أن تكون ربة بيت، وما رأي فضيلتكم في ذلك؟

فأجاب:

إن قيام الرجل بأنواع مطلوبة لحركة الحياة لا يقلل من قيمة المرأة التي عليها مهام كبيرة في أن يكون البيت منسجمًا وهادئًا يسكن فيه الرجل وينشأ فيه الأبناء.

وليس قيام المرأة بتربية الأبناء أو إدارة أمور المنزل بما يجعله سكنًا للزوج، ليس هذا العمل هينًا، لأن ذلك العمل تكريم للمرأة كوعاء للحياة، إنَّها تحمل الطفل وترضعه وتربيه وتغذيه بالحنان والطعام، وتدير أمور البيت ليكون مكانًا صالحًا لحياة الأسرة كلها.

وإذا كانت المرأة قد خرجت إلى العمل في العصر الحديث فلنا أن نلحظ أن طاقتها على إدارة بيتها تقل، وأن رعايتها لأبنائها تقل وأن توترها يزداد وإحساسها بالذنب تجاه الأسرة يتغلب على مشاعرها، ثم متاعب العمل مع متاعب البيت في آن واحد، مما يجعلها تشكو من الإرهاق وتبدد سعادتها مع الانسجام المفروض أن تحققه مع أسرها، فهي في العمل مشغولة بالأسرة، ومع الأسرة مشغولة بالعمل، مما يفقد المرأة استقرارها النفسي.

إنَّ العلم المعاصر قد عاد مرة أخرى للحديث عن ضرورة أن تكون المرأة ربة بيت ومتعلمة، ولا يعني أن وظيفتها كربَّة بيت لا تحتاج إلى علم، لا .. إنها تحتاج

إلى علم كامل يشتمل الآن على تخصصات كثيرة في فروع العلم المعاصر، وتكفي مهمة واحدة تنقسم الآن إلى علوم عديدة وهي التربية.

وإذا كان خروج المرأة إلى العمل لحاجة في المجتمع، فعلينا أن نعرف أن مثل هذا الخروج للعمل يبدد الكثير من طاقة المرأة في إدارة أمور البيت، ويفقد البيت معنى السكن، ولنا أن نُقدر تضحية المرأة بخروجها إلى العمل لمساعدة المجتمع في اجتياز أزماته، مع ضرورة الالتفات إلى أن المرأة التي حباها الله بزوج قادر على أن يجعلها تختص بمسئوليات تربية الأبناء، هذه المرأة عليها أن تقبل على ذلك الأمر براحة وليس ذلك تقليلاً من شأن المرأة، ولكنه تكريم لمهمة أساسية في المجتمع وهي تنشئة الأبناء بعيدًا عن ويلات افتقاد الأم في زحام العمل.

فتوى ثانية:

وسُئل الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – : **هل نص في شريعة الإسلام على تنظيم لعمل المرأة في المجتمع العام؟ وما هي الوظائف التي سمح الإسلام لها بالعمل فيها؟**

فأجاب:

ينبغي أن نعلم أنه لو اتحدت مهمة الجنسين ما كان هناك ضرورة في أن ينقسم الجنسان إلى نوعين: ذكر، وأنثى.

ولنضرب لذلك مثلاً بآية كونية موجودة في الوجود هي الزمن، فالزمن هو وعاء الأحداث، تحدث فيه الأحداث وهو قسمان: ليل ونهار. الزمن كجنس وعاء للأحداث وكنوع فالنهار له مهمة والليل له مهمة إن حاولت أن أقول: أسوي مهمة الليل بمهمة النهار أو العكس، أكون قد أفسدت نظام الكون، لأن الليل خلق لمهمة، والنهار خلق لمهمة، حينما نرى جنسًا انقسم إلى نوعين، خذ خصائص مشتركة في

الجنس ثم خذ خصائص مختصة بكل نوع وحينما أراد الله أن يبرز تلك القضية، قال انظروا إلى قضية في الكون غير مختلف فيها، وهي حينما نسأل مثلاً علماء النبات يقولون: ضوء الشمس له عمله بالنسبة للنبات والليل له مهمة بالنسبة للنبات، النبات بيطلّع ثاني أكسيد الكربون المطلوب في الوجود إذن الليل له مهمة وجودية حياتية والنهار له مهمة وجودية حياتية لو أنك حاولت أن تقول: إنهما متعاندان! أقول: لا، هما متكاملان ولا يتعاندان، وضرب الله المثل حين قال:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي حياتنا كلها ليل، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثم قال في آية بعدها: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧٢].

إذن: لكل منهما مهمة ولا يصح أن أكلف نوعًا بمهمة الآخر وإلا اختلت قضية الوجود، فالله بيّن أن المقدمة المقطوع بها من كونية حياتنا هي وجود الناس، ثم أتى عليها بقضية الرجل والمرأة كيف؟ قال: إنهما مثل الليل والنهار، هما جنس واحد هو الإنسان ولكنهما نوعان: ذكر وأنثى، إذن لهما كإنسان خصائص مشتركة لا يختلفان فيها ولكنهما كنوعين لكل نوع منهما مهمة. اقرأ قول الله :

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل: ١- ٤].

أي كل واحد له مهمة في الوجود، إذا حاولت أن تأخذ مهمة الرجل للمرأة أو العكس تكون قد أخللت في قضية الوجود، وإلا ما كان هناك ضرورة لأن يكونا نوعين والخصائص المشتركة للجنس، ربنا قال: الرجل والمرأة من جنس واحد، من مادة واحدة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وليس كما قالت المذاهب أو الأديان الأخرى إن الشيطان خلق المرأة أو إله الشر والرجل خلقه إله الخير، لا.. الإسلام قال: إنهما من جنس واحد، هذا هو التكوين في الأصل ثم قال الإسلام بعد ذلك: إنهما واحد في المسئولية، كإنسان المرأة مسئولة عن عملها، والرجل مسئول عن عمله، ثم يوضح ذلك رسول الله ﷺ فيقول: «**الرجل راعٍ ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية ومسئولة عن رعيتها**»[(١)].

ومسئولون أمام الله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقلنا أيضًا: إن المرأة لها حرية في العقيدة تعتقد ما تشاء لكن إذا اعتقدت لابد أن تلتزم، لها حرية في الدخول في الإيمان أو لا تدخل، لا تدخل الإيمان تبعًا لزوجها أو لأبويها، والله ضرب مثلاً بامرأة نوح وامرأة لوط.. فنوح ولوط كانا رسولين وبالرغم من ذلك لم يستطيعا إدخال زوجتيهما في دينهما:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم: ١٠].

ثم جاء من الناحية المقابلة، للإيمان:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١].

الذي ادعى الألوهية ما استطاع أن يرغم امرأته أبدًا أن تعتقد فيه أنه إله:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

إذن للمرأة حرية في العقيدة، ولقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقًا مدنية كاملة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

ليست في أي دين آخر، المرأة اليهودية كانت قبل الزواج تابعة الولاية لأبيها لا تتصرف في أي شيء وبعد الزواج تتبع زوجها، وجاءت القوانين الوضعية حتى القانون الفرنسي في المادة (٢٠٧) في القرن الثامن عشر، تنص على أن المرأة وإن اشترطت على الرجل أن تكون لها ذمة مالية مستقلة عنه يلغى هذا الشرط ولو نظرنا لوجدنا أن الحضارة الغربية تفقد المرأة خواصها، ما هي الخواص الأولى للإنسان؟ شكله وسمته ثم اسمه، فحينما تتزوج المرأة في أوروبا تنسب إلى زوجها فيقولون: مدام فلان. وليس من حقها أن تحتفظ حتى باسمها واسم والدها.. أو أمها وعندما جاء المقلدون في مصر في أوائل عصر النهضة الحديثة ووجدوا هذا، عز عليهن أن يُنسَى اسمهن، وقبلن نسيان أسماء آبائهن وأسماء عائلاتهن، واستمرت تحتفظ باسمها.

«هدى شعراوي» أخذت اسمها «هدى» ونسبته إلى اسم عائلة زوجها «علي باشا شعراوي» لم يهن عليها أن تترك اسمها.. ولكن في أوروبا وأمريكا تترك اسمها واسم أبيها واسم أسرتها، وتتسمى باسم زوجها. فأي حق.. وأي مساواة للمرأة بعد أن تسلب اسمها؟!

ولكن في الإسلام زوجات الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق، وتتشرف به كل واحدة منهن، لم يقولوا «مدام محمد بن عبد الله» لم يقولوا زوجة محمد، ولكنهم قالوا: عائشة بنت أبي بكر.. حفصة بنت عمر.. زينب بنت جحش.

احتفظن بأسمائهن وأسماء آبائهن وأسرهن.. وبعد ذلك يأتي المفتونون ويقولون نريد أن نكون مثل الغرب.. والغرب لم يعطِ حرية للمرأة في اسمها ولا في مالها.. ولكن الحرية التي أخذتها المرأة كانت بسبب الحرب. عندما جندوا الذكور للحرب، احتاجوا إلى المرأة لتحل محلهم في العالم المدني، فأعطوها بعض الحقوق ليحصلوا على إنتاج في عملها.

سقراط مثلاً يقول: إن المرأة ليست معدة إعدادًا طبيعيًا لكي تفهم شيئًا في العلم

ولكنها معدة للمطبخ وتربية الأولاد، أفلاطون جاء ليعطيها قسطًا من التعليم فقامت عليه الدنيا وقام الفيلسوف الساخر أريستوفان بتأليف رواية اسمها: النساء المتحذلقات، وتندر فيها على المرأة التي نالت قسطًا من التعليم، جاء بعده موليير الفرنسي وألَّف رواية اسمها: برلمان النساء أيضًا. ولكن الإسلام لم يقف منها ذلك الموقف بل قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**»[1].

إذن نحن فرضنا التعليم على المرأة.. وحينما تزوج رسول الله ﷺ من حفصة بنت عمر، كان عمر قد جاء لها بامرأة من بني عدي تعلمها القراءة والكتابة وبعدما تعلمت وتزوجها رسول الله ﷺ، طلب الرسول ﷺ أن يستمر مجيء العدوية إلى بيته، لتعلم حفصة بقية العِلم.. فقال عمر: لقد تعلمت. فقال رسول الله ﷺ: «**لتجوده ولتحسنه**».

فلتتعلم المرأة، ولكن تتعلم التعليم النوعي إذا كنا نحن نقسم الرجال منذ بدء التعليم الإعدادي إلى تعليم نوعي مثل: صناعي - زراعة - تجارة - فني.. إلخ، إذن وجب تعلم المرأة تعليمًا نوعيًّا يناسب المهمة التي ستؤهل لها.

إن المرأة يجب أن تشكر نعمة الله عليها لأن الرجل يتعامل مع الأجناس الدنيا من الوجود فإنه إما زارع يتعامل مع التربة والمواشي والحيوانات وإما صانع يتعامل مع المادة الصماء، ولكن المرأة تتعامل مع أشرف شيء في الوجود وهو الإنسان، المرأة التي لا تريد الاقتناع بهذه المهمة تكون امرأة فاشلة، فالمرأة التي تريد أن تؤدي مهمتها كَرَبَّة بيت وزوجة وأم ومربية.. إلخ لا تجد من الوقت ما يسمح لها أن تعمل، فلتتعلم وتغنينا عن مدرس خصوصي أو تتعلم حياكة الملابس لأولادها وتطريزها فلو نظرت إليها في نشاطاتها في الحياة لوفرت على البيت أضعاف ما تأخذ من راتب وتوفر علينا

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه، دون قوله: «**ومسلمة**» وهي زيادة يتضمّنها معنى الحديث، لأن كلمة «**مسلم**» تدلّ على الجنس فيدخل فيها كل جنس المسلم رجالاً ونساءً. والحديث صحّحه الألباني.

تكاليف زينتها ومتطلباتها في الحياة، ثم ننظر بعد ذلك إلى الواقع، هل المرأة في سلم العمل كلما ارتقت تمنت مزيدًا من عمل أو كلما ارتقت وتقدم بها السن تمنت لو أنها ربة بيت حتى النساء الغربيات مارلين مونرو قالت: إياكن أن تخدعن بالأضواء التي تُسلط عليكن وأنا لو استأنفت حياتي كنت أُفضِّل أن أكون ربة بيت فقط، وعندما عملوا الإحصائية بين السيدات والبنات ما هي نسبة السيدات اللاتي طلبن أن يعدن إلى بيوتهن كربات بيوت؟ إذن المسألة أن هناك في الغرب شيئًا غير الذي عندنا، لا نحكم بشيء من هناك لنسيره على حياتنا، لأن الرجل في الغرب بمجرد أن يكبر ابنه يتركه يضرب في الحياة وبمجرد البنت ما تكبر يقول لها: شوفي لك شغلة بقى.

ليس عندنا مثل ذلك من الضرورات التي تجعل المرأة تتشابك في حياتها مع المجتمع لكي تعيش وعندما اخترع الغرب عيد الأم قلدناهم في ذلك تقليدًا أعمى ولم نفكر في الأسباب التي جعلت الغرب يبتكر عيد الأم، فالمفكرون الأوربيون وجدوا الأبناء ينسون أمهاتهم ولا يؤدون الرعاية الكاملة لهن فأرادوا أن يجعلوا يومًا في السنة ليذكروا الأبناء بأمهاتهم ولكن عندنا عيد للأم في كل لحظة من لحظاتها في بيتها، فالإنسان منا ساعة خروجه من البيت يُقَبِّل يد أمه ويطلب دعواتها، يزورها بالهدايا دائمًا.

إذن: ليس هناك ضرورة لهذا العيد عندنا، ولكننا أخذنا ذلك على أنه منقبة من مناقب الغرب في حين أنه مثلبة، في أوروبا يترك الولد أمه تعيش في ملجأ وأباه يعيش في مكان لا يدري عنه شيئًا، وليس في حياتك مثل ذلك فالإسلام أعطانا تكاتفًا وعلى قدر حاجة الأبوين رتب الإسلام الحقوق: « ... **أمك**.. **ثم أمك**.. **ثم أمك**... **ثم أبوك**»[1]، لأن أباك رجل حتى لو تعرض للسؤال فلا حرج وإنما الأم لا.

وعندما نستعرض القضية في هذا الخصوص: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

إِحْسَـٰنًا ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إذن هو يوصي بالوالدين، ولكن إذا نظرت للآية القرآنية، تجد أن الحيثيات في الآية للأم كلها وفي البداية أتى بحيثية مشتركة ثم قال: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾[الأحقاف: ١٥].

يعني: لم يذكر سيرة للأب.



النصيحة الثلاثون:

الحجاب.. فريضة شرعيّة.. وضرورة بشرية

سُئل الإمام - رحمه الله - : هل من الضروري تغطية الوجه والكفّين من المرأة في الحجاب؟

فأجاب:

«الحجاب الشرعي يوجب تغطية المرأة لكل جسدها، ماعدا الوجه والكفين[١]، ويشترط فيما ترتديه المرأة ألاّ يكون ضيقًا بحيث يصف جسمها، ولا يكون كاشفًا، بمعنى ألاّ يكون شفافًا يظهر ما تحته» ا.هـ.

تعقيب:

وهناك عدّة شروط أخرى، منها:

(١) ألاّ يُشبه ثوب الرجل.

(٢) ألاّ يشبه ثوب الكافرات.

(٣) ألاّ يكون زينة في نفسه.

(٤) ألاّ يكون مُعطّرًا.

(٥) ألاّ يكون ثوب شُهْرة.

وللمزيد: راجعي كتاب: «جلباب المرأة المسلمة» للشيخ الألباني.

۞۞۞۞۞

---

(١) ولا يعني هذا أن النّقاب بدعة كما يدّعي البعض! بل هو مشروع، وقد قال الإمام - رحمه الله - : النّقاب لا هو مفروض ولا مرفوض.

بيان من جبهة علماء الأزهر

بشأن حجاب الفتاة المسلمة

أصحاب الفضيلة أعضاء الجبهة - علماء الأزهر الشريف؛ نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين.

وبعد.. فقد رأى مجلس إدارة الجبهة في اجتماعه بتاريخ ٦ من ربيع الأول ١٤١٥هـ الموافق ١٤ من أغسطس ١٩٩٤م إصدار هذا البيان، وهو البيان الأول والوحيد الذي تصدره الجبهة في شأن الفتاة المسلمة، بمناسبة القرار المنسوب إلى السيد الأستاذ الدكتور وزير التعليم خاصًّا بالزي المدرسي.

ثم أما بعد..

فإن الإيمان بالإسلام دينًا، وبالقرآن وحيًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً يقتضي التسليم والرضا بحكم الله، ولاسيما إذا كان نصًّا صريحًا لا يحتمل التأويل، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٥١].

وقال سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد جاء القرآن الكريم بالأمر الصريح للرجل وللمرأة أن يغض كل منهما البصر ويحفظ الفرج، وزاد بالنسبة للمرأة ألا تبدي زينتها لغير محارمها إلا ما ظهر منها - وهو عند الجمهور الوجه والكفان - كما طلب منها أن تغطي رأسها بالخمار فقال تعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١].

وفي هذا التعبير القرآني ما يعني الامتثال والخضوع من قِبَل المؤمنين والمؤمنات، فهم بمجرد أن يقول لهم الرسول ﷺ ذلك، فإنهم يَغُضُّونَ البصر ويحفظُونَ مواطن العفَّة، وقد بدأ الله ﷻ بزوجات الرسول ﷺ وبناته قبل نساء المؤمنين حين أمرهن بأن يرخين ثيابهن سترًا لسيقانهن وأرجلهن فقال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وبعد أن نبّه الناس – كل الناس – إلى نعمة الستر واللباس أوصى بتقوى القلب ليتحقق للإنسان الشكل الوقور والجوهر المستنير من فتن الشيطان ومحاولاته المستميتة في إغراء بني آدم وحثهم على التعري والتكشف وإظهار العورات المؤدي إلى فساد الأخلاق وشيوع الفاحشة فقال سبحانه:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأمام هذه النصوص الواضحة استقر في ضمير الأمة المسلمة وفي سلوكها على مدى الأجيال أن هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة لا يجادل فيه مسلم يدين بكتاب الله.

واعتمادًا على هذه النصوص وغيرها أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر بيانها لضرورة الالتزام بشرع الله في ستر الرأس والصدر والسيقان بثياب لا تكشف ولا تصف لكل فتاة بلغت سن المحيض، وبأن هذا الأمر لا يحتاج إلى إقرار من ولي الأمر أو إذن من إدارة التعليم، إذ أن الآمر به هو رب العالمين، ولا يعقل أن يُستأذن عبد في أمر صدر من ربه، ثم إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وما كان للجنة الفتوى أن تخفي حكم الله، أو تقول على الحرام حلالاً، وإلاّ دخلت فيمن يفتري على الله الكذب، وفيمن يكتمون ما أنزل الله.

وبإزاء ما شغل به بعض الكُتاب أنفسهم وأقلامهم، قاصدين الخوض في هذه المسألة على غير وجه من الحق والحقيقة، حتى إن عددًا منهم نفخ فيها نار الفتنة والإرهاب، وهؤلاء ندعوهم إلى أن يراجعوا أنفسهم وموقفهم من الله وآياته، وأن يفيئوا إلى الله الحق - والحق أحق أن يتبع - ونسأل الله لنا ولهم وللجميع الهدى؛ ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم، ٧٦].

والله ولي التوفيق

رئيس جبهة علماء الأزهر

أ.د/ محمد السعدي فرهود



النصيحة الحادية والثلاثون

التزيّن المشروع.. والتزيّن الممنوع

دعا الإسلام إلى جمال الظاهر كما دعا إلى جمال الباطن.

فقد حث على التنظّف، والتطهّر، والاغتسال، والوضوء، واستعمال السّواك، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وإكرام الشعر، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وبيّن الإسلامُ حدود الزينة المشروعة، وحدود الزينة الممنوعة.

ومن التزيّن الممنوع بالنسبة للمرأة[١]:

(١) حلْق رأسها:

سُئل الإمام – رحمه الله تعالى – : هل يجوز للمرأة أن تحلق رأسها؟

فأجاب: يحرم على النساء حلق رؤوسهن لقول عليّ ﷺ: «نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها»[٢].

وذلك لأن في حلق رأسها تشبهًا بالرجل، وخروجها عن طبيعة الأنثى، ونفور الرجال منها، وظهورها بمظهر رديء وهو حرام، لما روي عن ابن عباس أن النبي

---

(١) أباح الإسلام للمرأة أن تزّين نفسها بالذّهب، والحرير، لأنهما يناسبان ميولها وَخِلْقَتِها.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي.

ﷺ قال: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»(١).

ولكن إذا ما ظهرت في رأسها ما يحتم الحلق ككثرة الهوام والحشرات أو ظهور تقرحات في جلدة الرأس فتلك ضرورة تبيح حلقها كما قال الإمام أحمد حينما سئل عن المرأة تعجز عن شعرها، وعن معالجته، أتأخذه؟

فقال: لأي شيء تأخذه؟

قيل: لا تقدر على الدهن وما يصلحه..

فقال: «إذا كان لضرورة فأرجو ألا يكون به بأس».

وسُئل: **انتشرت في الآونة الأخيرة ظاهرة جديدة على المجتمع وهي ظهور المرأة حليقة الشعر، أو يكون شعرها في طول شعر الرجال، فما رأى الإسلام في هذه الظاهرة، وهل يختلف الأمر بالنسبة للمرأة التي تحلق شعرها لسبب مرض كظهور تقرحات مثلاً في رأسها؟**

فأجاب: أولاً أن تتشبه المرأة بالرجل فهذا حرام ... حرام .... فكون أن تحلق المرأة رأسها فهذا حرام لأن ذلك تشبه بالرجال، وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن ذلك.

فعن سيدنا علي رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها(٢). ولأن تشبه المرأة بالرجال حرام، وذلك لقول الرسول: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**»(٣).

ثم إن حلق المرأة لشعرها هو في الحقيقة خروج على طبيعة المرأة ذاتها، بل

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) صحيح أخرجه الترمذي وغيره.

(٣) أخرجه البخاري وغيره.

يجعل الرجال ينفرون منها، فهو مظهر ولا شك رديء يدعو إلى النفور وهو تبرج نهى الله عنه.

أما إذا كان حلق الشعر لسبب يحتم ذلك مثل ظهور تقرحات في فروة الرأس مثلاً أو غير ذلك من الأمور الجلدية فتلك ضرورة تبيح الحلق.

وقد سئل الأمام أحمد رضي الله عنه عن المرأة التي تعجز عن معالجة شعرها أي العناية به ورعاياته أتأخذه؟ بمعنى تقصره أو تحلقه؟ قال: لأي شيء تأخذه؟

فقيل له: لا تقدر على الدهن وما يصلح الشعر. فقال: «إذا كان لضرورة فأرجو ألا يكون به بأس. والأصل أن حلق المرأة لشعرها حرام إلا لضرورة تبيح ذلك مع ضرورة الالتزام بتغطية شعرها».

(٢) تجميل الحواجب، ووصل الشّعر:

وسئل **الإمام** - رحمه الله - : **هل تجميل الحواجب حلالٌ أم حرام؟**

فأجاب: منع الزائد كالشعرة الزائدة هو المطلوب[١]. ولقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله**»[٢].

(٣) العطر عند الخروج:

وسُئل **الإمام** - رحمه الله - : **هل يصح للمرأة أن تضع عطرًا على ملابسها، وتخرج إلى الشارع أو إلى العمل، وهي باللباس الشرعي؟**

---

(١) الشعرة الزائدة: يعني البعيدة عن أصل الحاجب، أما حفّه وترقيقه، والتعرّض لأصله فحرام وفاعلته ملعونة بنص الحديث المذكور.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. تنبيه: ويدخل في اللعن: وصل الشّعر كما ثبت في «الصحيح»، وعليه، فالباروكة حرام.

فأجاب: استعمال المرأة للعطر خارج بيتها حرام، قال رسول الله ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية**»[(١)].

وفي حديث آخر: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا**»[(٢)].

وقد شدد الإسلام على المرأة، وأمرها ألا تبدي زينتها إلا ما ظهر منها وألا تتعمد جذب انتباه الرجال في الشوارع أو في العمل بالعطور وغيرها، أما زينة المرأة وعطرها لزوجها وداخل بيتها فهو مباح مندوب إليه.

(٤) صبغ الشَّعْر للتدليس:

وسُئل الإمام - رحمه الله - : صباغة المرأة المحجبة لشعرها هل هو حلال أم حرام؟

فأجاب: إن كانت تقصد بصباغة شعرها التزين لزوجها، فلا مانع، أما إن كان قبل الزواج وللفت الأنظار فيعتبر نوعًا من التدليس والخداع.



(١) حسن: أخرجه أحمد، وغيره.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود.

النصيحة الثانية والثلاثون:

احذري الاختلاط

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله تعالى – :

مسألة الاختلاط بين الفتاة والشاب لا منطقية ولا طبيعية، وقد سبق لي أن عالجت هذا الأمر حينما تكلمت عن قصة موسى مع شعيب، وقلت: إن خروج الفتاة إلى عمل في غير مجال أسرتها أمر تحدده الضرورة المحضة، وقلت: اسمعوا قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وكلمة أبونا شيخ كبير حددت الضرورة، والضرورة التي أخرجت الفتاة إلى مجال الاحتكاك والاختلاط تؤخذ بقدرها، ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ ليس مجرد الضرورة التي أخرجتها حتى تحتك بالناس، في حجاب إن كانت في مجتمع ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ثم تكلم عن دور المجتمع ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ يعني حين يرى الرجل امرأة خرجت لتكافح في الحياة عن ضرورة اقتضت ذلك فيجب عليه أن يقضي لها ضرورتها، حتى تذهب إلى حال سبيلها ويجب على الفتاة أو المرأة التي تضطرها هذه الضرورة أن تلتمس الخروج من هذه الضرورة، بنت شعيب قالت:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

هي التي بحثت عن حل واحد يقوم بهذه المهمة، نحن لا نمنع أن تخرج المرأة إلى

العمل، ولكن تخرج إلى العمل إن كان في محيط أسرها، وإن استدعى الأمر أن تخرج إلى المجتمع، فلتخرج في حشمتها وفي وقارها، وفي اتزانها ولا تجعل هذه الضرورة تبيح لها أن تختلط بالشباب ما شاء لها الاختلاط، هبوا أن الضرورة اقتضت أن تخرج المرأة إلى المجتمع للعمل؛ ولا رجولة خاصة في محيط القوى ولا رجولة عامة في المجتمع وتركت المرأة لحال سبيلها تكافح في الحياة، ما هو الرابط بين أن تتبرج لتخرج على أبهى زينتها وأكمل حليتها؟ وما هي العلاقة بين هذا وهذا؟

الفتاة التي تخرج لتتعلم إنما قلنا أنها ضرورة اضطرها إلى الاختلاط، فما ضرورة أن يكون ميدان الجامعة ميدان تبرج، تلبس أحسن الأزياء، ولقد قُلْتُ سابقًا: هل العلم لا يسمع إلا من بين الصدور؟ الثدي يكون ظاهرًا، هل العلم لا يستقبل إلا بالسيقان المكشوفة؟ هل العلم لا يؤتى إلا باللباس الكاشف؟

والفتاة في تبرجها خارج منزلها تعبر عن إلحاح في عرض نفسها على الرجل لأن مبالغة المرأة في تبرجها خارج منزلها معناه إلحاح في عرض نفسها على الرجل تمامًا ومعنى ذلك أنها تقول له: «انظر أنا هنا».

والشباب ليس في حاجة إلى من يَجْلدُ غَرَائِزَهُ، الشباب الآن يحتاج إلى مُبْرِّدات وليس إلى مُهَيِّجَات، فرقوا يا قوم بين حركة العمل في الحياة وبين إغراءات هذه الحياة.

وَسُئِل – رحمه الله تعالى –: ما حُكم اختلاط الفتيات بالشباب ؟

فأجاب: ما حرص الفتاة على أن تختلط بشاب؟ لماذا؟ مسألة لا منطقية ولا طبيعية، وقد سبق لي أن عالجت هذا الأمر حينما تكلمت عن قصة موسى مع شعيب، وقلت: إن خروج الفتاة إلى عمل في غير مجال أسرها أمر تحدده الضرورة المحضة، وقلت: اسمعوا قول الله:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن

دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وكلمة أبونا شيخ كبير حددت الضرورة، والصورة التي أخرجت الفتاة إلى مجال الاحتكاك والاختلاط تؤخذ بقدرها، ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ ليس مجرد الضرورة التي أخرجتها حتى تحتك بالناس، في حجاب إن كانت في مجتمع ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ثم تكلم عن دور المجتمع ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ يعني حين يرى الرجل امرأة خرجت لتكافح في الحياة عن ضرورة يجب عليه أن يقضي لها ضرورتها، حتى تذهب إلى حال سبيلها ويجب على الفتاة أو المرأة التي تضطرها هذه الضرورة أن تلتمس الخروج من هذه الضرورة، بنت شعيب قالت:

﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

هي التي بحثت عن حل واحد يقوم بهذه المهمة، نحن لا نمنع أن تخرج المرأة إلى العمل، ولكن تخرج إلى العمل إن كان في محيط أسرتها، فما أكثر ما تقدم المرأة الأمية الجاهلة في ريفنا من عمل لكن مع من؟ مع أبيها مع أخيها في محيطها ليس في هذا شيء، فإن اضطرتها الظروف إلى أن تخرج، فلتخرج في حشمتها وفي وقارها، وفي اتزانها ولا تجعل هذه الضرورة تبيح لها أن تختلط بالشباب ماشاء لها الاختلاط، هبوا أن ضرورة دعت المرأة وضرورة ملحة لأن المجتمع، مجتمع ليس فيه رجولة حين يرى امرأة خرجت إلى العمل لا يمكنها من إنهاء طلبها لترجع إلى حال سبيلها، لا رجولة خاصة في محيط القوى ولا رجولة عامة في المجتمع وتركت المرأة لحال سبيلها تكافح في الحياة، ما هو الرابط بين أن تتبرج لتخرج على أبهى زينتها وأكمل حلتها؟ ما هي العلاقة بين هذا وهذا؟ الفتاة التي تخرج لتتعلم قلنا أنها ضرورة اضطرتها إلى الاختلاط، فما ضرورة أن يكون ميدان الجامعة ميدان تبرج، تلبس أحسن الأزياء، أنا قلت سابقًا هل العلم لا يسمع إلا من بين الصدور؟ الثدي يكون ظاهرًا هل العلم

لا يستقبل إلا بالسيقان المكشوفة؟ هل العلم لا يؤتى إلا باللباس الكاشف؟

تعقلوا يا قوم هناك فرق بين ضرورات تدعو لها الحياة بكمالها وجلالها وشرفها الفتاة حين تخرج كما نشاهد الآن تلح في عرض نفسها على الرجل لأن مبالغة المرأة في تبرجها خارج منزلها إلحاح في عرض نفسها على الرجل يعني «بص يا بجم» الشباب ليس في حاجة إلى من يجلد غرائزه، حسبه سُعار غريزته في سنه فلا تلهب غرائزه فوق ذلك، يحتاج إلى مبردات لا إلى مهيجات، فرقوا يا قوم بين حركة العمل في الحياة وبين إغراءات هذه الحياة، أظن أن فتاة تخرج للعمل محتشمة في زيها الوقور الجميل، لا توحي لواحد أن يتقبلها بكلمة جارحة، ولأن الله يقول:

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

يعرفن يعني يعرف أن هذه محتشمة ليس قصدها أن تعرض جمالها على الناس من أجل أن تستميلهم فما دام عرف عنها هذا فلا يقدر أحد أن يقول لها كلمة ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾.

يعني أنهن متبرجات من أجل أن يسترعين النظرات إليهن ولا إلى الكلام ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، كل ذلك تظن الفتاة أن الإسلام قد قسا عليها، والإسلام في ذلك إنما يؤمن حياتها الجمالية، اسمعوا هذا التعبير الجديد، فيه تأمين ضد الحياة المالية، يأخذ مني وأنا غني من أجل أن يعطيني وأنا محتاج، هذا التأمين فيه تأمين جمال، ما هو التأمين الجمالي هذا، الفتاة حين يريد الله منها أن تكف شر جمالها عن الشباب، لا يريد أن يقيد حريتها، إنما يريد أن يؤمن حياتها حين تكون شيخة كهلة شائبة مغبشة، إن الذي تزوج استقر له الأمر وأصبح له أولاد، لاشك أن امرأته فقدت النضرة التي من أجلها تزوجها، فإذا لم ير غيرها مهيجًا ظن أنها هكذا لأن الشيء لا يتغير عن مديم النظر إليه، يعني الإنسان عندما يتزوج زوجته غدًا كاليوم

وبعد غد كاليوم لا يمكن أن يعرف الفارق أبدًا، يفضل الفارق هكذا، كما أنك لو نظرت إلى طفلك الوليد طول حياتك لا تراه يكبر أبدًا، إنما هو يكبر خلسة منك، إن غبت عنه شهرين تراه كبر، كذلك إذا تزوج اليوم، غدا المرأة لا تتغير كثيرًا عن الأمس وهكذا تأخذها تلتفت تلاقي الشيب دب إليها بدون أن يشعر، فتظل الحياة مربوطة رباطًا عقليًا وإن لم ترتبط رباطًا عاطفيًا، فحين لا يرى الرجل مهيجًا في الشارع يظن أن امرأته ليس هناك غيرها في الدنيا.

لكن عندما تبلغ المرأة سن الأربعين وخمسة وأربعين وهو ما شاء الله زي ما بيقولوا متعطش ويرى بنتًا في سن السادسة عشرة يبقى كتر الله خيره إذا ذهب إلى البيت و لم يتف «يبصق» إنما لو أن هذه محتشمة ولا تبدي زينتها إلا ما ظهر منها:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ﴾[النور: ٣١].

كان لازم هي زوجته الموجودة في الكون، إنما قولوا للفتاة التي تحاول أن تصنع هكذا ليعربد رجال متزوجون على نسائهم حين يرون فارق المقاييس قولوا إن عدالة السماء ستقفها هي هذا الموقف وحين تصير في سن الأربعين سيرزقها الله واحدة في سن السادسة عشرة لتفسد عليها حياتها مع زوجها ومع أولادها فهو حين يأمر بحجابها في سن الجمال المخيف إنما أراد أن يحجب عنها الجمال المخيف حينما تفقد هي هذا الجمال لتظل إدامة الأسرة مبنية على مقاييس العاطفة أولاً، وعلى مقاييس العاطفة والعقل ثانيًا، وعلى مستوى الروابط الجديدة التي تربط الرجل بامرأته أسريًا

فالإسلام إذن حين يشق على الفتاة بأنها تفعل كذا وكذا هو يفعل لها أيضًا، لا تظن أن الإسلام قد أخذ قطاعًا من الحياة فاضطهده وإنما هو قد أخذ قطاعًا من الحياة لينصلح به كل قطاعات الحياة، والله مأمون على ما شرع لنا من قيم.



النصيحة الثالثة والثلاثون:

حُسْنُ التعبدِّ.. وَحُسْنُ التبعّل

قال الحق سبحانه في وصف المرأة الصالحة:

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية:

والمرأة الصالحة هي المرأة التي استقامت على المنهج الذي وضعه لها مَنْ خَلَقَها في نوعها، فما دامت هي صالحة تكون قانتة، والقنوت هو دوام الطاعة لله، ومنه قنوت الفجر الذي نقنته، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت.

والمرأة القانتة خاضعة لله، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء..

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾..

وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة. فالمرأة حين يغيب عنها الراعي لها والحامي لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم، والزوج بالنسبة للزوجة، فكل امرأة في ولاية أحد لابد أن تحفظ غيبته، ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدد المرأة الصالحة قال في حديث عن الدنيا:

«**الدُّنيا كُلّها متاع، وَخَيْرُ متاع الدنيا المرأةُ الصَّالحة**»(١).

لقد وضع ﷺ قانونًا للمرأة الصالحة يقول فيه: «**خَيْرُ النِّساء التي تسرّه إذا نَظَر**

(١) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

وتطيعه إذا أَمَر ولا تخالفه في نَفْسها ولا مالها بما يَكْره»[(١)].

وأي شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك. وكلمة «**إن نظرت إليها سرتك**» إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط، جمال المبنى، لا، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة؛ لأن النبي ﷺ حذرنا من أن نأخذ صفة في المرأة ونترك صفة أخرى، بل لابد أن نأخذها في مجموع صفاتها فقال: «**تُنْكحُ المرأةُ لأَرْبَعٍ: لمالها، ولحسبها، ولجمالِهَا ولدِينها، فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّين تَرِبَتْ يَدَاك**»[(٢)].

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة في الجمال، بل انظر إلى كل الزوايا، فلو نظرت إلى الزاوية التي تشغل الناس، الزاوية الجمالية، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة؛ لأن عمر هذه المسألة «شهر العسل» - كما يقولون - وتنتهي، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى، فإن دخلت علىمقوم واحد وهي أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك، وتظن أنك تريدها سيدة صالون! ونقول لك: هذه الصفة أمدها بسيط في عمر الزمن، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة، أن تكون مخلصة، أن تكون مدبرة؛ ولذلك فالفشل ينشأ في الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية، وهذا المقياس الواحد عمره قصير، يذهب بعد فترة وتهدأ شِرَّته، وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحي الجمال الأخرى، فلا يجدها، فيحدث الفشل؛ لذلك لابد أن تأخذ بمجموعة الزوايا كلها، إياك أن تأخذ زاوية واحدة، وخير الزوايا أن يكون لها دين، وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزواج، أيضًا خير الزوايا أن يكون له دين، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتاكم مَنْ تَرْضَوْن خُلُقَهُ ودِينهُ فَزوّجوه إن لا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرض وَفَسَاد عَرِيض**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وغيرهما.

(٣) أخرجه الترمذي، وغيره.

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «زَوِّجها من ذي الدين، إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها».

إذن فالدين يرشدنا: لابد أن ننظر إلى المسألة التي سيكون لها عمر طويل في الحياة الممتدة، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها في بيتها، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود، أو تتعلم التطريز كي لا تدفع أجرة، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه، أن تتعلم كي تغني عن مدرس خصوصي يأخذ نقودًا من دخل الأسرة، وإن بقي عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة، وتستطيع المرأة أن تقوم بأي عمل وهي جالسة في بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التي لا تقدر أن تفعلها، والمرأة تكون من «حافظات الغيب» ليس بارتجالٍ من عندها أو باختيار، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب...

فما المنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها في غيبته، فتنظر المنافذ التي تأتي منها الفتنة وتمتنع عنها، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كي لا ترى أحدًا يفتنها أو يُفْتَن بها؛ لأن هذه هي مقدمات الحفظ، ولا تذهب في زحمة الحياة، وبعد ذلك نقول لها: «حافظي على الغيب» بل عليها أن تنظر ما بيَّنه الله في ذلك. فإن اضطررت أن تخرجي فلتغضي البصر؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١].

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفي؛ لأن كل شعور في الإنسان له

ثلاث مراحل:

- مرحلة أن يدرك.
- ومرحلة أن يجد في نفسه.
- ومرحلة أن ينزع. أي يحول الأمر إلى سلوك.

ونضرب دائمًا المثل بالوردة، وأنت تسير ترى وردة في بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان، وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية، فكم مرحلة؟ **ثلاث مراحل:**

- إدراك.
- فوجدان.
- فنزوع.

ومتى يتدخل الشرع؟ الشرع يتدخل في عملية النزوع دائمًا، يقول لك: أنت نظرت إلى الوردة و لم نعترض على ذلك، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئًا، لكن ساعة جئت لتمد يدك لتأخذها قلنا لك: لا، الوردة ليست لك.

إذن: فأنت حرّ في أن تدرك، وحرّ في أن تجد في نفسك، إنما ساعة تنزع نقول لك: لا، هي ليست لك، وإن أعجبتك فازرع لك وردة في البيت، أو استأذن صاحبها مثلاً.

إذن: فالتشريع يتدخل في منطقة النزوع، إلا في أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك؛ لأن الذي خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً، نظرنا له، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التي نراها ونشتهيها، وساعة يوجد إدراك واشتهاء، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع؛ لأنك – كرجل – مركب تركيبًا كيميائيًّا بحيث إذا أدركت جمالا ثم حدث لك وجدان واشتهاء، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع، فبين لك

الشرع: أنا رحمتك من أول الأمر، وتدخلت من أول المسألة. وكل شيءٍ أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر، وكذلك أمر المرأة.

لماذا؟ لأنك إن أدركت فستجد، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكن عربدة في أعراض الناس، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا؟ لأنني عندما أرى وردة، ثم قالوا لي: هي ليست لك فلا تقطفها، فلا يحدث عندي ارتباك في مادتي، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل في وجدانه فسيحدث عنده النزوع؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال، ولذلك يوضح لك الحق: أنا خالقك وسأتدخل في المسألة من أول الأمر، فقوله:

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النساء: ٣٤].

أي بالمنهج الذي وضعه الله للحفظ: ألا أعرِّض نفسي إلى إدراك، فينشأ عنه وجدان، وبعد ذلك أفكر في النزوع، فإن نزعت أفسدت، وإن لم تنزع تعقدت، فيأتي شر من ذلك، هذا معنى ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ يعني انظروا إلى المنهج الذي وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها، وهي تحفظه ليس بمنهج من عندها، بل بالمنهج الذي وضعه خالقها وخالقه.

۞۞۞۞۞

النصيحة الرابعة والثلاثون

كوني قُدْوَة صَالحة

تتعلّق أنظارُ الأطفال بآبائهم، ويتأثرون بأفكارهم وأحوالهم، لذا كانت القدوة الصّالحة لها أثرها الطيّب في مجال التربية.

وحول هذا الموضوع يحدّثنا **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فيقول:

وهذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم، والتقليد هو نشأة طبيعية في الإنسان، لأن الإنسان حين يخرج للوجود مُمدًّا بطاقة الحياة؛ فهذه الطاقة تريد أن تتحرك؛ وحركتها تأتي دائمًا وفق ما ترى من حركة السابق لها، فالطفل الصغير لا يعرف أن يده تتناول أشياء إلاّ إذا رأى في البيئة المحيطة به إنسانًا يفعل ذلك، وحين يريد الطفل أن يتحرك، فهو يقلد حركة الذين حوله، ولذلك تجد الأطفال دائمًا يقلدون آباءهم في معظم حركاتهم، وحين يوجد الأطفال مع أجيال متعاقبة تمثل أعمارًا مختلفة، فإن الطفل الصغير يقلد في حركته البدائية خليطًا من حركات هذه الأجيال، فهو يقلد جده، ويقلد جدته، ويقلد أباه وأمه، وإخوته، فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها.

ولذلك فاندماج الطفل في أسرة مكونة من آباء وأجداد، تمثل في الإنسان طبيعة

الحياة المتصلة بمنهج الحركة في الأرض وبمنهج السماء؛ لأن الطفل حين يعيش مع أبيه فقط، قد يجده مشغولاً في حركة الحياة التي ربما شدته عن قيم الحياة أو عن منهج السماء؛ لكنه يرى أبا لأبيه؛ هو جده قد فرغ من حركة الحياة، وتنبه إلى منهج القيم؛ لأنه قريب عهد فيما يظن بلقاء الله، فإن كان لا يصلي في شبابه فهو يصلي الآن، وإن كان لا يفعل الطاعات سابقًا؛ أصبح يفعلها الآن، وهكذا يرى الطفل حركة الحياة الجامحة في الدنيا والتلهف عليها من أبيه، ويجد الإقبال على القيم والعبادات من جده، ولذلك تجده ربما عاون جده على الطاعة؛ فساعة يسمع الطفل المؤذن يقول: «الله أكبر»، فهو يعرف أن جده يريد أن يصلي؛ فيذهب هو ويأتي بالسجادة ويفرشها لجده؛ ويقف مقلدًا جده، وإن كانت بنتًا، فنحن نجدها تقلد أمها أو جدها وتضع الغطاء على رأسها لتصلي، إذن فاندماج الأجيال يعطي الخير من الحركتين، حركة الحياة وحركة قيم منهج السماء، ولذلك يمتن الحق علينا قائلاً: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

إذن: فتقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمر تقتضيه طبيعة الوجود، وحين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما ينزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء في كل حركاتهم، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج، لذلك يدعونا ويأمرنا سبحانه أن ننخلع عن هذه الأشياء ونتبع ما أنزل الله، ولا نهبط إلى مستوى الأرض، لأن عادات ومنهج الأرض قد تتغير، ولكن منهج السماء دائمًا لا يتغير، فاتبعوا ما أنزل الله.

والناس حين يحتجون يقولون: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وتلك قضية تبريرية في الوجود، ولو كان ذلك حقًا وصدقًا، ومطابقًا للواقع، لما كرر الله الرسالات بعد أن علَّم آدم كل المنهج الذي يريد؛ لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم، وهكذا يظل منهج

السماء موجودًا متوارثًا فلا تغيير فيه.

إذن: فما الذي اقتضى أن يتغير منهج السماء[1]؟ إن هذا دليل على أن الناس قد غيروا المنهج، ولذلك فقولهم: ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ هي قضية مكذوبة، لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم؛ لظل منهج الله في الأرض مضيئًا غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرًا بانحرافات أهل الأرض عن منهج السماء، وهو تبرير يكشف أن ما وجدوا عليه آباءهم يوافق أهواءهم.

وقوله الحق: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أي اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعًا وكونوا تابعين لهذا المنهج؛ لا تابعين لسواه، لأن ما سوى منهج السماء هو منهج من صناعة أهل الأرض، وهو منهج غير مأمون، وقولهم: ﴿مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي ما وجدنا عليه آباءنا، وما تفتحت عليه عيوننا فوجدناه حركة تُحتذى وتُقتدى.

والحق يبين لهم أن هذا كلام خاطئ، وكلام تبريري وأنتم غير صادقين فيه، وعدم الصدق يتضح في أنكم لو كنتم متبعين لمنهج السماء؛ لما تغير المنهج، هذا أولاً، أما ثانيًا: فأنتم في كثير من الأشياء تختلفون عن آبائكم، فحين تكون للأبناء شخصية وذاتية فإننا نجد الأبناء حريصين على الاختلاف، ونجد أجيالاً متفسخة، فالأب يريد شيئًا والابن يريد شيئًا آخر، لذلك لا يصح أن يقولوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لأنه لو صح ذلك لما اختلف منهج الله على الأرض لكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر، ومع ذلك نرى بعضًا من الخلاف في سلوك الأبناء عن الآباء، ونقبل ذلك ونقول: هذا بحكم تغيير واختلاف الأجيال، أي أن الأبناء أصبحت لهم ذاتية، ولذلك فالقول باتباع الأبناء للآباء كذب لا يمثل الواقع.

والحق سبحانه وتعالى يرد على هذه القضية لأنها قضية تبريرية لا دليل لها من

---

(١) الأَوْلى أن يقال: منهج الله.

صدق، ولا برهان لها من واقع، ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي أيتبعون ما وجدوا عليهم آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون؟!

إذن الرد جاء من ناحيتين، من ناحية التعقل، ومن ناحية الاهتداء، وكل من التعقل والاهتداء منفي عن الآباء في هذه الآية، فأنتم تتبعونهم اتباعًا بلا تفكير، اتباعًا أعمى، والإنسان لا يطيع طاعة عمياء إلا لمن يتيقن صدق بصيرته النافذة المطلقة، وهذا لا يمكن أن تتأتى مِن بشر إلى بشر، فالطاعة المطلقة لا تصح أن تكون لشيء إلا لمنهج السماء، وحين تكون طاعة عمياء لمن تثق ببصره الشافي الكافي الحكيم؛ فهي طاعة مبصرة وبصيرة في آن واحد، لأنك تحمي نفسك من خطأ بصرك، وخطأ بصيرتك، وتلتزم في التبعية بمن تعتقد أن بصره وبصيرته لا يخطئان أبدًا، عندها لا تكون طاعة عمياء.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنه لا يصح أن تقولوا: إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم؛ لأنه يجوز أن يكون آباؤكم لا يعقلون، ويجوز أن يكونوا غير مهتدين، لو كان آباؤكم لهم عقل أو لهم اهتداء، عند ذلك يكون اتباعكم لهم أمرًا سليمًا، لا لأنكم اتبعتم آباءكم، ولكن لأنكم اتبعتم المعقول والهدى.

وهكذا نجد أن قضية التقليد هي أمر مزعوم، لأنك لا تقلد مساويك أبدًا؛ ولكنك تتبع من تعتقد أنه أحكم منك، ومادام مساويًا لك فلا يصح أن تقلده في كل حركة، بل يجب أن تعرض الحركة على ذهنك، ولذلك فتكليف الله لعباده لم ينشأ إلا بعد اكتمال العقل بالبلوغ، فهو سبحانه لا يأخذ العقل على غرة قبل أن ينضج؛ بل لا يكلف الله عبدًا إلا إذا نضج عقله؛ ولا يكلفه إن لم يوجد له عقل، ولا يكلفه إن لم تكن قوته وراء عقله؛ فإن كان الإنسان سليم القوة والعقل فإن تكليفه يكون تامًا، فسبحانه لا يكلف إلا صاحب العقل الناضج والذي لديه قدرة تمكنه من

تنفيذ ما اهتدى إليه عقله، أي: غير مُكره، فالذي يكلف الإنسان بمقتضى هذه الأشياء هو عالم أن العقل إن وجد ناضجًا بلا إكراه فلابد أن يهتدي إلى قضية الحق.

إن الحق سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد أن تكتمل كل ملكات نفسه، لأن آخر مَلَكَة تتكون في الإنسان هي مَلَكَة الغريزة، أي أن يكون صالحًا للإنجاب، وصالحًا لأن تمتد به الحياة، وقلنا من قبل: إن الثمرة التي نأكلها لا تصبح ثمرة شهية ناضجة إلا بعد أن تؤدي مهمتها الأولى؛ فمهمتها ليست في أن يأكلها الإنسان فقط، إنما أن توجد منها بذرة صالحة لامتداد الحياة، وعندما توجد البذرة يكون أكل الثمرة صالحًا، كذلك الإنسان؛ لا يكون صالحًا لامتداد الحياة إلا بعد البلوغ أو في سن البلوغ، وسبحانه وتعالى جعل لهذه الغريزة سعارًا؛ لأن الحياة التي ستأتي من خلالها لها تبعات أولاد ومشقات، فلو لم يربطها الله بهذه اللذة لانصرف عنها كثير من الناس، لكنه سبحانه يربطها باللذة حتى يوجد امتداد الحياة بدافع عنيف وقوي من الإنسان.

فالحق سبحانه لا يفاجئ الإنسان بتكليف إلا بعد أن يُعده إعدادًا كاملاً، لأنه لو كلفه قبل أن ينضج غريزيًّا، وقبل أن تصبح له قدرة على استبقاء النوع، لقال الإنسان: إن الله كلفني قبل أن يُوجد فيَّ ذلك، عندئذ لا يكون التعاقد الإيماني صحيحًا.

ولذلك يؤخر الحق تكليفه لعباده حتى يكتمل لهم نضج العقل ونضج الغريزة معًا، وحتى يدخل الإنسان في التكليف بكل مقوماته، وبكل غرائزه، وانفعالاته؛ حتى إذا تعاقد إيمانيًّا؛ فإن عليه أن يلتزم بتعاقده.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يُربي في الإنسان ذاتيته من فور أن يصبح صالحًا لاستبقاء النوع في غيره، ومادامت قد أصبحت له ذاتية مكتملة، فالحق يريد أن يُنهي عنه التبعية لغيره، عند ذلك لا يقولن أحد: «أفعل مثل فعل أبي»، لكن

هناك من قالوا: ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لماذا يتبعون آباءهم في المنهج الباطل، ولا يتبعوهم في باقي أمور الدنيا، وفي الملابس، وفي الأكل، وفي كل مناحي الحياة؟!

إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتم لآبائهم في أشياء رأوها في سلوك الآباء وخالفوهم فيها، وماداموا قد خالفوهم في أشياء كثيرة؛ فلماذا يتبعوهم في الدين الزائف؟!

إن الله يريد أن يخلص الإنسان من إسار هذا الاتباع، ويلفت العباد، تعقلوا يا من أصبحت لكم ذاتية، وليعلم كل منكم أنه بنضج العقل يجب أن يصل إلى الهداية، إلى الخالق الواحد الأحد، فإن كنت قد التحمت بأبيك في أول الأمر لأنه يعولك ويمدك، فهذا الأب هو مجرد سبب أراده الله لك، ولكن الله هو خالقك، وهو الذي أنزل المنهج الذي يجب أن تلتحم به لتصير حياتك إلى نماء وخير، وهو سبحانه يقول: ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣].

إن الحق سبحانه وتعالى يفصل لنا هذا الأمر بدقة، فإذا كان الآباء لا يعقلون؛ فماذا عن موقف الأبناء؟ إن على الأبناء أن يصلوا أنفسهم بمنهج الحق، وقد وردت في سورة «المائدة» آية أخرى بالمعنى نفسه ولكن بخلاف في اللفظ، فهنا في سورة «البقرة» يقول الحق: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ .

وفي آية سورة «المائدة» يقول الحق: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وبين الآيتين اتفاق واختلاف، فقوله الحق هنا: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ وهي

تعني: أن نمعن النظر وأن نطبق منهج الله، وآية سورة «المائدة»: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ هذا هو **الخلاف الأول**.

والخلاف الثاني في الآيتين: هو في جوابهم على كلام الحق، ففي هذه السورة «البقرة» قالوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ وهذا القول فيه مؤاخذة لهم، لكنهم في سورة «المائدة» قالوا: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ وهذه تعني أنهم اكتفوا بما عندهم؛ ونفوا اتباع منهج السماء، وهذا الموقف أقوى وأشد نفيًا، لذلك نجد أن الحق لم يخاطبهم في هذه الآية بـ ﴿ ٱتَّبِعُواْ ﴾ بل قال لهم: ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ أي: ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء، ومادمتم قد قلتم: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ بملء الفم؛ فهذا يعني أنكم اكتفيتم بما أنتم عليه.

وكلمة ﴿ حَسْبُنَا ﴾ فيها بحث لطيف؛ لأن من يقول هذه الكلمة قد حَسبَ كلامه واكتفى، وكلمة «الحساب» تدل على الدقة، والحساب يفيد العدد والأرقام، فقولهم: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ تعني أنهم حسبوا الأمر واكتفوا به، ونجد كل ورود لهذه الكلمة في القرآن يفيد أنها تأتي لحساب الرقم المادي، ومرة تأتي لحساب الإدراك الظني، فالحق يقول:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٢].

ومعناها: هل ظن الناس أن يتركوا دون اختبار لإيمانهم؟! هذا حساب ليس بالرقم، وإنما حساب بالفكر، والحساب بالفكر يمكن أن يخطئ، ولذلك نسميه «الظن».

والحق سبحانه يقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إذن: فكلمة «حساب» تأتي مرة بمعنى الشيء المحسوب والمعدود، ومرة تأتي في المعنويات، ونعرفها بالفعل، فإذا قلت: «حَسَبَ يَحسِب»، فالمعنى: عَدَّ، وإذا قلت:

« حَسبَ يَحسَب »؛ فهي للظن.

وفيه ماضٍ وفيه مضارع، إن كنت تريد العد الرقمي الذي لا يختلف فيه أحد تقول: « حَسَبَ » بفتح السين في الماضي، وبكسرها في المضارع « يَحسِب » وإن أردت بها حسبان الظن الذي يحدث فيه خلل تقول: « حسِبَ » بالكسر، والمضارع « يَحْسَبُ » بالفتح.

وعندما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن حساب الآخرة، فمعنى ذلك أنه شيء محسوب، لكن إذا بولغ في المحسوب يكون « حسبانًا »، وكما نقول: « غفر غفرًا » و« شكر شكرًا » يمكن أن نقول: « غفر غفرانًا »، و« شكر شكرانًا »، كذلك « حسب حسبانًا »، و« الحسبان » هو الحساب الدقيق جدًّا الذي لا يخطئ أبدًا.

ولذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى بكلمة « حسبان » في الأمور الدقيقة التي خلقت بقدر ونظام دقيق، إن اختل فيها شيء يحدث خلل في الكون، فيقول:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن: ١- ٥].

أي أن الكون يسير بنظام دقيق جدًّا لا يختل أبدًا، لأنه لو حدث أدنى خلل في أداء الشمس والقمر لوظيفتهما؛ فنظام الكون يفسد، لذلك لم يقل الحق: « الشمس والقمر بحساب » وإنما قال: ﴿ بِحُسْبَانٍ ﴾ وبعد ذلك فيه فرق بين « الحسبان »، و« المحسوب بالحسبان »، والحق سبحانه وتعالى حينما يقول:

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ [الأنعام: ٩٦].

لم يقل: « بحسبان »، لأنها هي في ذاتها حساب وليست محسوبة، أي أن حسابها آلي.

وتأتي الكلمة بصورة أخرى في سورة « الكهف » في قوله تعالى:

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الكهف: ٤٠].

المعنى - هنا - شيء للعقاب على قدر الظلم تمامًا هذه هي مادة «الحساب».

وقولهم: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ في ظاهرها أبلغ من قولهم: ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لكن كل من اللفظين مناسب للسياق في الذي جاء فيه، فـ ﴿ ٱتَّبِعُواْ ﴾ يناسبها ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ ﴾ يناسبها قولهم: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ يعني: كافينا ما عندنا ولا نريد شيئًا غيره.

ومن هنا نفهم لماذا جاء الحق في آية «البقرة» بقوله: ﴿ ٱتَّبِعُواْ ﴾ وفي آية «المائدة»: ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾ وجاء جوابهم في سورة «البقرة»: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ ﴾، وفي سورة «المائدة»: ﴿ حَسْبُنَا ﴾.

وهناك **خلاف ثالث** في الآيتين:

ففي آية «البقرة» قال: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا ﴾، وفي آية «المائدة» قال: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، الخلاف في: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، و﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وما الفرق بين ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾، و﴿ يَعْلَمُونَ ﴾؟

إن ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعني ما ينشأ عن فكرهم وتدبرهم للأمور، لكن هناك أناس لا يعرفون كيف يعقلون، ولذلك يأخذون القضايا مسلمًا بها كعلم من غيرهم الذي عُقل.

إذن فالذي يعلم أقل منزلة من الذي يعقل، لأن الذي عقل هو إنسان قد استنبط، وأما الذي عَلم فقد أخذ علم غيره، وعلى سبيل المثال: فالأميّ الذي أخذ حكمًا من الأحكام هو قد علمه من غيره، لكنه لم يتعقله؛ إذن فنفي العلم عن شخص أبلغ من نفي التعقل؛ لأن معنى «لا يعلم» أي أنه ليس لديه شيء من علم غيره أو علمه.

وعندما يقول الحق سبحانه: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴾ فمعنى ذلك أنه من المحتمل أن يعلموا، لكن عندما يقول: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فمعناه أنهم لا يعقلون ولا يعلمون، وهذا يناسب ردهم، فعندما قالوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ ﴾ فكان وصفهم بـ ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وعندما قالوا: ﴿ حَسْبُنَا ﴾ وصفهم بأنهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ كالحيوانات تمامًا.

نخلص مما سبق أن هناك ثلاث ملحوظات على الآيتين:

في الآية الأولى قال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ ﴾، وكان الرد منهم: ﴿ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا ﴾، والرد على الرد: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ﴾.

وفي الآية الثانية: قال: ﴿ تَعَالَوْاْ ﴾، وكان الرد منهم: ﴿ حَسْبُنَا ﴾، فكان الرد عليهم: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾.

وهكذا نرى أن كلاً من الآيتين منسجمة، ولا يقولن أحد: إن آية جاءت بأسلوب، والأخرى بأسلوب آخر، فكل آية جاءت على أسلوب يتطلبها، فهي الأبلغ، فكل آية في القرآن منسجمة كلماتها مع جملها ومع سياقها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ مبنية للمفعول ليتضمن كل قول جاء على لسان أي رسول من الله من بدء الرسالات، فهي ليست قضية اليوم فقط إنما هي قضية قيلت من قبل ذلك، إن المعنى هو: إذا قيل لهم من أي رسول: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ قالوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

ويختم الحق الآية في سورة «البقرة» بقوله: ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ وكذلك كان ختام آية «المائدة» ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾، لنعلم أن هدى السماء لا يختلف بين عقل وعلم، فالأولى جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾، والثانية جاءت في ختام قوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ وذلك للدلالة على أن هدى السماء لا يختلف بين مَن يعقلون ومَن يعلمون.



النصيحة الخامسة والثلاثون:

من علامات الإيمان: لزوم الاستقامة

قال تعالى:

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود: ١١٢].

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

و«الاستقامة» معناها: عدم الميل أو الانحراف - ولو قيد شعرة - وهذا أمر يصعب تحقيقه؛ لأن الفاصل بين الضدين، أو بين المتقابلين هو أدق من الشعرة في بعض الأحيان.

ومثال ذلك: حين ترى الظل والضوء، فأحيانًا يصعد الظل على الضوء، وأحيانًا يصعد الضوء على الظل، وسنجد صعوبة في تحديد الفاصل بين الظل والنور، مهما دقت المقاييس.

وهكذا يصبح فصل الشيء عن نقيضه صعبًا، ولذلك فالاستقامة أمر شاق للغاية.

وساعة أن نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : «شَيَّبَتْني هُودٌ وأخواتُها»(١).

ولولا أن قال الحق - سبحانه - في كتابه الكريم:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٣٥٠)، وغيره، وأخوات سورة «هود» التي شيّبت النبي ﷺ : سورة الواقعة، والمرسلات، والنبأ، والتكوير. انظر «سنن الترمذي» (٣٢٩٧).

فلولا نزول هذه الآية لتعب المسلمون تمامًا، وقد أنزل الحق - سبحانه - هذا القول بعد أن قال:

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وعزَّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ ، فانزل الحق - سبحانه - ما يخفف به عن أمة محمد ﷺ بأن قال - سبحانه -:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

إذن: فالأمر بالاستقامة هو أمر بدقة الأداء المطلوب لله أمرًا ونهيًا، بحيث لا نميل إلى جهة دون جهة.

وهكذا تطلب الاستقامة كامل اليقظة وعدم الغفلة.

ويقول الحق - سبحانه -:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

وهذا إيذان بألاَّ ييأس رسول الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمام دعوته ﷺ ؛ لأنهم سيتساقطون يومًا بعد يوم.

وقوله الحق - سبحانه -:

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

يعني ألا نتجاوز الحد، فالطغيان هو مجاوزة الحد.

وهكذا نعلم أن الإيمان قد جعل لكل شيء حدًّا، إلا أن حدود الأوامر غير حدود النواهي؛ فالحق - سبحانه - إن أمرك بشيء، فهو يطلب منك أن تلتزمه ولا تتعداه.

وقال الحق - سبحانه -:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وهذا القول في الأوامر، أما في النواهي فقد قال – سبحانه –:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أي: أن تبتعد عنها تمامًا.

ويقول رسول الله ﷺ : «**من وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه**»[(١)].

وحين ينهانا الحق – سبحانه – عن الاقتراب من شيء فهذه هي استقامة الاحتياط، وهي قد تسمح لك بأن تدخل في التحريم ما ليس داخلاً فيه، فمثلاً عند تحريم الخمر، جاء الأمر باجتنابها أي: الابتعاد عن كل ما يتعلق بالخمر حتى لا يجتمع المسلم هو والخمر في مكان.

وجعل الحق – سبحانه – أيضًا الاستقامة في مسائل الطاعة، وهو – سبحانه – يقول:

﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ [الأنعام:١٤١].

والنهي عن الإسراف هنا؛ ليعصمنا الحق – سبحانه – من لحظة نتذكر فيها كثرة ما حصدنا، ولكننا لا نجد ما نقيم به الأَوْد[(٢)].

فقد يسرف الإنسان لحظة الحصاد لكثرة ما عنده، ثم تأتي له ظروف صعبة فيقول: يا ليتني لم أُعْطِ. وهكذا يعصمنا الحق – سبحانه – من هذا الموقف.

ويقول رسول الله ﷺ : «**سَدِّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحبّ الأعمال أدومها إلى الله وإن قَلّ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) الأود : أي ما يكون قوتًا ضروريًا له، فتقوم به حياته.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

لأن الدين قوي متين[١] و: «**لن يشاد الدِّين أحَدٌ إلا غَلَبه**»[٢].

وهكذا نجد الحق - سبحانه - ونجد رسوله ﷺ أعلم بنا، والله لا يريد منا عدم الطغيان من ناحية المحرمات فقط، بل من ناحية الحِلِّ أيضًا، فيوصينا - سبحانه - بالرفق واللين والهوادة، وأن يجعل الإنسان لنفسه مُكْنة الاختيار.

ومثال ذلك: أن يلزم الإنسان نفسه بعشرين ركعة كل ليلة، وهو يلزم نفسه بذلك نذرًا لله تعالى في ساعة صفاء، لكنه حين يبدأ في مزاولة ذلك القدر يكتشف صعوبته، فتكرهه نفسه.

ولذلك يأمرنا الحق - سبحانه - بالاستقامة وعدم الطغيان؛ استقامة في تحديد المأمور به والمنهى عنه؛ ولذلك كان الاحتياط في أمر العبادات أوسع لمن يطلب الاستقامة.

ويقول رسول الله ﷺ: «**الحلال بيِّن، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه**»[٣].

ولذلك يطلب الشارع الحكيم - سبحانه - منها في الاحتياط أن نحتاط مرة بالزيادة، وأن نحتاط مرة بالنقص، فحين تصلي خارج المسجد الحرام، يكفيك أن تكون جهتك الكعبة، أما حين تصلي في المسجد الحرام، فأنت تعلم أن الكعبة قسمن: قسم بنايته عالية، وقسم اسمه «الحطيم» وهو جزء من الكعبة، لكن نفقتهم أيام رسول الله ﷺ قد قصرت؛ فلم يبنوه.

لذلك فأنت تتجه ببصرك إلى البناء العالي المقطوع بكعبيته، وهذا هو الاحتياط بالنقص.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق**».

(٢) أخرج النسائي عن النبي ﷺ: «**إن هذا الدين يُسْر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا ويسّروا واستعينوا بالغدوة والرّوحة وشيء من الدُّلجة**».

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥١)، ومسلم (١٥٩٩).

أما الاحتياط بالزيادة. فمثال ذلك: هو الطواف، وقد يزدحم البشر حول الكعبة، ولا تسمح ظروفك إلا بالطواف حول المسجد.

وهكذا يطول عليك الطواف؛ لكنه طواف بالزيادة، فعند الصلاة يكون الاحتياط بالنقص، أما عند الطواف فيكون الاحتياط بالزيادة.

وهكذا نجد الاحتياط هو الذي يحدد معنى الاستقامة.

وينُهي الحق - سبحانه - الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

وفي الآية السابقة قال سبحانه:

﴿ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١١].

وعلمنا معنى «الخبير» أما المقصود بـــ «البصير» هنا فهو أنه - سبحانه - يعلم حركة العبادة؛ لأن حركة العبادة مرئية.



النصيحة السادسة والثلاثون:

كيف تقاومين السرحان في الصّلاة؟

سُئل الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى - : **كثيرًا ما يجد المصلي نفسه وقد سرح في الصلاة وذهب به عقله إلى أشياء بعيدة وموضوعات منسية، والعجيب أن ذلك لا يكون إلا في الصلاة، فما حكم ذلك؟ وكيف القضاء على هذه الظاهرة؟**

فأجاب: السرحان في الصلاة ظاهرة، إلا أن هذه الظاهرة لا تقف عند حد كظاهرة بل يأتي عمل اختياري فيها للإنسان.

فأثناء الصلاة يأتيك الشيطان ليأخذك إلى خاطر من الخواطر لكن عيبك حينئذ أنك لا تنتبه إلى أنك أُخِذْت إلى خاطر غير ما أنت فيه، يعني الشيطان يعطيك الخيط ثم تبدأ أنت تجر بفكر وتعيش فيه، إذن فالذي ستؤخذ عليه ليس الخاطر الذي يمر بك، ولكن استطراد ذلك الخاطر.

إن لحظة الصلاة هي أقرب ما يكون فيها العبد إلى الله، والشيطان يريد أن يفسد هذه الخلوة بين العبد وربه، فيأتي لك بخاطر، والعقدة التي لم تكن تعرف حلها قبل الصلاة ينبش لك فيها، خيبة الإنسان في تلك اللحظة أنه يظل ينقاد للشيطان، ويبحث في تلك العقدة ويرتب فيها.

وتحضرني هنا قصة للإمام أبي حنيفة ﷺ حينما جاءه شخص يسأله عن ماله الذي خبأه في باطن الأرض ثم نسى مكانه، ويسأله: أين يجده؟

فقال له: ليس لي بذلك علم، ولكني أحتال لك، فإذا جئت بالليل فقم متهجدًا لله طول الليل.

وانصرف الرجل من عنده، ثم جاءه بعد صلاة الفجر فقال له: يا إمام لقد

وجدت المال، قال أبو حنيفة: كيف ذلك؟

قال: لقد نفذت نصيحتك وفي أثناء الصلاة تذكرت مكان المال.

قال أبو حنيفة: والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم مناجاتك مع ربك.

إذن فالشيطان جاء للرجل بخاطر المال وانقاد طوعًا للشيطان ووصل إلى مكان المال، وهكذا الحال مع كل مصلٍّ ليحرمه من مناجاة ربه.

والمَخرج من ذلك سهل، فلو أن المؤمن حين جاءه الشيطان فقال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقطعًا ستمنعك إستعاذتك بالله من وسوسة الشيطان وهمسه، كما قال الله تعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [فصلت: ٣٦].



النصيحة السابعة والثلاثون:

العاصم من السِّحر

اعلمي - أختي المسلمة - أن الذهاب للدجّالين من الكبائر، والاعتقاد فيهم كُفر.

والبديل: هو العلاج الشرعي.

قال الإمام الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

«إن السحر أمر يتعلمه الإنسانُ بالمخالفة لمنهج الله، رغبة من ذلك الإنسان في الخروج عن مبدأ تكافؤ الفرص الممنوح لكل البشر، لذلك فالملكان ينصحان الإنسان الذي يرغب في تعلم مثل ذلك الأمر: أن السحر فتنة، ويحذرانه من الكفر، وكأن التحذير يتضمنُ أن الإنسان الذي سوف يتعلمُ ذلك الأمر لن يقدر على نفسه، وكأن التحذير يوضحُ أن السحرَ لن يعطيَ من يتعلمُهُ شيئًا مفيدًا.

وقلتُ: إننا إذا نظرنا إلى الذين يستخدمون السحر فلسوف نجد هيئة كل منهم غير حسنة، ورزق كل منهم وإن كان في الظاهر كثيرًا، إلا أنه في الحقيقة شحيح لا يبارك الله فيه، وأن أرزاق هؤلاء السحرة تأتي ممن لا يعرفون السحر، ولم نر ولم نسمع أن أحدًا من السحرة سخَّر ما يعرفه من سحرٍ لمنفعته هو، وهذا حالهم شاهد عليهم، ونعوذ بالله من الخذلان.

ولقد كانت البشرية ومازالت تصاب بأمراض فتاكة لا يعرف أحد أسماءها ولا أسبابها إلى أن توصل العلم إلى المجهر فوجدوا علاجًا لبعضها.

وكذلك لم يبق من السحر إلا الذي تعلمتهُ الشياطينُ عن طريق الملكَيْن ببابل

هاروت وماروت؛ والملكان اللذان يعلِّمانه يؤكدان أن كل من يتعلمه يذهب إلى الكفر، وأن الله قد أبقى هذا الجزء من السحر فتنة في الأرض، والحق يحذر المؤمن من الوقوع فريسة في أيدي هؤلاء السحرة والمشعوذين، ويخبره بأنه سبحانه احتفظ بذاته العليا بحق الضر فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

لذلك فالخالق علمنا أن نستعيذ من هؤلاء بطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، كأن نقول: «اللّهم إنك أردت فعلمت، ولكنك احتفظت بالإذن في الضرر لك، فأسألك بما احتفظت به أن تكفيني شر ما علمت».

إن الإنسان المؤمن يلجأ هنا إلى الخالق لينجيه من ابتلاء الفتنة ولكي يعصمه من ضرر ما صنع السحرةُ، لأنه لا أمرَ يضرُّ الإنسانَ إلا بإذن الله، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله تعالى لنا» ا.هـ.

تعقيب مهم:

من الأدوية الشرعية لعلاج السّحر:

(١) قراءة سورة البقرة كل ثلاثة أيام مرّة.

(٢) كثرة قراءة آية الكرسي.

(٣) قراءة الفاتحة، وآية الكرسي، وآخر البقرة، وسورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوذتين على إناء مملوء بالماء - والنَّفَس قريب من سطح الماء أثناء التلاوة - ثم الشرب منه، وصب الباقي على الرأس، والبدن، بعيدًا عن الحمام.

ولا بأس بتكرار ذلك، حتى يأذن الله بالشفاء.

۞۞۞۞۞

النصيحة الثامنة والثلاثون:

عليكِ بقيام الليل

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ : «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأبُ الصّالحين قبلكم، وَقُرْبَةٌ إلى ربّكم، وَمَكْفَرَةٌ للسِّيئات، ومنهاةٌ عن الإثم**»[١].

وقد وصف الحق - سبحانه - عباد الرحمن بقوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

و«البيتوتة» تكون بالليل، حين يأوي الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسعْيه، وبعد أن تقلَّب في ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه، فحين يأوي إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التي تجلَّتْ عليه في ذلك اليوم، وهي نِعَم ليست ذاتية فيه، إنما موهوبة له من الله؛ لذلك يتوجّه إليه سبحانه بالشكر عليها، فيبيت لله ساجدًا وقائمًا.

كما قال سبحانه:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال سبحانه:

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

---

(١) حسن : رواه الترمذي، وحسّنه الألباني.

لكن، أيطلبُ اللهُ تعالى منَّا إلاَّ هجعَ بالليل، وقد قال في آية أخرى:

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ: ٩].

قالوا: ليس المراد قيام الليل كله، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة، كما قال الحق سبحانه وتعالى في خطاب النبي ﷺ :

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ [المزمل: ٢- ٤].

حتى قال ابن عباس: مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجدًا وقائما، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها.

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام﴿ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٤] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا، وآخرين يسهل عليهم السجود، ويصعب عليهم القيام، فذكَر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما.



النصيحة التاسعة والثلاثون:

تعويد الأطفال على أدب الاستئذان

الاستئذان: سلوك يمسّ المجتمع من داخله، والأسرة في أدق خصوصياتها.

قال الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٨﴾ [النور: ٥٨].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - :

تعلمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكونة من الأبوين والأبناء، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم، والحق تبارك وتعالى يريد أن ينشئ هذه الأسرة على أفضل ما يكون، ويخص بالنداء هذه الذين آمنوا. يعني: يا من آمنتم بي حكيمًا مشرعًا لكم حريصًا على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأداب:

﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾.

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتي على صورتين: فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر.

فقوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ﴾. يعني: علموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم. مثل:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣] يعني: استعفوا، لأن اللام هنا لام الأمر. ومثل: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧].

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يكلف به كل مؤمن داخل الأسرة، وإن كان الأمر هنا لغير المأمور، فالمأمور بالاستئذان هم ملك اليمين والأطفال الصغار، فأمر الله الكبار أن يعلموا الصغار، كما ورد في الحديث الشريف: «**مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر**»(١).

فلم يكلف بها الصغار إنما كلف الكبار؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بعد مبلغ التكليف من ربهم، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم، لذلك أنت الذي تأمر وأنت الذي تتابع وتعاقب.

وأمر الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لتربى فيه الدربة والتعود على أمر قد يشق عليه حال كبره، إنما إن عودته عليها الآن فإنه تسهل عليهم عند سن التكليف، وتتحول العادة في حقه إلى عبادة يسير عليها.

وشرع الله لنا آداب الاستئذان؛ لأن الإنسان ظاهرًا يراه الناس جميعًا ويكثر ظاهره للخاصة من أهله في أمور لا يظهرها على الآخرين.

إذن: فرقعة الأهل والملاصقين لك أوسع، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة، وحرية المرء في أسرته أوسع من حريته في المجتمع العام، فإن كان في حجرته الخاصة كانت حريته أوسع من حريته مع الأسرة.

فلابد إذن من ضوابط تحمي هذه الخصوصيات، وتنظم علاقات الأفراد في الأسرة الواحدة، كما سبقت ضوابط تنظم علاقات الأفراد خارج الأسرة.

---

(١) حسن أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٥)، وأحمد في «المسند» (٢/١٨٧).

ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير؛ لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك في أي وقت، أما العبد فليس كذلك؛ لأنه مملوك الرقبة لا حرية له، فالمملوكية راجحة في هؤلاء، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يفلت منه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾. هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلغ التكليف، ويقضون المصالح؛ فتراهم في البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط، فهل نتركهم هكذا يطلعون على خصوصياتنا؟

وللخدم في البيت طبيعة تقتضي أن يدخلوا علينا ويخرجوا، وكذلك الصغار، إلا في أوقات ثلاثة لا يسمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾. لأنه وقت متصل بالنوم، والإنسان في النوم يكون حر الحركة واللباس.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾. وهو وقت القيلولة، وهي وقت راحة يتخفف فيها المرء من ملابسه ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾. وبعد العشاء النوم. هذه أوقات ثلاثة، لا ينبغي لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك.

وانظر إلى هذا التحفظ الذي يوفره لك ربك ﷻ حتى لا تقيد حريتك في أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة، وكأن هذه الأوقات ملك لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك، والاستئذان يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن.

أما في بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة.

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر في أمر من الأمور، فأرسل إليه غلامًا من الأنصار، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى: يا عمر. فلم يرد؛ لأنه كان نائمًا، فخرج الغلام وجلس في الخارج ودق الباب فلم يستيقظ عمر، فماذا يفعل الغلام؟ رفع الغلام يديه إلى السماء وقال: يا رب أيقظه. ثم دفع الباب ودخل عليه، وكان عمر نائمًا على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد، واستيقظ عمر

ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع، فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا ونساؤنا وموالينا وخدمنا، فقد حدث من الغلام كيت وكيت، فنزلت هذه الآية.

ويُسمى الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

والعورة: هي ما يحب الإنسان ألا يراها أحد، أو يراه عليها؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية، والله لا يريد أن يراك أحد على شيء تكرهه.

لذلك يقولون لمن به خلل في عينه مثلاً: أعور، والعرب تقول للكلمة القبيحة: عوراء، كما قال الشاعر:

وعوراء جاءت من أخ فرددها بسالمة العينين طالبة عذرًا

يعني: كلمة قبيحة لم أرد عليها بمثلها، إنما بسالمة لا بعين واحدة، بل بسالمة العينين الاثنين.

ثم يقول سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

يعني بعد هذه الأوقات: لا إثم ولا حرج عليكم، ولا على المماليك، أو الصغار أن يدخلوا عليكم، ففي غير هذه الأوقات يجلس المرء مستعدًّا لممارسة حياته العادية، ولا مانع لديه من استقبال الخدم أو الأطفال الصغار دون استئذان؛ لأن طبيعة المعيشة في البيوت لا تستغني عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار.

لذلك قال تعالى بعدها: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

يعني: حركتهم في البيت دائمة، دخولاً وخروجًا، فكيف نقيدها في غير هذه الأوقات؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

أي: بيانًا واضحًا، حتى لا يحدث في المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾

بكل ما يصلح الخلافة في الأرض، ﴿حَكِيمٌ﴾ في تشريعاته وأوامره. لا يضع الحكم إلا بحكمة.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النور: ٥٩]

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان في غير هذه الأوقات، فإن بلغ الحلم فعليه أن يستأذن، لا نقول: إنه تعود الاستئذان في هذه الأوقات فقط، لا، إنما عليه أن يستأذن في جميع الأوقات فقد شب وكبر، وانتهت بالنسبة له هذه الحالة.

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نضجًا يجعله صالحًا لإنجاب مثله، فهذه علامة اكتمال تكوينه، وهذا لا يتأتى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التي هي سبب النسل والإنجاب، ومَثّلنا ذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها، فإن تركتها بعد النضج سقطت من نفسها، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع، فلو أكلنا الثمرة قبل نضجها لا تنبت بذرها وينقرض نوعها، فمن حكمة الله في الخلق ألا تحلو الثمرة إلا بعد النضج.

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحًا للإنجاب، ونقول له: انتهت الرخصة التي منحها لك الشرع، وعليك أن تستأذن في جميع الأوقات.

لذلك يقول تعالى في موضع آخر:

﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور: ٣١].

وجاء بـــ ﴿ ٱلطِّفْلِ ﴾ بصيغة المفرد، لأن الأطفال في هذه السِّنِّ لم تتكّون لديهم الغريزة، وليست لهم هذه الميول أو المآرب، فكأنهم واحد، أمّا بعد البلوغ

وتكوُّن الميول الغريزية قال: ﴿ ٱلْأَطْفَٰلُ ﴾ [النور: ٥٩]، لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته.

وقوله: ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٩]، أي: من الكبار الذين يستأذون في كل الأوقات؛ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ [النور: ٥٩]، أي مثل ما بيَّنا في الاستئذان الأول؛ ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [النور: ٥٩]، لأنه سبحانه: ﴿ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٥٩]، بما يُصلِحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ٥٩]، لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة.



النصيحة الأربعون:

تَحَلَّيْ بِصِفَاتِ الصَّادقين

الصِّدق: كما قال النبي ﷺ يهدي إلى البرّ، والبرّ يهدي إلى الجنة.

فما هي صفات الصادقين؟

يجيب عن هذا السؤال ربُّ العزّة سبحانه فيقول:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

عندما جاء الأمر من الحق سبحانه وتعالى بتحويل القبلة إلى الكعبة واتجاه المسلمين في صلواتهم إليها بعد أن كانوا يصلون ووجهتهم إلى بيت المقدس، عند ذلك حدثت بلبلة، وصار لكل أتباع ملة قبلة خاصة: فالمسلمون يتجهون إلى الكعبة، واليهود يتجهون إلى بيت المقدس، النصارى يتجهون إلى المشرق.

وهذه الآية تؤكد أن الخلاف ليس في مسألة اتجاه الصلاة، وقبل تحويل القبلة كان كل من يصلي يتجه إلى متجه، وتغيير المتجه ليس فيه مشقة.

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم: لا تجعلوا أمر الاتجاه إلى الكعبة هو كل ﴿ٱلْبِرَّ﴾ ؛ لأن هذا الأمر لا مشقة فيه؛ فلا مشقة في توجه المسلمين إلى الكعبة بعد أن كانوا

متوجهين إلى بيت المقدس، إنما المسألة هي امتثال لأمر الآمر، فالبر إذن ليس في الأمور السهلة التي لا مشقة فيها، وإنما في الخير الواسع الكثير، ويشمل الإيمان، ويشمل التقوى، ويشمل الصدق، ويشمل الطاعة، ويشمل الإحسان، وكل وجوه الخير تدخل في كلمة ﴿ٱلْبِرَّ﴾. فالبر معناه كبير واسع، ومادام معناه متسعًا هكذا فكل ناحية منه تحتاج إلى مشقة.

وانظروا إلى مطلوب ﴿ٱلْبِرَّ﴾ ، ومتعلقات ﴿ٱلْبِرَّ﴾ التي تتطلب منكم المشقة، ولا تختلفوا في المسألة السهلة اليسيرة التي لا يوجد فيها أدنى تعب مثل مسألة تغيير اتجاه القبلة، فإن كنتم تعتقدون أن ذلك هو ﴿ٱلْبِرَّ﴾ نقول لكم: لا، ﴿ٱلْبِرَّ﴾ له مسئوليات تختلف، إن متعلق ﴿ٱلْبِرَّ﴾ هو أن يُختبر صدق الإيمان، ويظهر الإيثار لمطلوب الله على الراحة، ويتطلب من المؤمن أن يقبل على الطاعة وإن شقّت عليه، ويتطلب أن يمتنع المسلم عن المعاصي؛ وأن يعرف أن للمعاصي لذة عاجلة، ولكن عقابها كبير، كل ذلك هو من مطلوبات ﴿ٱلْبِرَّ﴾ والإيمان، فلا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس، أو إلى المشرق هو المشكلة؛ لأن وجوهكم ستتولى إلى جهة ما وإن لم تؤمروا. و﴿ٱلْبِرَّ﴾ كما نعلم هو الخير الواسع الذي يشمل كل وجوه الجمال في الكون.

يقول الحق: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾.

ولماذا جعل الله الحديث عن ﴿ٱلْبِرَّ﴾ حديثا عن ذات مجسدة؛ برغم أن ﴿ٱلْبِرَّ﴾ معنى؟

إن الحق يجسد المعنى وهو ﴿ٱلْبِرَّ﴾ في ذات العبد الذي آمن لأنه سبحانه حينما يريد أن يؤكد معنى من المعاني يجعل الذات مجسدة فيه. على سبيل المثال - ولله المثال الأعلى - عندما نقول: «فلان عادل»، أي نحن نصفه بما يحقق للسامع أنه رجل يعرف العدل. ولكن عندما نقول: «فلان عدل» فكأنه هو العدل ذاته،

وكذلك عندما نقول: «فلان صادق» فمعنى ذلك أنه صاحب ذات اتصفت بالصدق، ومن الممكن للذات أن تنفصل عن الصدق يوما، ولكن حين نقول: «فلان صِدْق» فمعنى ذلك أن الصدق قد امتزج به فلا ينحل عنه أبدًا، أو أن الحق يريد أن يقول لنا: لكن صاحب ﴿ٱلْبِرَّ﴾ هو من آمن بالله، أو يقول: ولكن ﴿ٱلْبِرَّ﴾ هو بر من آمن بالله، أو أن الإخبار بالذات «من آمن» عن الصفة ﴿ٱلْبِرَّ﴾ دليل على امتزاج الذات في الصفة امتزاجا لا تتخلى عنه أبدًا فكأن ﴿ٱلْبِرَّ﴾ قد تجسد فيهم. وكل هذه الأقوال يتسع لها النص القرآني الكريم.

والحق يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ هذه بداية الإيمان، ويأتي بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾، إن بداية القوس هي الإيمان بالله وطرفه الأخير الإيمان بـ ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾.

وهنا نتساءل: وكيف يأتي الإيمان بـ ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾؟

نقول: يأتي الإيمان بـ ﴿ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ بأن تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله، فلا تقل: أنا جعلتهما في صف واحد، بل الإيمان بالله أولا، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرني به الله، وقد أخبر سبحانه: أن هناك يومًا آخر، فصدقت ما أخبر به، وتأتي مسألة الإيمان بالملائكة فيقول الحق: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فكيف نؤمن بخلق من خلق الله لا نراه؟

إننا مادمنا قد آمنّا بالقمة، وهي الإيمان بالله، والله أخبرنا بأن هناك ملائكة، وحتى لو كان وجود الملائكة غيبيًّا فنحن نؤمن بها، لأن الذي أخبر بها هو الله، وكذلك نؤمن بالجن برغم أننا لا نراه، وكل ما يتعلق بالغيبيات هو إخبار ممن آمنت به؛ لذلك تؤمن بها.

والمسائل الإيمانية كلها غيبية، ولا تقول في الأمر الحسي: «إنني آمنت به» إنما تقول: «آمنت» في الأمر الغيبي؛ لأنه أمر غيبي لا تأنس به الحواس والإدراكات،

وتريد أن تجعله عقيدة، والعقيدة هي أمر يعقد فلا ينحل أبدًا، ولأنه أمر غيبي فربما ينفلت منا؛ لأنه لو كان أمرًا مشهديًا لما غفل عنه الإنسان أبدًا؛ لأن مشهديته ستجعلك تتذكره، إنما هو أمر غيبي، ويسمى عقيدة، أي أمرًا معقودًا لا يحل أبدًا.

والقمة العقدية هي أن تؤمن بالله، ثم تؤمن بما يخبرك به الله من غيبيات لا دليل لك عليها إلا أن الله قال بها، فإن رأيت في متعلقات الإيمان أمورًا محسة فاعلم أن الجهة في الإيمان منفكة؛ لأنه سيأتي ذكر الملائكة واليوم الآخر وكلاهما غيب، وبعد ذلك سيذكر الكتاب والنبيين، وهما محسوسان.

صحيح أن الكتاب أمر محس والنبيين كذلك، لكننا لم نحس أن الله أنزل الكتاب، وأن الله بعث النبيين. ونحن لم نكن على قيد الحياة وقت نزول الكتاب ولا وقت بعث النبي، وجاء إيماننا لأننا صدقنا أن الله أنزل وحيا على محمد ﷺ ، هذا الوحي نزل بالكتاب، وأن الله اختار محمدًا ﷺ ليكون مبلغا لهذا الوحي، وكل هذه أمور غيبية لم نرها. والغيبيات هي أرضية الحركة الإيمانية؛ أو أساس الإيمان.

وبعد ذلك تنتقل الآية من الحديث عن الأمر العقدي، لتبين لنا أن البر مكون من أمور عقدية هي أساس لأمور حركية، والأمور الحركية هي المقصودة من كل تدين. فالحق سبحانه لا يعنيه أن يؤمن به أحد، ولا يعنيه أن تؤمن بملائكته، وكتبه ورسله، لكن الأمر الذي يريده الله هو أن تنتظم حركة الحياة في الأرض بمنهج الله، ولذلك ينتقل الحديث إلى الأمر المادي فيقول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، كأن الإنسان قد ملك المال وبعد ذلك «آتاه»؛ وعندما تقول: «آتيت» فهي تعني أعطيت، وهي تختلف عن «أتيت» التي تعني «جئت».

وما هو المال؟ إن المال هو كل ما يتمول إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أن يأتي بكل متمول وأسميناه بالنقد. وأصبحت له الغلبة؛ لأننا نشتري بالنقد كل شيء، لكن المعنى الأصلي للمال هو كل ما يتمول، وكيف يجيء المال لك أو لي أو لأي إنسان؟

أخرج أحد منا من بطن أمه وهو يملك شيئًا؟. لا.

إن ما يملكه الإنسان يأتي إما من متحرك في الحياة قبلك إن كان والدك أو جدك، وإما من حركتك أنت.

إذن لا يقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ إلا إذا ثبتت له حركة ذاتية يصير بها متمولا، أو ورث عن متمول، والمتمول هو الذي يتحرك في الحياة حركة قد تكون لنفسه، وإن اتسعت حركته فستكون لأبنائه، وإن اتسعت أكثر فستكون لأحفاده.

والحق يقول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ .

وكلمة الحب مصدر، والمصدر أحيانا يضاف إلى فاعله، وأحيانا يضاف إلى المفعول الواقع عليه، مثلا كلمة «ضرب» نحن نقول: ضرب زيد عُمَرَ، وهكذا نجد ضاربا هو زيد، ومضروبًا هو عمر. وإذا قيل: أعجبني ضَرْبُ زيد. إن قلت: لعمر عرفنا الضارب والمضروب، وإن سكت عند قولك: أعجبني ضرب زيد، فهي تحتمل معنيين، الضرب الصادر من زيد، أو الضرب الواقع على زيد، فساعة تأتي بالمصدر ويضاف إلى شيء فيصح أن يضاف إلى فاعله وأن يضاف إلى مفعوله.

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ، يمكن أن نفهمها على أكثر من معنى: يمكننا أن نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطى مما يحبه من المال عملا بقول الله تعالى:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وهي تحتمل المعنيين. ويمكن أن تُصَعِّد المعنى فيصير «وآتى المال على حب الإيتاء أي الإعطاء» أي يحب الإعطاء وترتاح نفسه للإعطاء، ومن الممكن تصعيدها تصعيدا آخر يشمل كل ما سبق فيصبح المعنى: «وآتى المال على حب الله الذي شرع له ذلك» وكل هذه المعاني محتملة.

والحق يقول:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

ويقول سبحانه أيضًا:

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وتعطينا كل هذه الآيات وضوح الفرق بين الملكية، وبين حب المملوك، فمن الممكن أن تكون لديك أشياء كثيرة أنت مالكها، ولكن ليس كل ما تملكه تحبه، فعندما تؤتى المال فمن المحتمل أن تكون قد نزعته من ملكيتك وأنت لا تحبه. وبذلك أخرجته من ملكيتك فقط، وإما أن تكون محبًا للشيء الذي تعطيه لغيرك، وبذلك تكون قد أخرجته من ملكيتك، ومن حبك له.

وإما أن يكون المال الذي في يدك مجرد أداة لك ولغيرك وليس له مكانة في قلبك، ولذلك يقول الشاعر:

لا أبالي توفير مالي لدهري ... منفقا فيه في رخاء وبأس

إن يكن في يدي وليس بقلبي ... فهو ملكي وليس يملك نفسي

إن قوله الحق: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تعطينا إما منزلة إخراجه من الملك وإما منزلة إخراجه من القلب الذي يحبه. ولذلك يعيب الحق على جماعة من الناس يريدون العمل على طاعة الله، لكنهم لا ينفقون لله إلا مما يكرهون. ويقول الله في حقهم:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

ولكن لمن يكون ذلك المال الذي ينطبق عليه القول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؟

إنه لـ ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ألا ترون إنسانا له حركة في الحياة قد اتسعت لنفسه، ثم نرى قرباه الذين لا يقدرون على الحركة محتاجين، كيف تكون حالة

نفسيته إذن؟ لابد أن تكون نفسية متعبة؛ لأن المفروض في الإنسان المؤمن أن يجعل كل الناس قرباه، ونذكر في هذا المقام قصة معاوية عندما كان أميرًا للمسلمين، ودخل عليه الحاجب وهو يقول: يا أمير المؤمنين رجل بالباب يدعى أنه «أخوك»، فقال معاوية: أبلغ بك الأمر ألا تعرف إخوتي؟ أدخله.

فلما دخل الرجل قال له معاوية: أي إخوتي أنت؟

قال: أخوك من آدم.

فماذا قال معاوية؟

قال: رحمٌ مقطوعة، والله لأكونن أول من وصلها، وأكرمه.

فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يصل قرباه من الناس كافة، ألا يستطيع أن يصل خاصة أقاربه؟ كيف يستطيب المؤمن- إذن - نعيم الحياة وهو يجد أقاربه محتاجين، حتى لو نظرنا بعيدا عن الدين والإنسانية، ألا تستحق المسألة أن يجود الإنسان بما عنده على أهله؟

وفي دائرة الإيمان حين يجعل الله حركة الحياة في التكافل دوائر، فهو سبحانه يريد أن يوزع خير المجتمع على المجتمع؛ لأنه سبحانه حينما أراد استبقاء النوع شرع لنا طهر الالتقاء بين الرجل والمرأة بعقد علني وشهود، لماذا؟ لأن الثمرة من الزواج هي الأبناء التي ستأتي بقطاع جديد من البشر في الكون، وهذا القطاع لابد أن يكون محسوبا على الرجل أمام الناس، وإن لم يرع الرجل في أبنائه حق الله يلمه الناس على ذلك لأنهم أبناؤه.

ولذلك عندما نرى شخصًا يخفي زواجه، كأن يتزوج زواجًا عرفيًّا مثلاً نقول له: أنت تريد أن تأتي بثمرة منك ثم تنكرها، فيأتي أبناء غير محسوبين عليك. ولذلك فلنكن على ثقة من أن كل مشرد في الأرض نراه هو نتيجة لخطيئة إما معلنة، وإما لا يقدر على إعلانها رجل لم يتحمل مسئولية علاقته بالمرأة، ولا يهمل رجل ولدا

منسوبا له إلا إذا تشكك في نسبه إليه، وهذا ما يجعله ينكر نسبه.

إذن فعملية الطهر التي أرادها الله سبحانه تعالى في الالتقاءات بين الرجل والمرأة، إنما أرادها سبحانه لأنه يشرع لبناء أجيال جديدة، ينشأ منها مجتمع المستقبل، وقبل أن يوجد هؤلاء الأبناء لابد أن يكون لهم رصيد وأساس يتحملهم، فجعل الله لنا الأولاد والأحفاد، ويوصى الله الأبناء على الوالدين قبل ذلك، ثم تتسع الدائرة للقرابة القريبة.

وهات واحد واصنع له هذه الدائرة، وهات آخر واصنع له الدائرة نفسها، وثالثا واصنع له دائرته، واصنع إحصاء للقادرين وحدد دوائرهم العائلية، ستجد كل إنسان في الكون يدخل في دائرة من هذه الدوائر، فإن رأيت عوجا فاعلم أن مركز الدائرة قد تخلى عن محيط الدائرة.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، تأمل - إذن - الحث على البر تجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى؛ لأن لهم مكانة خاصة؛ وعندما يؤتى كل منا قرباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد محتاج، وإذا وجد المحتاج فسيكون نزرًا يسيرًا، وتتسع له الزكاة الواجبة.

أو كما قال بعض العلماء: المقصود بذوي القربى هم قربى رسول الله ﷺ، يقولون ذلك؛ لأن في القرآن آية تقول:

﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

ولماذا قربى رسول الله؟

لأنهم ليس لهم حق في الزكاة؛ حتى يبرأ المبلغ عن الله من أي نفع يعود عليه، أو يعود على آله، لذلك منع الله عنهم أي حق في الزكاة. وكأن الله يريد أن يقول لنا: لا يصح أن تجعلوا الناس الذين رفعهم الله وكرمهم عن أخذ الزكاة التي يأخذها أي فقير منكم ممنوعين من أخذ كل شيء، فلابد أن تتخذوهم أقارب لكم بحيث لا

تجلعوهم محتاجين.

وعلى فرض أن الآية تريد قربانا نقول:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فقرباه وآله أولى من قربانا وأهلنا.

وبعد ذلك جاء الله بقوله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، ونعرف أن اليتيم هو من فقد أباه و لم يبلغ مبلغ الرجال. واليتيم في الإنسان غير اليتيم في الحيوان؛ فاليتيم في الحيوان هو من فقد أمه، ولكن اليتيم في الإنسان هو من فقد أباه. واليتيم لا يكون له وصي إلا إذا كان عنده شيء من مال، عندئذ يكون هناك وصي لإدارة أمور اليتيم. ولذلك جاء الحق بالأمر بإعطاء المال على حبه لليتامى، و لم يقل: «لذوى اليتامى». فربما كان هناك يتيم ضائع لا يتقدم أحد للوصاية عليه، وليس عنده ما يستحق الوصاية؛ لذلك فعلينا أن نؤتى اليتيم من مال الله حتى ندخل في صفات البر، أو نعطي للوصي على اليتيم لينفق عليه إن كان له وصي.

وكذلك نؤتي المال للمساكين، والمسكين مأخوذة من السكون، وهو الإنسان الذي لا قدرة له على الحركة، كأن استخذاءه وذله في الحياة منعاه من الحركة.

واختلف الفقهاء حول من هو الفقير، ومن هو المسكين، قال بعضهم: «إن الفقير هو من لا يملك شيئًا، والمسكين يملك ما لا يكفيه، أي يملك شيئًا دون ما يحتاجه»..

وقال البعض الآخر: «إن الفقير هو الذي يملك ما هو دون حاجته، والمسكين من لا يملك».

وعلى كل حال فقد شاءت حكمة الله - ﷻ - أن يجعل للفقير نصيبًا من البر. وللمسكين أيضًا نصيبًا كالآخر. والخلاف بين العلماء لا يؤدي إلى منع أحدهما من

المال، لأن كلا منهما - المسكين والفقير - يستحق من مال الله. وعلى ذلك فالخلاف لا طائل من ورائه.

وكذلك نؤتى المال لابن السبيل، والسبيل هو الطريق، وابن السبيل هو ابن الطريق، وعادة ما ينسب الإنسان إلى مكانه أو إلى بلده، فإذا قيل ابن السبيل، فذلك يعني أنه ليس له مكان يأوي إليه إلا الطريق، فهو رجل منقطع، وقد يكون ابن سبيل ذا مال في مكانه، إلا أن الطريق قطعه عن ماله وباعد بينه وبين ما يملك، أو يكون ذا مال وسرق منه ماله، فهو منقطع.

ولماذا جعل الله نصيبا من البر لابن السبيل؟ لقد جعل الله نصيبا من المال لابن السبيل حتى يفهم المؤمن أن تكافله الإيماني متعدٍّ إلى بيئة وجوده، فحين يوجد في مكان وينتقل إلى مكان آخر يكون في بيئة إيمانية متكافلة.

ونؤتى المال أيضا للسائلين أي الذين يضعون أنفسهم موضع السؤال، أعط من يسألك ولو كان على فرس؛ لأنك لا تعرف لماذا يسأل، إن بعضا من الناس يبررون الشح فيقولون: إن كثيرا من السائلين هم قوم محترفون للسؤال، ونقول لهم: ما دام قد سأل انتهت المسألة، وعمدتنا في ذلك قوله ﷺ: «**أعطوا السائل وإن جاء على ظهر فرس**»[1].

وما دام قد عرض نفسه للسؤال فأعطه ولا تتردد.

قد تظن أنه يحمل حقيبة ممتلئة بالخبز، أو يخفي المال بعيدًا. وأقول: قد يكون عنده خبز لكنه لا يكفي أولاده، وقد يخفي المال الذي لا يكفيه، ولن تخسر شيئًا من إعطائه، فلأن تخطئ في العطاء، خير من أن تصيب في المنع.

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن عدي في «الكامل»، والمقصود بالسائل في الحديث - والله أعلم - السائل المجهول الحال، أمّا أولئك الذين اتخذوا التسوّل حرفة، مع غناهم، فلا تجوز إعانتهم - هذا إن علم حالهم - .

ونؤتى المال أيضا لمن هم ﴿فِي ٱلرِّقَابِ﴾ كلمة «رقبة» تطلق في الأصل اللغوي على أصل العنق، وليس على العنق نفسه. وتطلق كلمة الرقبة على الذات كلها، أي الإنسان في حد ذاته، لماذا؟ لأن حياة الإنسان يمكن أن تملكها من الرقبة، فتستطيع أن تمسك إنسانًا من رقبته وتتحكم فيه وتضغط عليه ضغطًا تمنع تنفسه إلى أن يموت، لذلك تطلق الرقبة ويراد بها الشخص ذاته، وفي ذلك يقول القرآن:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٢، ١٣].

أي فك الأسير، إذن ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ تعني فك أسر العبد، ويمكن لصاحب البر أن يشتري العبيد ويعتقهم، أو يسهم في فك رقابهم فذلك لون من ألوان تصفية الرق، وفي تصفية الرق هناك شيء اسمه التدبير، وشيء اسمه المكاتبة.

هب أن عبدًا يخدمك وبعد ذلك ترى أنه أخلص في خدمتك، فثمنًا لإخلاصه في خدمتك مدة طويلة قررت أن تُدَبِّره بعد موتك، أي تعطيه حريته فيصبح حرًّا بعد موتك، فكأنك علقت عبوديته على مدى حياتك، وبعد انتهاء حياتك يُصْبح مدبرًا أي حرًّا، ولا يدخل في تركتك، ولا يورَث.

وقد تكاتبه على مال فتقول له: يا عبد أنا أكاتبك على مائة جنيه، وأطلق حريتك لتتصرف أنت وتضرب في الحياة وتكسب وتأتي لي بالمائة جنيه، ثم أطلق سراحك، وفي هذه الحالة فإن على أهل البر أن يعاونوا هذا المكاتب ليؤدي مال الكتابة حتى يفك رقبته من الأسر.

ومن البر أيضًا إقامة الصلاة، كأن المعنى: ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة، ونعرف أن معنى إقامة الصلاة هي أداء الصلاة في أوقاها على الوجه المطلوب شرعًا.

ومن البر أن تؤتى الزكاة، فكأن كل ما سبق ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾، لا علاقة

لها بالزكاة، إن كل ذلك هو بر آخر غير المطلوب للزكاة، لأن الزكاة لو كانت تدخل فيما سبق لما كان الله كررها في الآية.

هذه أوجه البر التي ذكرها الآية من إيتاء ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وكل ذلك لمن أراد أن يدخل في مقام الإحسان، فمقام الإحسان كما نعرف هو أن تلزم نفسك بشيء لم يفرضه الله عليك، إنما تحس أنت بفرح الله بك ورضاه عنك فيقبله الله منك.

إذن فتلك أوجه البر المطلوبة، والزكاة أيضًا مطلوبة؛ ففي مصرف الزكاة لا يوجد ذوو القربى ولا اليتامى. صحيح أن في مصارف الزكاة إعطاء المسكين وابن السبيل، لكن في البر هناك أشياء غير موجودة في الزكاة، فكأنك إن أردت أن تفتح لنفسك باب البر مع الله، فوسع دائرة الإنفاق، وستجد أن البر قد أخذ حيزًا كبيرًا من الإنفاق، لأن المنفق مستخلف عن الله. فالله هو الذي استدعى الإنسان إلى الوجود، ومادام هو المستدعَى إلى الوجود فهو سبحانه مكلف بإطعامه، وأنت إذا أنفقت على المحتاج الذي استدعاه الله للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أن يلزمك به الله، ولذلك يقول الله ﷻ :

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إذا كان هو سبحانه الذي أعطى المال، فكيف يقول: أقرضني؟ نعم، لأنه سبحانه لا يرجع فيما وهبه لك من نعمة المال، إن المال الذي لك هو هبة من الله، ولكن إن احتاجه أخ مسلم فهو لا يقول لك: «أعطه من عندك أو أقرضه من عندك»، إنما يقول لك: «أقرضني أنا، لأني أنا الذي أوجدته في الكون ورزقه مطلوب مني»، فكأنك حين تعطيه تقرض الله، وهذا معنى قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا ﴾. إنه سبحانه وتعالى متفضل بالنعمة ثم يسألك أن تقرضه هو.

ولنضرب على ذلك مثلاً من أمر الدنيا - وسبحانه وتعالى منزه عن كل مثل وله المثل الأعلى - هب أنك محتاج وفي ضائقة مالية، وعندك أولاد ولهم مبالغ مدخرة مما كنت تعطيهم من مال فتقول لهم أقرضوني ما معكم من مال، وسأرده لكم عندما تمر الضائقة، كأنك لم ترجع في هبتك وما أعطيته لهم من مال، إنما اقترضته منهم، كذلك يفعل الله سبحانه وتعالى.

وكذلك لنا عبرة وعظة من السيدة فاطمة رضي الله عنها عندما دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فرآها ممسكة بدرهم، والدرهم يعلوه الصدأ وأخذت تجلوه.

فسألها أبوها: «**ما تصنعين يا فاطمة؟**».

قالت: «أجلو درهما».

قال: «**لماذا؟**».

قالت: «لأني نويت أن أتصدق به».

قال: «**وما دمت تتصدقين به فلماذا تجلينه؟**».

قالت: «لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد المحتاج».

ومن البر أيضًا أن يفي الإنسان بالعهد، فالحق يقول: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾. وما معنى العهد؟ إن هناك عهدًا، وهناك عقد. والعهد يوجد من طرفين تعاهدا على كذا ، لكن قد يستطيع أحدهما العطاء ولا يستطيع الآخر الرد؛ والعقد يوجد بين طرفين أيضًا، أحدهما يعطي ويأخذ، والآخر يعطي ويأخذ.

ومن البر أن تكون من ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾. ولنا أن نلحظ أن الحق جاء بـــ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ مرفوعة لأنها معطوفة على خبر لكن البر، فلماذا جاء بـــ ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ منصوبة؟ فماذا يعني كسر الإعراب؟ إن الأذن العربية

اعتادت على النطق السليم الفصيح فإذا كان الكلام من بليغ نقول: لم يكسر الإعراب هنا إلا لينبهني إلى أن شيئًا يجب أن يُفهم، لأن الذي يتكلم بليغ وما دام بليغا وقال قبلها: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلابد أن يكون هناك سبب، ما هو السبب؟

إن كل ما سبق مطيةُ الوصول إليه هو الصبر، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ و ... و ... إلخ، ولذلك أراد الله أن ينبه إلى مزية الصبر فكسر عنده الإعراب، وكسر الإعراب يقتضي أن نأتي له بفعل يناسبه فجاء قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وكأن معناها: وأخص الصابرين، وأمدح الصابرين.

إذن: كسر الإعراب هنا غرضه تنبيه الآذان إلى أن شيئًا جديدًا استحق أن يُخالَف عنده الإعراب. لأن الصبر هو مطية كل هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبه هو الذي فاز وظفر، إذن كل ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خص الله ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص.

ولماذا خص الله الصابرين بالمدح؟

لأن التكليفات كلها تعطي مشقات على النفس، ولا يستطيع تحمل هذه المشقات إلا من يقدر على الصبر. وما دام قد قدر على الصبر فكل ذلك يهون. ومن هنا خص الله الصبر بهذه الميزة.

والمهم أن الآية جاءت بـــ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بعد ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ حتى تكون النقلة ملحوظة ومتيقنة، بأن الإعراب فيما سبق ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تقديري معطوف أي هو معطوف على خبر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فجاءت ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾ مرفوعة لنفهم أنها معطوفة على خبر ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، ثم جاء ما بعدها ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوبة، حتى نلحظ الفرق بين المعنيين، ولو جاءت مرفوعة مثل ما قبلها فربما مرت

علينا و لم نلحظها.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ البأساء هو البؤس والفقر، وهذا في الأحوال، نقول: فلان حاله بائس.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ هي الألم والوجع والمرض، وهي تصيب البدن والجسد.

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ أي حين الحرب عندما يلتقي المقاتل بالعدو ويصبر ويصمد ليقاتل.

إذن: صفة الصبر تناولت ثلاثة أمور: في البأساء، أي في الفقر، وفي المرض، وفي الحرب مع العدو، صابر في كل هذه الأمور.

ولذلك جاء في الحديث الشريف: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفَّرَ الله بها عنه، حتى الشوكة يُشاكها**»(١).

ويقول الحق عن الذين دخلوا إلى رحاب البر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، فـ ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾.

ماذا تعني ﴿صَدَقُواْۖ﴾ الصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع الفعلي. وأولئك صدقوا في إعلان إيمانهم، وواقع حركتهم في الحياة، وصدق قولهم: «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

إذن فصدق إيمانك متوقف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك؛ فإن آمنت وأسلمت وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك،

---

(١) أخرجه البخاري.

نقول: أنت غير صادق، ولكن إذا وُجدت صفات الإيمان في إنسان نقول له: لقد صدقت في إيمانك، لأن حركة حياتك انسجمت مع واقعك الإيماني. وما أكثر الناس الذين يقولون ولا يفعلون، وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

وما نتيجة صدق المؤمنين؟ يجيبنا الحق بوصفهم: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. ساعة تسمع كلمة «متقون» أو «اتقوا» . فذلك يعني أنهم جعلوا وقاية بينهم وبين شيء، ولا يُطلب منك أن تجعل وقاية بينك وبين شيء إلا إن كنت لا تتحمل هذا الشيء.

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

أي اجعلوا بينكم وبين النار حاجزا. وقلنا: إن من العجب أن كلمة ﴿ٱتَّقُواْ﴾ تأتي إلى الشيء الذي هو ﴿ٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ وتأتي إلى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، كيف يكون التقوى في متناقضين؟

نعم؛ لأن معنى ﴿ٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبينها وقاية، وهل النار فاعلة بذاتها أم بتسليط الله لها على العاصي؟ إنها فاعلة بتسليط الله لها على العاصي، إذن ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ معناها: اتقوا متعلق صفات الجلال من الله، لأن لله صفات جمال وصفات جلال فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية، لأنكم لا تتحملون غضب الله، ولا قهر الله، ولا بطش الله، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية، ومن آثار صفات جلاله النار، فالمسألة متساوية ولا تناقض فيها.

النصيحة الحادية والأربعون:

التقوى.. قارب النجاة

قال طَلْقُ بْنُ حَبِيب - رحمه الله تعالى - : «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله تَرْجُو ثَوَابَ الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عَذَاب الله».

والتقوى: قارب النجاة من ظلمات الفتن والضلال، كما أنها أحد أسباب مغفرة الذنوب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال: ٢٩]

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان، ثم يضع شرطًا هو: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقانًا، ويكفر عنا السيئات، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم.

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هي الإيمان بالله ﷻ ، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام، لابد أن يتحقق وعد الله المتمثل في قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

والفرقان من مادة «فرق» «الفاء والراء والقاف»، وتأتي دائمًا للفصل بين شيئين؛ مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم. وسبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

أي: نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلَيْن فصار بينهما فرق كبير.

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوبًا من قماش مُتَساوٍ في النسيج واللون، ثم شققت من الثوب جزءًا منه؛ هنا لا يقال: إنك فرقت بين القطعتين، بل فصلت بينهما، لكن لا يقال: «فِرْق» إلا إذا كان الفصل يؤدي إلى فرقتين؛ فرقة هنا، وفرقة هناك، وهذه لها أشياء ومتعلقات، وتلك لها أشياء ومتعلقات.

إذن: فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط، بل هو فصل يؤدي إلى أن يكون لكل فرقة منهج، ومذهب، ورأي.

و﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾، أي يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما اتفاق لصارا فرقة واحدة، لكن لأنهما مختلفان لذلك لابد من وجود تناقض بينهما. وهنا يقول الحق تبارك وتعالى: إنه يجعل لكم فرقانًا، مثال ذلك، هناك من يهتدي، وهناك من يضل. وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال. فالله يشرح صدر المهتدي للإسلام، وجعل صدر الكافر ضَيقًا حرجًا؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر، وخديعة؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلئ صدره بالضغينة، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة.

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾، أي أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلفاء الله في الأرض، وكلهم مخلوقون لله، وكلهم متمتعون بخيرات الله؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة.

والتفرق - كما نعلم - إنما ينشأ عن اشتباك؛ بين فريقين اثنين، واحد منهما

يمثل فريق الهدى، والثاني هو من حق عليه عذاب الله.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾. ويتمثل الفرقان في هدى القلب، والبصيرة والعلم؛ وأي شيء يفصل بين الحق والباطل، وأحوال الإنسان - كما نعلم - قسمان: أحوال الدنيا، وأحوال الآخرة، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة، وفيها أمور ظاهرة، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة، ومنها القلبي الذي لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب. والفرقان في أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى، ومن ضل؛ ونجد المهتدي قد شرح ربنا صدره للإسلام. ونجد أن الضال هو من لم يشرح صدره للإسلام والمهتدي يعيش ضمن الفريق الذي لا غل فيه ولا حقد، والضال هو من يعيش في فريق يتصف بالغل والحقد، هذا في الأمور القلبية. أما في الأعمال الظاهرة، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر، والغلبة، والعزة.

وماذا عن الفرقان في الآخرة؟

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير.

﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، وإذا كنا سنتقي الله فهل سيكون لنا سيئات؟ وأقول: إن أردت بقوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إيمانًا به، فسبحانه يكفّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها وكبائرها، ولا يضر مع الإيمان معصية، بل تدخل في عفو الله وغفرانه.

وإن أردت بالتقوى «التزام أمر» فتكفير السيئات يعني أن نتقي الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهي الصغائر. والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك في الدنيا، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم، فمعنى ذلك أن هناك فضلا أقل من عظيم، كما أن هناك فضلا يعلوه تميزًا. نعم، نعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام، أو يتفضل عليه بملبس، أو يتفضل عليه بشراب، أو يتفضل عليه بمسكن، أي أن هناك أنواعًا متعددة من الفضل، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن، ووراءه من زرع وحصد.

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله ﷻ، وهذا هو الفضل العظيم. وأيضًا نجد أن الذي يتفضل على واحد لابد أنه يبغي من وراء هذا الفضل شيئًا، مثل كمال الذات، وأنه يود الحمد والثناء، ويبغي راحة نفس إنسانية، ونرى أناسًا يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم، لا لأنهم يطبقون منهج الله، بل يرغبون في مجرد راحة النفس، مثل الكفار الذي يصنعون أشياء تفيد الناس، فهم يفعلونها وليس في بالهم الله، بل في بالهم راحة النفس وانسجامها.

إذن فالذي يتفضل إنما يريد شيئًا، إما كمال مال أو ثناء وإطراء، وراحة نفس من مناظر الإيلام التي يراها، وهذا دليل على أنه يعاني من نقص ما ويريد أن يكمله. فإذا كان الله ﷻ هو صاحب الفضل، أَللهُ نقص في كمال؟!! لا. إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة في كمال أو ثناء، وأيضا فكل فضل من دون الله يتضمن المنّ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذلة لأحد. وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئًا من إنسان آخر. لكن مَنْ الذي يستنكف على فضل الله؟ لا أحد. لأن الحياة كلها هبة منه.

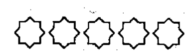
ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التي قالت لمعن بن زائدة:

فَعُـــدْ إنَّ الكـــريم له معـــاد وظـــني بـــابْن أروى أن يعـــودا

وكانت الفتاة تطالب أبي زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم، فنهرها أبوها، فقالت له: يا أبي إن الملوك لا يُسْتَحْيَي من الطلب منهم.

﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك في الحياة ومظاهر استبقاء حياتك، ومظاهر نعيمك كلها، إن نسبتها فستصل إلى الله، فإن كنت تشتري - على سبيل المثال - أثاثًا لبيتك، واختَرت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذي يصنع لك منه النجار هذا الأثاث، فأنت تأتي بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً، لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب، وكل شيء في حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدي المخلوقات من البشر تنتهي عند خلق لله وهبه للإنسان، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى.



النصيحة الثانية والأربعون:

لا تيأسي من رحمة الله

لو بلغت ذنوبُكِ عَنَان السَّمَاء، ثم استَغْفَرتِ الله، غَفَرَ لكِ على ما كان منكِ ولا يُبالي.

فلا تيأسي، فرحمة الله أوسع من ذنوبنا.

وها هو رَبُّك - سبحانه - يقول:

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآيات:

إن الحق يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة، لأنك لا تعلم كم ستبقى في الدنيا، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملاً من أعمال الخير؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا، فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة، هذا هو المعنى الذي يأتي فيه الأثر الشائع: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

الناس تفهمها فهمًا يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى: اعمل لدنياك كأنك تعيش

أبدًا: يعني اجمع الكثير من الدنيا كي يكفيك حتى يوم القيامة، وليس هذا فهمًا صحيحًا لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غدًا، أمَّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾.

ونحن نعرف أن المساحات لها طول وعرض، لأن الذي طوله كعرضه يكون مربعًا، إنما الذي عرضه أقل من طوله فنحن نسميه مستطيلاً، وحين يقول الحق: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ نعرف أن العرض هو أقل البعدين، أي أنها أوسع مما نراه، فكأنه شبّه البعد الأقل في الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضًا فأعطانا أوسع مِمَّا نراه، فإذا كان عرضها أوسع مِمَّا نعرف فما طولها؟ إنه حد لا نعرفه نحن.

قد يقول قائل: لماذا بيَّن عرضها فقال: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾. فأين طولها إذن؟

ونقول: وهل السموات والأرض هي الكون فقط؟ إنه سبحانه يقول:

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ويقول ﷺ: «**ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك في فلاة**». أليست هذه من ملك الله؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ومعنى ﴿أُعِدَّتۡ﴾: أي هيئت وصُنعت وانتهت المسألة، يؤكد ذلك رسول الله ﷺ فيقول: «**عُرِضَتْ عليَّ الجنّة ولو شئتُ أن آتيكم بقطاف منها لفعلتُ**»(١).

لماذا؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

ولكن الوجود للحدث ينفي أن لا يوجد؛ لأن وجوده صار واقعًا، فعندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقي الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادَّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة، لا.

لقد أخبر سبحانه عنها فقال: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وأعد سبحانه الجنة كلها بـــ «كن»، فعندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ تكون مسألة مفروغًا منها، ومادامت مسألة مفروغًا منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه، والجنة أُعدت للمتقين، فمن هم المتقون؟

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

هذه بعض من صفات المتقين ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ لأن المعركة - معركة أُحُد - ستعطينا هذه الصورة أيضًا، فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله ﷺ يُقتل، وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به، وأُخِذ بضع منه وهو الكبد فلاكته «هند»، وهذا أمر أكثر من القتل، وهذه معناها ضغن دنيء.

وحينما جاء لرسول الله ﷺ خبر مقتل حمزة وقالوا له: إن «هندًا» أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها، قال: «**ما كان الله ليعذب بعضًا من حمزة في النار**» كأنها ستذهب إلى النار، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلايا، وعندما تدخل النار فكأن بعضًا من حمزة دخل النار، فلابد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقيء، وتلفظ تلك البضعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء.

وقد شبه النبي ﷺ هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقى، إنها مقتل حمزة فقال: «**لئن أظفرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**»[1].

---

(١) حسن: أخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (١١٠٥١).

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله ﷺ في واحد من أحب البشر إليه وفي أكبر حادث أغضبه، وينزل قول الحق:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل: ١٢٦].

كي نعرف أن ربنا ﷻ لا ينفعل لأحد؛ لأن الانفعال من الأغيار، وهذا رسوله فأنزل – سبحانه – عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ويأتي هنا الأمر بكظم الغيظ، وهو سبحانه يأتي بهذا الأمر في مسألة تخص الرسول وفي حدث «أُحُد». وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب، وتكون مع الناس دون رسول الله ﷺ؛ لأنها كانت مع رسول الله ﷺ

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات، وأصل الكظم أن تملأ القِرْبَة، والقِرَب – كما نعرف – كان يحملها «السقا» في الماضي، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب، وهي من جلد مدبوغ، فإذا مُلئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أي رُبط رأسها ربطًا محكمًا بحيث لا يخرج شيء مِمّا فيها، ويقال عن هذا الفعل: «كظم القربة» أي ملأها وربطها، والقربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كي لا يخرج منها شيء.

كذلك الغيظ يفعل في النفس البشرية، إنه يهيجها، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه انفعال طبيعي، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها في التكوين الإنساني، إنما هو يريدها لأشياء مثلا: الغريزة الجنسية، هو يريدها لبقاء النوع، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط، وكذلك انفعال الغيظ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ في قالب من حديد لا عواطف له، لا، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضًا، لكن الانفعال المناسب للحدث، الانفعال السامي الانفعال المثمر،

ولا يأتي بالانفعال المدمر.

لذلك يقول الحق:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

فالمؤمن ليس مطبوعًا على الشدة، ولا على الرحمة، ولكن الموقف هو الذي يصنع عواطف الإنسان، فالحق سبحانه يقول:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معًا؟ نقول: المنهج الإيماني يجعل المؤمن هكذا، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر، إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين في قالب كي لا ينفعلوا في الأحداث.

ومثال آخر: ألم ينفعل الرسول ﷺ حين مات ابنه إبراهيم؟ لقد انفعل وبكى وحزن، إن الله لا يريد المؤمن من حجر، بل هو يريد المؤمن الذي ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث، ولذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ عند فراق ابنه: «**إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»[(١)].

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب، بل انفعال موجّه، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعًا عن منهج الله، ولكن على المؤمن أن يكظمه، أي لا يجعل الانفعال غالبًا على حسن السلوك والتدبير، والكظم - كما قلنا - مأخوذ من أمر محس، مثال ذلك: نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التي لها معدتان، واحدة يُختزن فيها الطعام، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً، إنه يجترّ.

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

ومعنى: يجتر الجمل أي يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه، هذا هو الاجترار، فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال: إن الجمل قد كظم، والحق سبحانه يقول:

﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وقلنا: إن هناك فرقًا بين الانفعال في ذاته، فقد يبقى في النفس وتكظمه، ومعنى كظم الانفعال: أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالي، ولكنه يكبح جماح هذا الانفعال، أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك، وكأن الأمر لم يحدث، وهذه هي مرتبة ثانية، أما المرتبة الثالثة فهي: أن تنفعل انفعالاً مقابلاً؛ أي أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك، إذن فهناك ثلاث مراحل:

الأولى: كظم الغيظ.

والثانية: العفو.

والثالثة: أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه.

وهذا الارتقاء في مراتب اليقين؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل، فالمقابل لك أيضًا لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوي انفعالك، ويمتلئ تجاهك بالحدة والغضب، وقد يظل الغيظ ناميًا وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد، لكن إذا ما كظمت الغيظ، فقد يخجل الذي أمامك من نفسه وتنتهي المسألة.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ مأخوذة من «عفّى على الأثر» والأثر ما يتركه سير الناس في الصحراء مثلاً، ثم تأتي الريح لتمحو هذا الأثر.

ويقول الحق في تذييل الآية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقلنا في فلسفة ذلك: إننا جميعًا صنعة الله، والخلق كلهم عيال الله، ومادمنا كلنا

عيال الله فعندما يُسيء واحد لآخر فالله يقف في صف الذي أسيء إليه، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة، وهكذا يكون المُسَاء إليه قد كسب، أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسيء.

لكن العقل البشري يفقد ذكاءه في مواقف الغضب؛ فالذي يسيء إلى إنسان يحسبه عدوًّا، لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذي يسيء إليك إنما يجعل الله في جانبك، فالذي نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء، هنا يجب أن تكون حَسن الإيمان وتعطي المسيء إليك حسنة.

ويضيف الحق من بعد ذلك في صفات أهل الجنة:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والفاحشة هي: الذنب الفظيع. فهل معنى ذلك أن الرماة في غزوة أُحد حين تركوا مواقعهم، قد خرجوا من الإيمان؟ لا، إنها زلة فقط، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا، واعتبرت صغيرة لمن حُرِّض - بالبناء للمفعول - على أن ينزل من موقعه.

إذن فهو قول مناسب:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وجاء الحق هنا بـ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسي الله، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه، والذي يُجرِّئ الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلا أمامه، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة.

وكذلك الذي يهمل في الطاعة أيضًا، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين. ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله. ولذلك يقول الحق:

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله.

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف. بعض العلماء قال: «إنها الكبيرة من الكبائر، وظلم النفس صغيرة من الصغائر».

وقال بعض آخر من العلماء: «إن الفاحشة هي الزنا؛ لأن القرآن نص عليها، وما دون ذلك هو صغيرة».

ولكن رسول الله ﷺ قال: «**لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار**»[(١)].

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول: هذه صغيرة وتلك صغيرة، لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة. وحين ننظر إلى قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضًا، لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة، وأبقى على نفسه عذابًا خالدًا.

ولماذا لم يقل الحق إذن: والذين ظلموا أنفسهم فقط؟ أي يكون العطف بـ «الواو» لا بـ «أو»؟

لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس.

لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة، لكن الذي يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع؛ فالذي يشهد الزور – على

(١) المشهور أنه موقوف على ابن عباس – رضي الله عنهما – .

سبيل المثال – إنه لا يحقق لنفسه النفع، ولكن النفع يعود للمشهود له بالزور.

إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة. أما الإنسان الذي يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا، وبعد ذلك ينال العقاب في الآخرة.

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه، بل يضر نفسه؛ فالذي هو شر أن تبيع دينك بدنياك؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل. والحق لم ينه عن متاع الدنيا، ولكنه قال عنه:

﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره، وهو لا يأخذ شيئًا ويظلم نفسه.

ويقول الحق:

﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومعنى: «ذنب» هو مخالفة لتوجيه منهج. فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر. وجاء نهي من المنهج فلم يُلتزم به. ولا يسمى ذنبًا إلا حين يعرفنا الله الذنوب، ذلك هو تقنين السماء. وفي مجال التقنين البشري نقول: لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم.

وهذا يعني ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها. أي أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة، فما بالنا بمنهج الله؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً، وبعد ذلك يحدد العقوبات التي يستحقها مرتكب الذنب.

ولننتبه إلى قول الحق:

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك: أستغفر الله، لا، إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله: أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبدًا.

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى؛ إن الذنب قد يقع منك، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة، إن الذنب قد يقع، ولكن بشرط ألا يكون بنية مسبقة، وتقول لنفسك: سأرتكب الذنب، وأستغفر لنفسي بعد ذلك. إنك بهذا تكون كالمستهزئ بربك، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر.

وقوله الحق:

﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص.

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب؟ وما هو العقاب؟ وكيفية الاستغفار؟ ويقول الحق بعد ذلك:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

مع بيان أوصاف المتقين في قوله:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر. وينفقون في الضراء نفقة الذكر والتضرع، لأن النعمة حين توجد بسراء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة، والنعمة حين تنفق في

الضراء تقتضي ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء. إذن فهم ينفقون سواء أكانوا في عسر، أم كانوا في يسر.

إن كثيرًا من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم. وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير، ويشغلوا بآلام أنفسهم. لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبدًا. وأمره بالإنفاق في العسر واليسر. ولذلك قالوا: فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحبس.

وتتابع أوصاف المتقين:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين. فالفاحشة التي تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة، لا تخرجهم أبدًا عن وصفهم بأنهم متقون. لأن الحق هو الغفور:

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

إنهم قد أُخبروا بذلك، فلم يجرم الحق أحدًا إلا بنص، ولم يعاقب إلا بجريمة. وقول الحق سبحانه:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

هو إشارة لكل ما سبق. ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين:

القوس الأول: الذي ابتدأ به هو قوله الحق:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

والقوس الثاني: هو الذي أنهى الأمر:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهابًا للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجرًا:

﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل. والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه. فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل، وأيضًا تقدير للعامل. فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محددًا فله أن يطلب زيادة، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل.

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل، أو حاجة من عامل، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك. ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجرًا.

ما هذه المسألة؟. هو ليس محتاجًا إلى عملك، ويعطيك أجرًا على عملك ويقول لك: إن هذا الأجر هو الحد الأدنى، لكن لي أنا أن أضاعف هذا الأجر، ولي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر. فكم مرحلة إذن؟ إنها ثلاث مراحل، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر.

إذن فالحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد، أنت تحتاج إلى خالقك، وهو لا يحتاج إليك، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط، ولكن فوق ذلك بكثير.

إن الذي تعمل له يومًا من العباد قد يعطيك -على سبيل المثال -ما يكفيك قوت يوم، أو قوت يوم ونصف اليوم. ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجرًا لا تنتهي مدة إنفاقه؛ فهو القائل:

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

هذا هو الأجر الذي يقال فيه: نعم هذا الأجر؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي، بل يفوق كل ما بذلت من جهد، وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود.

إنه سبحانه متفضل علي أولاً. ومتفضل علي أخيرًا، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك - أيها العبد -حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجرًا على ما فعلت.



النصيحة الثالثة والأربعون:

لا تحرمِي طِفلْك من الرِّزق الذي سَاقَه الله إليه

تمنع بعضُ النِّساء أطفالهنّ من لبنها بحجج واهية - كالحفاظ على الرشاقة - !!
ولم يدر بخَلَدهنّ أهنّ بذلك تعدّينَ على حقوق أطفالهنّ، بل وَعَصَيْن الله تعالى.

إن إرضاع الطفل من لبن أمّه له مكانة في دين الله، وله تشريع خاص، كما أنه حكمة سامية.

اقرأئي قول الله تعالى:

﴿ وَٱلْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا: لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع.

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزواجهن، لأن الله يقول بعد ذلك:

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ومادامت الآية تحدثت عن ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ فذلك يعني أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرًا مفروغًا منه.

والحق سبحانه يفرض هنا حقًّا للرضيع، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع.

وبعض الناس فهموا خطأً أن الرزق والكسوة للزوجات عمومًا ونقول لهم:

لا.. إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتي يرضعن فقط.

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرًا مفروغًا منه، فشرع حق الطفل في أن يتكفله والده بالرزق والكسوة حتى يكون الأمر معلومًا لديه حال الطلاق.

وقوله تعالى:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل: يا والدات أرضعن، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب خبري على أنها أمر واقع طبيعي ولا يخالف.

ويقول الحق: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ .

ولنتأمل عظمة الأداء القرآني في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ إنه لم يقل: «وعلى الوالد» وجاء بـ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ ليكلفه بالتبعات في الرزق والكسوة، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هي مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم، وهي قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب في النهاية.

يقول الشاعر:

فإنّما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وما دام المولود منسوبًا للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو؛ وعليه أيضًا: رزق وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافًا

وظلمًا للأب في كثرة الإنفاق، ويقول الحق:

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هنا الحديث عن الأم والأب.. فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة.

ويتابع الحق: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ ولا زال الحق يُذكر الأب بأن المولود له هو، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته، وفي الوقت نفسه يُذكرُ الأم: لا تجعلي رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة.

إنه ﷻ يضع لنا الإطار الدقيق الذي يكفل للطفل حقوقه، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين.

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هي أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذي ينفق على الوليد الذي في رعاية أمه المطلقة؟

هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ .

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع، صحيح أن الرضيع سيرث في والده، لكن رعاية الوليد اليتيم هي مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات.

وهكذا يضمن الله ﷻ حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيًّا، وعند من يرث الأب إذا تُوفي.

وبذلك يكون الله ﷻ قد شَرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه، وشرع له في حال طلاق أبويه وأبوه حيٌّ، وشرع له في حال طلاق أبويه ووفاة أبيه.

ويتابع الحق: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾.

انظر إلى الرحمة في الإسلام، فطلاق الرجل لزوجته لا يعني أن ما كان بينهما قد انتهى، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق، فقوله تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ دليل على أن هناك قضية مشتركة ما زالت بين الطرفين وهي ما يتصل برعاية الأولاد، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد في عاطفة الأمومة، وحقهم في عاطفة الأبوة، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أوالأب، وإن اختلفا حتى الطلاق.

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور.

إن ما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي مسألة خطيرة، لأنها تترك رواسب وآثارًا سلبية عميقة في نفوس الأولاد، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة.

وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في مجيئهم للحياة؟

أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة؟

إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة؟

والحق سبحانه وتعالى قال في أول الآية:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين، أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين؟

هنا يقول الحق:

﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ .

إنه ﷻ يبين لنا أن الفصال أي الفطام يجب أن يكون عن تراضٍ وتشاورٍ بين الوالدين ولا جناح عليهما في ذلك.

ويقول الحق: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، و﴿ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ ﴾ أي أن تأتوا للطفل بمرضعة، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم في ذلك.

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم الموجود لديها بالفطرة، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف في صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتي لابنه بمرضعة، وهذه المرضعة التي ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسخِّيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة، والإشراف عليه بصدق.

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعي بظاهر الأمر تطبيقها، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام، مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعي أنه ينفق عليها، ويعطيها أجرها كاملاً، ويقابلها بالحفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك.

إن الله يحذر من يفعل ذلك:

أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله و﴿ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

عقاب مَنْ يمنعنَ أولادهنَ ألبانهنَ:

عن أبي أُمّامة الباهلي ﷺ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما أنا نائم إذْ أتاني رجُلان، فأخذا بضَبْعي، فأَتيا بي جَبَلاً، وعرًا، فقالا: اصعد، فقلت: إني لا أُطيقه، فقالا: إنا سنسهله لك؛ فصعدتُ، حتى إذا كنت في سواء الجبل، إذا بأصوات شديدة، قلتُ: ما هذه الأصوات؟، قالوا: هذا عواء أهل النار، ثم انْطُلق بي، فإذا أنا بقوم مُعَلّقين بعراقيبهم، مُشَقّقة أَشْدَاقهم، تسيل أشداقهم دمًا، قال: قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يَفْطُرون قبل تَحلّة صَوْمهم، فقال: خابت اليهود والنصارى، ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، وأسوأه منظرًا، فقلت: مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزّانون والزّواني، ثم انطلق بي، فإذا أنا بنساء تَنْهَش ثُديهن الحَيّات، قلت: ما بال هؤلاء؟ قال: هؤلاء يَمْنَعْن أَوْلَادهنّ ألبانهن، ثم انطلق بي، فإذا أنا بالغلمان يلعبون بين نهرين، قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذراري المؤمنين، ثم شرف شرفًا، فإذا أنا بنفر ثلاثة يشربون من خَمْر لهم، قلت: من هؤلاء؟ قال هؤلاء: جعفر وزيد، وابن رواحة، ثم شرفني شرفًا آخر، فإذا أنا بنفر ثلاثة قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى، وهم ينتظرونك - صلى الله عليهم أجمعين - ثم انطلقنا فإذا نحن برجال أحسن شيء وجهًا، وأحسنه لبوسًا، وأطيبه ريحًا، كأن وجوههم القراطيس، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الصّدّيقون والشُّهداء والصّالحون، ثم انطلقنا فإذا نحن بموتى أشد شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء موتى الكفار، ثم انطلقنا فإذا نحن نرى دخانًا، ونسمع عواءً قلتُ: ما هذا؟ قال: هذه جهنم فَدَعْهَا، ثم انطلقنا، فإذا نحن برجال ينام تحت ظلال الشجر، قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء مَوْتى المسلمين»[1].

والشاهد في الحديث قوله ﷺ: «ثم انْطلق بي، فإذا أنا بنساء تنهش ثُديّهن الحيّاتُ».

---

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وابن خزيمة، والحاكم، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والطبراني في «مسند الشاميين» وفي «الكبير» وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٧) رجاله رجال الصحيح.

النصيحة الرابعة والأربعون:

أوصيكِ بتقوى الله

تقدّم الحديثُ عن التقوى - قريبًا - والتقوى: هي وصية الله للأولين والآخرين.

قال الحق سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾ [النساء: ١٣١].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية:

وسبحانه هو الذي يُرضي الزوج إن افترق عن زوجته، ويرضي الزوجة إن افترقت عن زوجها؛ لأنه ﷻ خلق الدنيا التي لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هي خير ممن فارق، ويرزق المرأة رجلاً هو خير ممن فارقت، فلا شيء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء.

إننا كثيرًا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم، ويذهب الاثنان إلى معامل التحليل، ويقال أحيانًا: المرأة هي السبب في عدم النسل، أو: الرجل هو السبب في عدم النسل ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر، فتلد المرأة من الزوج الجديد، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة، لأن المسألة كلها مرادات الله، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائمًا فهو القائل:

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف؟

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾، ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾، ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ ﴾، ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾ هي بأربعة مقادير تجري على الرجل والمرأة، وعندما يهب الله المؤمن الإناث يكون سعيدًا، وكذلك عندما يهبه الذكور، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط، فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة، وإن وهب الحق سبحانه لأسرة ذرّية من الإناث فقط، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التي تقر بها العيون عادة، والحالة التي تقر بها العيون عادة مؤخرة.

إن الحالة التي تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة، فقال أولاً: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾، وبعد ذلك: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾، ثم ذكر عطاء الذكور، ثم يأتي بالحالة التي يكون العطاء فيها في القمة: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ ﴾، وأخيرًا يأتي بالقَدَر الرابع الذي يجريه على بعض خلقه وهو: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴾.

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه - سبحانه - الذكور والإناث، ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيمًا؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذي هواه، وترد القدر الذي ليس على هواك؟! إن المواقف الأربعة هي قَدَر من الله.

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضي بها، إنه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيمًا، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر

عينيه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور، أو بالذكور والإناث معًا، وأقسم لكم لو أن إنسانًا - أو زوجين - أخذا قدر الله في العقم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم، وقد ربَّاهم غيرهم، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق، هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر الله - والعياذ بالله - فيجعل الله حياتهم سخطًا، فهو القائل في حديثه القدسي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1]. ا.هـ.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لها مادام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق في حياتهما معًا، فهو سبحانه سيعطي عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة، وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل من في السموات وكل ما في الأرض، ثم اسأل نفسك هذا السؤال: مَن يقضي مصالحك كلها؟

إنه الحق - سبحانه - الذي سخّر أشياء ليست في طَوْق قُدْرَتك، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة؟ أأرغمت الماء أن يتبخر.وينزل مطرًا نقيًا؟ أأرغمت الريح أن تهب؟ أضربت الأرض لتقول لها: غذّي ما أضعه فيكِ من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات؟

كل هذا ليس في طوق إرادتك بل هو مسخَّر لك بأمر الله، وإن أردت

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الاستقامة في أمرك، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله: أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه مني سأنفذه قدر استطاعتي، فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخَّر المقهور المسير.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا تذكير بأن كل شيء مملوك لله وفي طاعته، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون، فكل ما فيه يخدمك، ولتسأل نفسك: أتعيش في ضوء منهج الله أم لا؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخّر لله، ولم يحدث أي خلل في القوانين الكلية، وسبحانه القائل:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى: إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق، ولكن الخلل إنما يأتي من اختيارات الإنسان لغير منهج الله.

﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يوضح سبحانه: لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهي؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذي تعيشون فيه، ويصبح كل شيء يسير منتظمًا في حياتكم، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط، لكنها قضية كونية عامّة جاء فيها كل رسول: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾.

ولم يقل: شرعنا للذين أتوا الكتاب من قبلكم، ولم يقل: فرضنا، إنما قال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ﴾ وكلمة «وصية» تشعر المتلقى لها بحب الموصي للموصى، ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ و«تقوى الله»

تعني: أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير.

ومن بعد ذلك يقول الحق:

﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [النساء: ١٣١].

ومقابل «الكفر» هو «الإيمان»، ومن يخرج عن الإيمان فالله غني عنه، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أنني أستميلكم إلى الإيمان لأني في حاجة إلى إيمانكم، لا.. لكني أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعًا سليمًا، مجتمعًا سعيدًا، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله، وستظل حتى - ولو كنت متمردًا - في قبضة مرادات ربك، فلن تتحكم في مولد أو في ممات أو في مقدورات، فالكون ثابت وسليم، وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون، يقول الحق:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ ﴾ [ق: ٦ - ١١].

وفي لحظة من اللحظات يأمر الحق كونًا من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت، والتي قال عنها سبحانه:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥].

وسبحانه هو الذي يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث في موقع منها زلزالاً، فتندثر المباني التي عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكمًا آليًا، بل محكومة

بالأسباب، وزمامها مازال في قيومية المسبب، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهي تغلق المجال الجوي كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله، وهذا لفت من الله لنا ليوضح: لقد صنعت هذه القوانين بقدرتي، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتي.

ونرى بلادًا تحيا على أمطار دائمة تغذي الأرض، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبرًا واحدًا دون خصوبة أو خضرة أو شجر، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلي، ويأتي الحق ليجري على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جدب، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشًا، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد.

وفي موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضًا منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل، وفجأت تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتقذف بالنّار وتجري الناس لتنقذ نفسها، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى في أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله، وعلى سبيل المثال: لم يؤت العقل البشري القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل، لكن الحمار يملك هذه القدرة.

﴿ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ وصدر الآية بالمقولة نفسها: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون، وتجيء المقولة مرة ثانية في الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنيّ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة في الآية الواحدة، ولكن قل: إن الحق جاء بها في صدر الآية لتثبت معنى، وجاءت في ذيل الآية لتثبت معنى آخر، فسبحانه هو الغني عن العباد:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومجيء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه، ومجيء ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ في ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد.



النصيحة الخامسة والأربعون:

لا تتركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلمي - **أختي المسلمة** - أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الرّحى التي يدور عليها الإسلام.

وقد بيّن الحق سبحانه أن الأمر بالمنكر والنّهي عن المعروف صفة من صفات المنافقين.

قال تعالى:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: ٦٧].

قال **الإمام الشعراوي** - رحمه الله تعالى - : «عادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات: ١١].

وقوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [النحل: ٩٧].

أما باقي الأحكام فتنصبُّ على الذكورة، وتدخل الإناث في الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السّتْر في الذكورة، ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة؛ لأن للرجال مجالس، وللنساء مجالس، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين، ولذلك كان لابد من النص على المنافقات.

وقول الحق سبحانه: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح، ويحدد الله خصائصهم في قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فهم إن فعل الناس معروفًا ينهوهم عنه، بل إنه يشجعوهم على فعل المنكر، وهم لا ينفقون في سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة؟ لا.. ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أي: أهملهم، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْدًا مصداقًا لقوله تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

فإن كنت مسرورًا من أنك نسيت الله فسيزيدك نسيانًا، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبدًا.

ثم يعطي الحق سبحانه الحكم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وكلمة «منافق» – كما نعرف – مأخوذة من «نفقاء اليربوع»، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن في الصحراء ويحفر لنفسه نفقًا في الأرض، له بابان، وإن ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثاني، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان.

و«الفسوق» معناه الخروج عن منهج الطاعة؛ وهو مأخوذ من «فسقت الرطب» أي: انفصلت القشرة عن الثمرة، والقشرة – كما نعلم – مخلوقة لصيانة الثمرة؛ فاذا فسقت عنها تلفت الثمرة، والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله.

ثم يقول الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

و«الوعد»: للخير و«الوعيد» للشر، ويقال: «أوعد» في الشر، وفي بعض الأحيان تستخدم كلمة «وَعَدَ» بدلاً من «أوعد» حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيرًا، فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليمًا على النفس، وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار، مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: ٢٩].

كأن الله أعطاهم وعدًا أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلي ويشوي وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضًا أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات عن الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [التوبة: ٦٨].

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار، والكفار موقعهم الدرك الأعلى، وقد يسأل سائل: كيف يكون ذلك؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة، فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائمًا منه، فلا يلحق بنا إلا ضررًا محدودًا، أما المنافق فهو تظاهر بالإيمان فأمناه، ويستطيع أن يلحق بنا شرًا رهيبًا، لأنه بحكم ما أخذه من الأمان منا، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفي - كما نعلم - شر من العدو الظاهر؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفي، وهو يعرف ما في نفسي، ويعرف كل تحركاتي، ويستطيع أن يغدر بي في أي وقت دون أن أكون منتبهًا لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا، فكيدهم يفشل؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم، أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم، فهم يُجنِّدون عددًا من ضعاف الإيمان ليطعنوا في هذا الدين، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم هي القاتلة وهي المؤثرة.

هنا نلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبدًا في النار إلا في ثلاث آيات فقط في القرآن الكريم:

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء: ١٦٩].

(٢) وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

(٣) وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣].

ولكنه ذكر الخلود في الجنة أبدًا مرات كثيرة.

ونقول: إن الجنة هي بشرى النعيم للمؤمنين، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذي ينتظرهم، ولكن بالنسبة للنار فهي دار عذاب، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود في النار متبوعًا بكلمة أبدًا إلا في ثلاث آيات، حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدي، وفي نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكر فيها النار، حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ، علَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود: ١٠٦ - ١٠٨].

وثار الحديث بين المستشرقين: كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ ثم يأتي في هذه الآيات ويستثني ويقول: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج، فالذين سيدخلون النار قسمان:

قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات: فيعذَّب في النار على قدر سيئاته، ثم يخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن.

وقسم آخر **كافر أو منافق**، الاثنان يدخلان النار، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قدر سيئاته، والثاني يبقى خالدًا فيها لأنه كفر أو نافق.

إذن فالمؤمن العاصي لا يخلد في النار، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾ لأنه لن يبقى في النار إلا بقدر سيئاته، فكأن خلوده في النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالدًا فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه، فتخرجه من النار إلى الجنة.

أما الكافر والمنافق فهما خالدان في النار لا يخرجان منها، فكأن هناك مَن يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديًا، وهذا هو المؤمن العاصي، وهناك مَن يدخل النار ويخلد فيها أبدًا، وهذا هو الكافر أو المنافق.

وإذا جئنا إلى الجنة، فهناك مَن سيدخل فيها خالدًا أبدًا؛ أي منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية، وهذا هو المؤمن الذي غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة،

ولكن هناك مَن سيدخل الجنة، ولكن خلوده فيها يكون ناقصًا وهو المؤمن العاصي؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه.

إذن: فالمؤمن العاصي خلوده في النار ناقص؛ لأنه لن يبقى فيها أبدًا، وكذلك يفتقد الخلود في الجنة فور انتهاء لحظة الحساب؛ لأنه لن يدخل فيها إلا بعد الحساب مباشرة، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه، فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة.

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: تكفيهم كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه، فيأتي إنسان قوي ويقول لك: اتركه لي، أنا وحدي كفيل أو أؤدبه، فتقول: هذا حسبه، أي: يكفيه هذا؛ ليتم التأديب المطلوب، كذلك النار؛ فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم، أي أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كاف جدًّا لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا، وأما ما بعد الموت والآخرة، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية؛ لأن زمان ذلك قد انتهى، لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، ومرة بأنه ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، ومرة بأنه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾، لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم، فإن كان الإنسان مُتجلِّدًا له كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعاني، فالعذاب لن يكون أليمًا فقط، ولكنه مهين أيضًا، والهوان هو إيلام النفس، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّدًا فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ، وبعض الناس قد

يتحمل الألم، ولكن لا يتحمل الإهانة التي تصيبه بعذاب نفسي أكثر من العذاب البدني، فقد تأتي لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده، ويكون هذا أكثر إيلامًا لنفسه من أن تضربه.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي: عذاب دائم، فإن كان أليمًا يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبدًا، وإن كان مهينًا تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبدًا، وفي كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار» ا.هـ.

أمّا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فهو صفة من صفات المؤمنين والمؤمنات، قال تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

قال **الإمام الشعراوي** – رحمه الله تعالى – :

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٧]، فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات، وتلك مناسبة الضد بالضد؛ لأنَّ قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معًا.

والمثال قول الشاعر حين يمدح محبوبته فيقول:

فالوجه مثل الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسود

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم، وحنثهم فيما يحلفون، وخلفهم فيما يعاهدون، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات. لكن التقابل هنا اختلف في شيء؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

وحين تكلم عن المؤمنين قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ أي أهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع، فهم يقلدون بعضهم بعضًا، وبما أهم قد أقاموا عقيدهم على الشر، فكلهم شر، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول ردهم عن النفاق، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى.

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير، فإن وجد في مؤمن شر؛ فوليه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله في كل شيء. بل هناك خصلة ضعف في كل نفس بشرية. فإن وجد في المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يبينون له نقطة ضعفه ويبصرونه وينصحون له، ويرد في نقطة ضعفه، والمؤمن أيضًا ينبه غيره ويبصره، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن، كل واحد يردّ الآخر في نقطة ضعفه، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ليكتمل إيمان الجميع، ومن يقصر في شيء يجد القريب منه؛ وهو يسد الثغرة الطارئة في سلوكه.

أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٦٧]. أي: أهم جميعًا من بعض، فلا يتناهون عن منكر فعلوه، ولا يوجد بينهم ناصح.

وقوله الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، لم يبين لنا من المولى ومن الموَالَى، فكل مؤمن هو ولي وهو موال؛ لأن الولاية مأخوذة من «يليه»، أي صار قريبًا. وضدها عاداه أي بعد عنه وتركه. إذن: فالموالاة ضدها العداوة. وفائدة القرب أن يكون الولي نصير أخيه المؤمن في الأمر الذي هو ضعيف فيه.

فإذا كنت ضعيفًا في أمر ما، فأخي المؤمن ينصرني فيه. ومادام أخي المؤمن

ينصرني في أمر ما، فإن صار هو ضعيفًا في شيء أنصره أنا فيه، فَتتفاعل ونتكامل ويصبح كل منها وليًا ومُوالَي.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر].

ولو قيل: «وصوا» لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون، لكن الحق قال: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾. ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصي أخاه المؤمن. فإن كان عندي نقطة ضعف فأنت توصيني وتقول: اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن. وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك: لا تفعل هذا فأنت مؤمن.

إذن: فكل واحد منا موصٍ وموصًى. كذلك الولاية فأنت وليي. أي: قريب مني تنصرني في ضعفي. وأنا وليك، أي قريب منك. أنصرك في ضعفك لأننا أبناء أغيار؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر.

والولاية تكون أيضًا في الحق، فقد أميل إلى الباطل في نقطة فيقول لي أخي المؤمن: اعدل. وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له: اعدل. وهكذا يتكامل الإيمان.

ولذلك تجد كلمة الولاية بمعنى القرب والنصرة في قول الحق في ذاته:

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤].

أي: أن النصر الحقيقي والقرب الحقيقي لله؛ لأننا نعيش في عالم أغيار، فقد تطلب النصر عندي فتكون قوتي قد ذهبت، أو يكون مالي قد فنى، أو يكون نفوذي قد انتهى، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوي دائمًا، والغني دائمًا، الذي يغير ولا يتغير، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقي الدائم لا نصر الأغيار.

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

أي: أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله.

وكذلك يقول تبارك وتعالى:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

إذن: فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون مواليًا. ومرة يكون موالي، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره.

ويقول تعالى:

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

أي: إذا تقربت إلى الله بطاعته ونصرة منهجه، فهو يقرب منك في أزماتك وينصرك ويثبت أقدامك.

إذن: فالولاية في الأصل هي القرب والتناصر، ومادام هناك تناصر فلابد أن تكون هناك نقطة ضعف في مؤمن، ونقطة قوة في مؤمن آخر؛ ولكن من الذي سيكون في ضعف دائمًا، أو في قوة دائمًا؟ لا أحد. إذن: فكل واحد يَنصُر، وكل واحد يُنصَر.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد قال: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. ولم يعين البعض؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصرًا ومنصورًا.

ويصف الحق - سبحانه -المؤمنين بأنهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

فإذا فعل مؤمن منكرًا؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه، وإذا لم يفعل معروفًا جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف. وكل واحد منا ناه عن منكر، ومنهى عن منكر.

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه، أو وأنت بعيد عنه، فلا

يمكن أن تكون في يدك كأس من الخمر؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التي في يده، لا يمكن إذن أن تنتهى عن منكر وأنت تفعله؛ والذي يأمر بمعروف لأبُدَّ أن يكون فاعله، والذي ينهى عن المنكر لأبُدَّ أن يكون بعيدًا عنه. فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف وناه عن المنكر.

ويضيف الحق وصفًا للمؤمنين:

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

وإقامة الصلاة هي إعلان الولاء للخالق الأعلى، ومن له ديمومة لا نهاية لها. والمؤمنون أولياء بعض، ولكن من وليهم جميعًا؟ إنه الله سبحانه وتعالى، ولابد أن يلتحموا بمنهج الولي الأعلى الذي لا نستغنى عنه جميعًا.

والله - سبحانه وتعالى - حين وصف المؤمنين بأنهم أولياء بعض، قال لنا:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

إذن: فلأبُدَّ أن نتجه جميعًا إلى الوالي الكبير. فهو سبحانه فوق أسبابنا، وفوق قوتنا وهو الذي ينصرنا إن عزت ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض، فنلجأ للولي الكبير.

ومادامت الولاية لله الحق. فلأبُدَّ أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى. واستدامة الولاء لا يكون إلا بالصلاة.

وساعة تسمع المؤذن يقول: «الله أكبر» تسرع إلى الصلاة. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى - وهو ربك وصانعك ووليك - قد دعاك إلى الصلاة، فلأبُدَّ أن تجيب الدعوة.

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائمًا فافعل، بعد أن تكون قد أديت ما فرضه - سبحانه - عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد،

وحين تعرض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان. وأنت إن جئت بأي آلة وجعلت المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبدًا.

كذلك الإنسان وهو صنعة الله، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه. والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء، فالمادة تصلح بالمادة، ولكن الله - سبحانه - غيب، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت واقف أمامه تصلي. لكنك تشعر بلاشك أن شيئًا فيك قد انصلح.

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر - أي كان هذا الأمر فوق طاقته - قام إلى الصلاة[1]؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئًا فيتجه إلى المسبب، ويقف بين يديه؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو الذي يملك الحل. ولذلك كان ﷺ يقول لبلال: «**أرحنا بها يا بلال**»[2].

كأن الراحة بها. أي: اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة.

لذلك كان لابُدَّ أن يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

لأن الصلاة استدامة الولاء لله، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضًا خمس مرات في اليوم، وترك سبحانه الباب مفتوحًا لتطوعك، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله إلا فعلت.

(١) عن حذيفة قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى». حديث صحيح: رواه أحمد وأبو داود.
(٢) أخرجه الإمام أحمد وغيره.

ولكي تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شيء، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزًا، فهو يملك أسبابًا لقضاء حاجتك، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم، وقد يقول: لا. فإذا قال نعم، يسألك عم ستتكلم فيه. فإذا قلت: إنك ستتكلم في كذا، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة.

ولكن الحق - سبحانه وتعالى - لا يفعل هذا. أنت تذهب له في أي وقت تشاء، وفي أي مكان تشاء، وتتكلم فيما تريد، وهو - سبحانه -لا ينهي المقابلة أبدًا، أنت الذي تنهي المقابلة مع ربك.

ويقول رسول الله ﷺ: «**لا يمل الله حتى تملّوا**»[1].

والحق ﷻ لا يشغله شيء عن شيء؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد، ويستمع إليهم في وقت واحد، ويجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد.

ويقول سبحانه:

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطي، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه، فأنت تعطيه لتستبقى له حياته فيواصل الولاء لله معك؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير، والمال يأتي بالعمل، والعمل يحتاج إلى وقت. إذن: فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة.

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء، بأن تخصص جزءًا من أثر هذا الوقت للزكاة، فلا يكون كل وقتك للعمل. وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

فحين تخصص جزءًا من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكيت الوقت بالصلاة، وزكيت المال بالعطاء.

ويقول الحق:

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام، فلماذا يقول سبحانه: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾؟

نقول: الله - سبحانه -ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. هذه الأركان ليست هي كل الإسلام. بل هي القواعد التي بُني عليها الإسلام؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**بني الإسلام على خمس**».

إذن: فهذه هي الأعمدة أو الأسس التي بُني عليها الإسلام. ولكن الإسلام هو كل حركة في الحياة تصلح ولا تفسد، وتسعد ولا تشقى، ولذلك أراد الحق - سبحانه وتعالى - أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التي وضعت، ولكن لابُدَّ من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ فيما أمرنا به في كل حركة الحياة.

وحركات الحياة كلها متكاملة، وإذا نظرت للشيء الذي تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهي وضع خميرة في عجينة الخبز؛ وكيف عرفنا هذا؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل، والذي بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة في العجين ليكسب الخبز طعمًا، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة[1] أو نتيجة أخطاء.

(١) الأَوْلى أن يُقال: أتت قَدَرًا.

فالبنسلين - على سبيل المثال - اكتُشف نتيجة خطأ. وقاعدة أرشميدس التي بنيت عليها نظرية الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس. وحين يأتي ميلاد كشف جديد للبشرية، فسبحانه يهدي خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم.

ومثال آخر: ما الذي جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى؟ ما الذي جعلك تطهو بعض أنواع الخضروات ولا تطهو أنواعًا أخرى. كل هذا هدانا إليه الله.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

إذن: فكل ما ننتفع به في حركة الحياة، قد أتانا من أجيال مضت؛ ولذلك من يأتي ليقول: سأنقطع للعبادة صلاة وصومًا؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - قال في كتابه العزيز:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦].

نقول: سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط. ولكنك لكي تصلي؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلي وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة. هب أنك ستأكل رغيفًا من الخبز فقط، من أين تأتي بهذا الرغيف؟ من البقال. ومن أين أتى به البقال؟ من المخبز. ومن أين جاء المخبز بالدقيق؟ من المطحن. ومن أين جاء المطحن بالقمح؟ من مخزن الغلال. ومن أين جاء المخزن بالقمح؟ من المزارع. والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكي يحرث الأرض، وجاء بآلات لكي يسقى.

إذن: فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استفدت بحركة غيرك، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة، وكل حركة في الحياة تعينك على أداء العبادة هي عبادة.

ومثال آخر: لكي تصلي لابُدَّ أن تستر عورتك في الصلاة. إذن: فأنت تحتاج إلى قماش تأتي به من التاجر، والتاجر أتى به من مصنع النسيج، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج، والمحلج جاء به من الحقل، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول، ويقي القطن من الآفات. كل هذه هي من حركات الحياة التي مكنتك أن تستر عورتك في الصلاة، وكل منها عبادة.

إذن: كان من الضروري أن يقول: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بعد: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله في الإسلام الذي بنى على هذه الأركان.

ثم يقول الحق: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذي هم أولياء بعض، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، هؤلاء سيرحمهم الله.

وأيهما أبلغ: أن يقال: أولئك يرحمهم الله، أو يقال: سيرحمهم الله؟

الأبلغ أن يقال: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

لأن السين تهتك ستار الزمن؛ وبذلك يحيا المؤمن دائمًا في رحمة الله التي لا تنقطع.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومعنى ﴿عَزِيزٌ﴾: أنه غالب على أمره، وما يريده يقع؛ ولا يُغلب. ولكن إياك

أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم، لا؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحدًا، ولأنه عزيز بحكمة، وهناك عزيز بلا حكمة، تغريه عزته أن يطغى، لكن الله عزيز حكيم، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان، ولكنها بحكمة إلهية.

وَعْدٌ الله للمؤمنين والمؤمنات

ويأتي بعد ذلك وعد الله للمؤمنين والمؤمنات بالجزاء والنعيم في الآخرة، فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة: ٧٢].

و«الوعد»: بشارة بخير يأتي زمانه بعد الكلام. و«الوعيد»: إنذار بسوء يأتي بعد الكلام.

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل؛ حتى يتحقق له الخير الذي وُعد به. والوعيد يعطي السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله.

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ ثم ذكر العذاب الذي ينتظرهم، وبعد ذلك قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ثم وصف النعيم الذي ينتظرهم، مع أن الشائع في اللغة أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر، فكان من المناسب في عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى: «أوعد الله المنافقين» لأن الذي سيأتي بعد ذلك عذاب ونار وشر، وأن يقول في المؤمنين: «وَعَدَ الله» لأن الذي سيأتي بعد ذلك جنة ونعيم وخير.

ولكن الأسلوب جاء مخالفًا للعرف البشري، فجاء بكلمة ﴿ وَعَدَ ﴾ وهي تقال

دائمًا للخير في حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين، واستخدام ﴿ وَعَدَ ﴾ بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للمنطق البشري؛ لأنه وعد بخير، ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة ﴿ وَعَدَ ﴾ مكان «أوعد»، فالذي يتكلم هنا هو الحق سبحانه، فلا تَقِس كلام الله على كلام البشر؛ لأن البشر يفوتهم في كلامهم ملاحظ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله، والبشر يتفاوتون في الأداء وأساليبه، ولكن الحق أسلوبه واحد.

فلماذا جاء سبحانه إذن بكلمة ﴿ وَعَدَ ﴾ بدلاً من «أوعد»؟

نقول: إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات، ثم تكلم عن جزائهم إن أصرُّوا على نفاقهم، كان ذلك تحذيرًا حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذي ينتظرهم؛ علَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان.

إذن فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم، كما تقول لمن يهمل في دروسه: سترسب إذا أهملت دروسك، فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة، وأوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذي أوعد به؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٥، ٣٦].

هل «الشواظ من النار» نعمة، حتى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي: فبأي نعم ربك تكذب؟ نقول: نعم إنه نعمة، لأن الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك: إن خالفت هذا فستذهب إلى النار، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة، والعظة والنصيحة نعمة؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة.

إذن فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذي ينتظرهم، يكون هذا خيرًا

ونعمة؛ لأنهم إن اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار، وفي هذا خير عميم، ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة ﴿ وَعَدَ ﴾ ولم يستخدم «أوعد»، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذي أراده الله.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ و«الوعد» كما قلنا بشارة بخير مستقبلي، و«الوعيد» إنذار بشر يأتي في المستقبل، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة، لأنك إن وعدت مَن يلتزم بمنهج الله خيرًا، استحسن الناس جميعًا أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله، نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفًا من العذاب وتجنبوا الشر، فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر، استقام ميزان الحياة.

وبعد أن تكلم الحق ﷻ عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم، فكيف ستكون هذه الرحمة؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾.

إذن: فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعًا، ثم يأتي قوله تعالى:

﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾.

وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة تفرده يكون له فيها مسكن طيب.

إذن: فعندنا جنات، وهي لجميع المؤمنين، ثم مساكن طيبة، أي مسكن طيب

لكل مؤمن، وما هو الطيب في هذه المساكن؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً، ثم يحب الانكماش ثانيًا، وإذا أراد أن يملك فهو يريد أن يملك مكانًا متسعًا خاصًّا به، ثم يخصص في هذا المكان مأوى طيبًا خاصًّا به.

وقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: ليس فيها ما يسيء أو يضايق بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة، وكلمة «جنة» هي المكان الذي فيه زروع وخضرة، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب.

وعندما أراد الحق - سبحانه وتعالى - أن يعطينا صورة الجنة في الآخرة؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟

نقول: الوجود المعروف في الكون هو الوجود الذي تراه أو تسمعه، وفي هذه الحالة يكون الوجود أوسع؛ لأنك ستسمع الذي رآه غيرك حين يقصه عليك.

إذن: فالسماع أوسع من الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك. فأنت إذا قلت: إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة، تكون دائرة معلوماتك أوسع؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك. وأما الأشياء التي لا تخطر على بال بشر، فهي أوسع كثيرًا مما ترى وتسمع؛ لأنها أشياء فوق الحصر.

والكلمات توضع لمعان معلومة، فألفاظ اللغة لابد أن توضع لمعان مرت على العين، أو مرت على السمع، أو مرت على الخاطر. فقبل أن يخترع التليفزيون لم يكن له اسم. إذن: فلا يمكن أن يكون هناك اسم، إلا إذا كان هناك وجودًا أولاً، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك في اللغة ما يعبر عن شيء غير موجود؛ ولكن الألفاظ

تضاف إلى اللغة بعد وجود الشيء. وهذه مهمة المجامع اللغوية في العالم. فالأشياء توجد أولاً، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء.

ولكن الجنة في الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما في جنة الآخرة، فإذا أضفنا إلى ذلك: ولا خطر على قلب بشر. تكون اللغة عاجزة تمامًا عن أن تعبر عما في جنة الآخرة.

ويقول – سبحانه –:

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾.

أي: أن مساكن المؤمنين في الجنة ستكون أيضًا جنات خاصة بها، وكلمة ﴿عَدۡنٍۚ﴾ مادها «العين والدال والنون» معناها الإقامة.

و«عَدَنَ في المكان» أي أقام فيه.

إذن: فهي جنات إقامة؛ لأن هناك فارقًا بين أن تسكن في فندق مثلاً، أو في مكان مؤقت، وبين أن تقيم خالدًا.

وحين يعطي الحق – سبحانه – للمؤمن بُشْرى بأشياء، فهو يريد دائمًا ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته – سبحانه –، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله. فالرجل الفقير حين يبني مسكنًا يكون المسكن متواضعًا؛ مجرد حوائط تستر الإنسان، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبني قصرًا كبيرًا، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذي صنع، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته؛ فهو الذي يمسك الأمور كلها، ويأتي تنفيذه لأي شيء وفق ما يريد.

إذن: فالخلود في جنات عدن خلود دائم، وهي جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة أن من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبدًا؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها. والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه، فلو

كان ما في جنات عدن مما يُزهَدُ فيه بعد فترة، ما وصفها الله بهذا الوصف.

ولكي يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله - سبحانه وتعالى - وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة، والمُنْعَمُ عليهم بالنعمة، وهم المؤمنون والمؤمنات. ومن أطاع الله طمعًا في الحصول على نعيم الله في الآخرة، يأخذ هذا النعيم. والذي أطاع الله لذات الله، ولأنه - سبحانه وتعالى - يستحق أن يعبد لذاته ويطاع، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم.

إذن: فكل إنسان لما عمل له، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك، وأحببت أن تكون دائمًا في لقاء مع الله، بأن تقوم الليل وتتهجد، وتقرأ القرآن وتصلي والناس نيام، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك، وتفعل ذلك محبة في الله الذي يستحق التعظيم، فأنت تستحق المنزلة الأعلى، وهي أن تكون في معيّة الله.

ويقول سبحانه:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والحق - سبحانه وتعالى - يتجلى على أهل الجنة فترات، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائمًا، وعندما يَتجلّى الحقُّ - سبحانه - على أهل الجنة ويقول: «**يا أهل الجنة. فيقولون: لَبَّيْك رَبَّنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(١).

ولذلك نجد أن الحق - سبحانه وتعالى - بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التي تجرى من تحتها الأنهار، والمساكن الطيبة التي في جنات عدن، أوضح

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

- سبحانه - أن هناك شيئًا أكبر من هذا كله، وهو رضوان الله في قوله تعالى:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فالذي عمل للجنة يعطيه الله الجنة، والذي عمل لذات الله يعيش في معيّة الله - سبحانه -.

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله:

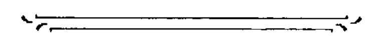
﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم؟

لقد تقدمت أشياء كثيرة؛ تقدمت جنات تجري من تحتها الأنهار، وجنات عدن، ومساكن طيبة، ورضوان الله، فأيها هو الفوز العظيم؟

نقول: كلها فوز عظيم، فالذي فاز بالنعيم الأول في الجنة أخذ فوزًا عظيمًا، والذي فاز بالمساكن الطيبة في جنات عدن أخذ فوزًا عظيمًا، والذي أخذ رضوان الله يكون قد أخذ الفوز الكبير والعظيم.



وأخيرًا



لا تنسي - أختاه - يوم الحساب، فإن ذِكْرَه يقوّي العزم على الطاعات، ويكبح جماح النفس عن المخالفات.

ولله در القائل:

مثل لنفسك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور
إذا كورت شمس النهار وأدنيت حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت وإذا خلت الديار فما بها معمور
الوحوش لدى القيامة أحشرت وتقول للأملاك: أين نسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت من حور عين زانهن شعور
وإذا الموءودة سُئلت عن شأنها وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السما بيمينه طيّ السجل كتابه المنشور
وإذا الصحائف عند ذاك تساقطت تبدى لنا يوم القصاص أمور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت وهتكت للمؤمنين ستور

وإذا السماء تكشطت عن أهلها ... ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها ... فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجِنان تزخرفت وتطيبت ... لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه مستعلق ... يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جناية ... كيف المصر على الذنوب دهور؟!

«اللّهم استُر، واجعل تحت السّتر ما تُحِبّ».



الفهرس





أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠